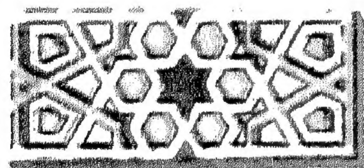
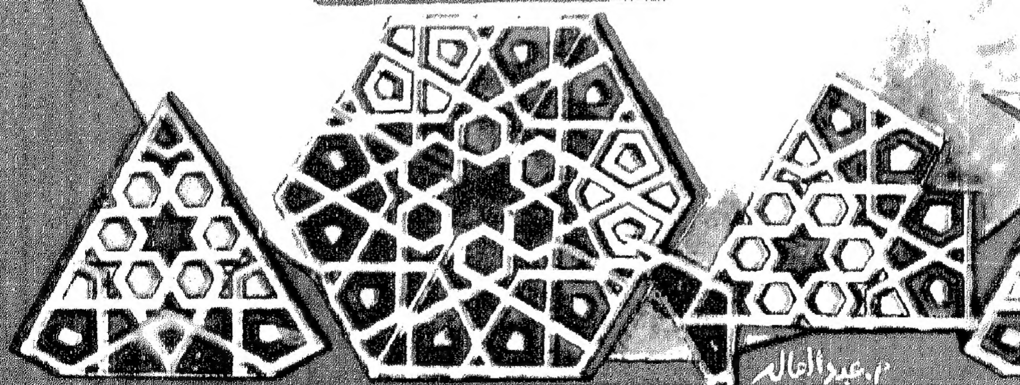
السياسة المالية

لعثمان بن عفان

تأليف: قطب ابراهيم محمد





السياسة المالية لعثمان بن عفان

تأليف : قطب ابراهيم محمد



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٦

الاخراج الفنى

راجيه حسين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يتناول هذا الكتاب موضوع السياسة المالية فى عهد الخليفة عثمان ابن عفان رضى الله عنه . والسياسة المالية فى عهد عثمان بن عفان هى ثالث مالية عامة اسلامية بعد الرسول صلى الله عليه وسلم .

فكانت أولى الماليات العامة الاسلامية بعده عليه الصلاة والسلام ، هى المالية العـامة فى عهـد أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، نبعت من القرآن الكريم وسنن رسول الله ، وتخلفت بتعاليم الاسلام من عدل فى فى الجباية ورشد فى الانفاق العام وعفة الخليفة والولاة وعمال الخراج عن الأموال العامة وزهدهم فيها ، وكانت فى بدء عهد الخليفة الأول محدودة الموارد غير أن انتصاره على مانعى الزكاة وما تم فى عهده من فتوحات ودخول الناس فى دين الله أفواجا مكنت المالية العامة من تحقيق زيادة فى الايرادات العامة عن النفقات العـامة وتوزيع عطـاء قليل من بيت المال على المسلمين .

وثانى الماليات العامة الاسلامية بعد الرسول صلى الله عليه وسلم هى المالية العامة فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، تميزت بأنها منضبطة نتيجة حسم الخليفة وعفته واقتداء الولاة به ، غزيرة الموارد نتيجة امتداد الدولة الاسلامية لبلاد جديدة أدى المسلمون فيها الزكاة وأدى أهل الكتاب الجزية والخراج وآل لبيت المال نصيبه من الغنائم التى غنمها المسلمون حين تحقق نصر الله بفتح هذه البلاد فتمكن الخليفة من توزيع فائض الأموال العامة على المسلمين على هيئة أعطيات طفرت قيمتها عما كان يوزع فى عهد الخليفة أبى بكر رضى الله عنه .

وثالث الماليات العامة الاسلامية بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم هى المالية العامة فى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه . وقد حاولنا فى هذا الكتاب أن نستخلص أسس سياسته من كتب عامة للخليفة صدرت وأن نبلور كيانها طبقا لقواعد أصولية للمالية العـامة أستقرت وأن نوضح مسار تنفيذها استنادا لوقائع تاريخية رويت وأن نحلل نتائجها المالية بمقارنات بين ايرادات عامة جبيت ونفقات عامة

صرفت وأن نحدد تأثرها بالمجتمع وتأثر المجتمع بها بمناقشة آراء عامة في هذا العهد أبديت ودعوات عامة أعلنت وفتنة كظلمة الليل وقعت ٠

وقد صادف بحث الموضوع الكثير من الصعاب بسبب عدم وجود كيان محدد ومتكامل للسياسات المالية في تلك العهود كما هو الشأن في العصر الحديث ، وقلة اهتمام المراجع التاريخية بأبراز المسائل المالية وعدم وضوح الصورة الرقمية لحركة المالية العامة فى ذلك العهد وتداخل الوقائع ذات الطابع المالى مع الأحداث السياسية التى اتسمت بطابع خاص في خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه ٠

وبالرغم من هذه الصعوبات فقد تم بعون الله وتوفيقه أبراز الملامح الكاملة للسياسة المالية الاسلامية لعثمان بن عفان ومقارنتها بالسياسة المالية للخليفة السابق عمر بن الخطاب ٠

ولما كان وضع السياسات المالية موضع التنفيذ قد لا يحقق كل أو بعض النتائج التى استهدفتها سياساتها المعلنة فقد تم تتبع تنفيذ السياسة المالية لعثمان بن عفان فى ضوء ما صدر منه من قرارات وما قام به ولاته وعماله من أعمال ٠

ولما كانت بعض نواحى التنفيذ قد تعرضت للنقد من معارضين فى عهده ومن بعض الكتاب والمؤرخين فقد تم مناقشة وجوه النقد ودفاع الخليفة نفسه ردا على هـذا النقد لاستخلاص الرأى الحق فيما أبدى من آراء ٠

وكى يكون تتبع السياسة المالية الاسلامية فى عهد عثمان بن عفان ميسرا واضحا بعد أن مضت عليها مئات السنين فقد تم وضع عمليات المالية العامة فى عهده فى اطار من الفن المالى الحديث وذلك بتصوير موازنات عامة تحتوى ايرادات ونفقات كل أنشطة المالية العامة فى ذلك العهد فتم تصوير موازنة عامة للزكاة ومصارفها وموازنة عامة للايرادات من الضوائع وتركات من لا وارث لهم ومصارفها وموازنة عامة للايرادات من خمس الغنائم ومصارفها وموازنة عامة للايرادات من الجزية والخراج وعشور التجارة ومصارفها ٠

وقد روعى فى وضع هذه الموازنات مطابقتها لأحكام القرآن الكريم وسنن الرسول صلى الله عليه وسلم ومبادىء الشريعة الاسلامية ٠

ولما كان التوازن المالى والاجتماعى هو هدف أى سياسة مالية عامة رشيدة ، فقد تناول البحث مناقشة مدى تحقيق تنفيذ السياسة المالية

فى عهد الخليفة الثالث للتوازن المالى كما تم مناقشه أثر هذه السياسة فى تحقيق التوازن الاجتماعى وفى ضوء دعوة صدرت من صحابى جليل فى عهد عثمان هو أبو ذر الغفارى وكانت الدعوة تدعو الأغنياء الى عدم اكتناز الأموال وتقرر حقوقا للفقراء فوق الزكاة فى اموال الأغنياء ·

لم تكن دعوة أبى ذر هى الدعوة الوحيدة فى عهد عثمان بل قامت أيضا معارضة وجهت فى بادىء الأمر لبعض نواحى سياسات الخليفة ثم ما لبثت أن انحرفت وتحولت الى فتنة كبرى أدت الى قتل الخليفة نفسه · والفتن اذا وقعت تليها النكسات والنكسات تؤثر على السياسات العامة ومنها السياسة المالية ، لذلك تم بحث الفتنة وأثارها على السياسة المالية الاسلامية ·

وفى النهاية تم وضع تقييم عام للسياسة المالية العامة فى عهد الخليفة عثمان رضى الله عنه ·

وفى ضوء ما سبق حوى الكتاب خمس أبواب وكل باب مكون من فصلين على النحو التالى :

الباب الأول : ويتناول عموميات عن شخصية عثمان بن عفان ومبايعته ومقدمات سبقت عهده ·

الفصل الأول : يوضح الوقائع النهائية لمبايعة عثمان بن عفان ويحلل مناقبه قبل الخلافة واسلامه وصلته بالرسول صلى الله عليه وسلم وما اتسم به من حياء ولين وينوه عن تطوعه بأمواله فى سبيل دعوة الاسلام ويشير الى الخبرات التى اكتسبها فى المسائل العامة قبل توليه الخلافة ·

الفصل الثانى : يختص بمناقشة مقدمات عامة سبقت عهد عثمان شملت تحليلا لشخصيات بعض الصحابة باعتبارهم جماعة لها ثقلها فى ادارة الدولة الاسلامية ولها رأى فى سياستها العامة ومنها السياسة المالية ، ومن هذه المقدمات أيضا نوايا للخليفة السابق بتعديلات فى السياسة المالية وخوف من فتن قد تحدث ومنافسات قبلية بين الهاشميين والأمويين وانتفاضات فى الأمصار قبيل ولاية عثمان الخلافة وقد تولاها فى سن الشيخوخة ونبؤات للرسول صلى الله عليه وسلم باستشهاد عثمان بن عفان ·

الباب الثانى : ويختص بالسياسة المالية فى عهد الخليفة عثمان ·

الفصل الأول : ويتناول تحليل كتب أذاعها عثمان ومنها تم استنتاج أركان السياسة المالية ·

الفصل الثاني : يناقش تنفيذ السياسة المالية في ضوء موازنات عامة تم تصويرها للزكاة والضوائع وخمس الغنائم ٠

الباب الثالث : ويناقش تنفيذ السياسة المالية عن طريق الموازنة العامة للدولة فى عهد الخليفة عثمان بن عفان ٠

الفصل الأول : ويعالج الايرادات العامة لهذه الموازنة وهى الجزية والخراج وما يتصل بها من فتوح تمت فى عهد عثمان بن عفان ، وينوه عما حصل عليه بيت المال من جزية مصدرها هذه الفتوح وخراج فرض على أرض الأمصار كما يتناول الايرادات العامة من عشور التجارة ٠

الفصل الثاني : يحلل النفقات العامة لهذه الموازنة سواء أكانت نفقات جارية كمرتبات الولاه والعاملين بالدولة أو نفقــات عامة وجهت لاقامة المساجد وحفر الآباروانشاء الأسطول البحرى للدولة كما يناقش هذا الفصل ما أثير من نقد وجه لبعض النفقات العامة ويبدى الرأى فيها في ضوء أحكام الدين وتعاليمه ٠

الباب الرابع : ويتناول التوازن المالى والاجتماعى فى عهد الخليفة عثمان ابن عفــان ٠

الفصل الأول : وينتهى الى أن المالية العامة فى عهد عثمان بن عفان توازنت ماليا وحققت فائضــا مكن الخليفة الثالث من استمرار توزيع الأعطيات على الناس وزيادتها ، كما تضمن هذا الفصل الاشارة الى اتجاه جديد فى صرف الأعطيات وهو تلون بعضها باللون السياسى بعد أن كانت الأعطيات جميعا ذات طابع قومى دينى محايد ٠

الفصل الثاني : ويناقش عدم التوازن الاجتماعي وأسبابه ويربط بينه وبين دعوة أبى ذر الغفارى التى نادت بمزيد من الحقوق للفقراء لدى الأغنياء ويحلل الدعوة وحياة صاحبها وزهده وتركه المدينة ووفاته ، على أن من أهم ما يحويه هذا الفصل هو الاشارة الى عدم تنفيذ وعــد عمر ابن الخطاب بأن يجعل الناس فى العطاء بيانا واحدا وأخذ فضول الأغنياء وتوزيعها على الفقراء ويوضح وسائل تعديل السياسة المالية فيما لو رؤى وقتئذ تنفيذ ما نواه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ٠

الباب الخامس : ويتناول الفتنة الكبرى التى وقعت فى عهد عثمان وآثارها المالية ٠

الفصل الأول : يناقش أسباب الفتنة الكبرى وخطواتها والآراء التى أبديت بشأنها ٠

الفصل الثانى : ويوضح آثار الفتنة الكبرى على المالية العامة ٠

ويختم البحث بوضع تقييم عام للمالية العامة فى عهد عثمان ابن عفان رضى الله عنه ٠

فاذا ساهم هذا الكتاب فى القاء الضوء على المالية العامة التالثة للدولة الاسلامية بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى عهد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه ٠

فما هذا الضوء الا قبس من نور الله جل وعلا ٠

والله نور السماوات والأرض ٠

قطب ابراهيم محمد

الباب الأول

مبايعة عثمان بن عفان
ومناقبه ومقدمات سبقت عهده

الفصـل الأول

مبايعة عثمان بن عفان بالخلافة
والتنويه عن منـاقبه السـابقة للخلافة

مبايعة عثمان بن عفان رضي الله عنه بالخلافة :

صاح بمسجد الرسول صلى الله عليه وسـلم صائح : الصلاة جامعة ، وخرج عبد الرحمن بن عوف وعليه عمامته التى عممه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، متقلدا سيفه حتى ركب المنبر ، فوقف وقوفا طويلا ، ثم دعا الله بما لم يسمعه الناس ثم تكلم فقال : أيها الناس ، انى قد سألتكم سرا وجهرا عن امامكم ، فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين الرجلين : اما علي واما عثمان ، فقم الى يا علي .

فقام اليه علي ، فوقف تحت المنبر فأخذ عبد الرحمن بيده .

فقال : هل أنت مبايعى على كتاب الله وسنة نبيه وفعل أبى بكر وعمر ؟

قال : اللهم لا ولكن على جهدى من ذلك وطاقتى .

فأرسل يده .

ثم نادى : قم الى يا عثمان .

فأخذ بيده ، وعثمان فى موقف علي الذى كان فيه .

فقال : هل أنت مبايعى على كتاب الله وسنة نبيه وفعل أبى بكر وعمر .

قال : اللهم نعم .

فرفع عبد الرحمن بن عوف رأسه الى سقف المسجد ويده فى يد عثمان .

ثم قال : اللهم اسمع وأشهد ، اللهم انى قد جعلت ما فى رقبتى من ذاك فى رقبة عثمان .

وازدحم الناس يبايعون عثمان حتى غشوه عند المنبر .

فقعد عبد الرحمن مقعد النبى صلى الله عليه وسلم من المنبر ، وأقعد عثمان على الدرجة الثانية فجعل الناس يبايعونه .

وتلكأ على .

فقال عبد الرحمن : « فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما » (الفتح / ١٠) .

فرجع على يشق الناس حتى بايع .

وبذلك أصبح عثمان بن عفان رضى الله عنه ثالث الخلفاء الراشدين . وتم ذلك يوم الاثنين لليلة بقيت من ذى الحجة سنة ٢٣ هـ واستقبل الخلافة فى المحرم ٢٤ هـ وعمره وقتئذ ثمان وستين عاما ميلاديا أو سبعين عاما هجريا وتم ذلك وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه قبل موته قد رشح للخلافة بعده ستة ليختار الناس منهم وهم على وعثمان ابنا عبد مناف وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وهم من المبشرين بالجنة ، وقد أخرج عبد الرحمن بن عوف منها نفسه وشاور الناس وكذلك المرشحين للخلافة ما عدا طلحة فقد كان غائبا عن المدينة وأعطاهم عبد الرحمن ميثاق الله الا يخص ذا رحم لرحمه ولا يألو المسلمين وأعطوه موثقا على أن يرضوا من اختاره لهم . فأخذ منهم ميثاقا وأعطاهم مثله وتمت البيعة لعثمان على النحو السابق ذكره وقدم طلحة فى اليوم الذى بويع فيه عثمان وبايعه (١) .

انعكاس شخصيات الولاة على سياساتهم :

تنعكس مواصفات الانسان على عمله وتتأثر أية سياسة عامة يضعها من يقودون الأمم ومن يلون أمور الرعية بشخصياتهم . ويضرب لنا القرآن الكريم المثالين التاليين :

فيقول الله سبحانه وتعالى على لسان ابنة شعيب لأبيها عن موسى عليه السلام « قالت احداهما يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوى الأمين » (القصص / ٢٦) .

فموسى عليه السلام كان قويا أمينا والقوة والأمانة تؤديان الى اتقان رعاية الغنم التى رشحت ابنة شعيب موسى عليهما السلام للقيام بها ذلك لأن الغنم تمشى مسافات طويلة يتبعها الراعى ويحتاج لمياه للسقاية

---

(١) تاريخ الطبرى لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ـ الجزء الرابع ـ الطبعة الرابعة ـ دار المعارف ص ٢٢٧ وما بعدها .

فلا ينقن رعاينها وسقايتها الا القوى من الرعاة . كما أن نتاج الأغنام من صغار وألبان وصوف يستلزم أمانة الرعاة حتى تؤول كاملة غير منقوصه الى أصحاب الأغنام .

ويقول الله جل وعلا أيضا على لسان يوسف عليه السلام :

« قال أجعلنى على خزائن الأرض انى حفيظ عليم » (يوسف /٥٥) .

وبهذا يخاطب يوسف عليه السلام ملك مصر ويرشح نفسه لولاية خزائنها وهو أهل لهذا الترشيح لأنه تتوفر فيه صفتان وهما شدة المحافظة على المال العـام وسعة علمه بتخطيطه وتنظيمه وادارته وتنفيـذ عملياته ورقابتها .

واقتداءا بالنمط القرآنى نبرز فيما يلى ملامح شخصـية الخليفة الثالث لرسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان رضى الله عنه .

اسلام عثمان بن عفان :

ـ كان اسلام عثمان قديما قبل دخول الاسلام دار الأرقم (١) وكان سنه قد تجاوز الثلاثين ، دعاه أبو بكر الى الاسلام فأسلم ، ولما عرض أبو بكر عليه الاسلام قال : ويحك يا عثمان والله انك لرجل حازم ما يخفى عليك الحق من الباطل . هذه الأوثان التى يعبدها قومك ، أليست حجارة صماء لا تسمع ولا تبصر .

فقال : بلى والله انها كذلك .

قال أبو بكر : هذا محمد بن عبد الله قد بعثه الله برسالته الى جميع خلقه فهل لك أن تأتيه وتسمع منه .

فقال عثمان : نعم .

فلما دخلا على الرسول أسر أبو بكر اليه فى أذنه (٢) .

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لعثمان : يا عثمان أجب الله الى جنته فانى رسول الله اليك والى خلقه .

قال عثمان : يارسول الله قدمت حديثا من الشام فلما كنا بين معان والزرقاء فنحن كالنيام اذ مناد ينادينا :

---

(١) الطبرى ـ جزء رابع ـ طبعة دار المعارف ص ٤١٩

(٢) الخلفاء الراشدون تاليف د. عبد المقصود نصار وآخرون ص ٩٣ .

« أيها النيام هبوا فان أحمد قد خرج بمكة » ٠

فقدمنا فسمعنا بك ٠

ويقول عثمان عن اسـلامه : فوالله ما ملكت حين سمعت قوله (قول الرسول) الا أن أسلمت وشهدت أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ٠٠٠ (١) ٠

ــ وكان اسلام عثمان سببا فى عداوة أهله حتى لقد أخذه عمه الحكم بن أبى العاصى بن أمية ، فأوثقه رباطا ٠

وقال له : تدع دين أبائك الى دين محمد ٠٠٠ والله لا أدعك أبدا حتى تدع ما أنت عليه ٠

فقال عثمان : والله لا أدعه أبدا ولا أفارقه ٠

ورأى عمه صلابته فى الحق وشدة استمساكه به فلم يجد بدا من ارساله (٢) ٠

ويروى كما جاء فى ابن الأثير ، أن عقبة بن معيط شكاه الى أمه وكان قد تزوج بها بعد وفاة والده عفان ٠

فقال لها ؟ ان ابنك قد صار ينصر محمدا ٠

فلم تنكر ذلك من ابنها ٠

وقالت : ومن أولى به منا ٠٠ أموالنا وأنفسنا دون محمد ٠

فأسرة أمه كانت لا تخلو من عطف قوى نحو صاحب الدعوة الى الدين الجـديدة (٣) ٠

وهكذا كان عثمان من الأولين السابقين الى الاسلام وكان أحد ثمانية سبقوا الى الدين ، تلقى الاسلام عن الرسـول وعاش معه وهو ينادى بالدعوة ويطبقها فتتلمذ وتعلم فى المدرسة المحمدية مما ينزل به الوحى وما يلقيه الرسول صلى الله عليه وسلم على أصحابه من تعاليم وحكم ومواعظ ٠

ــ ومنذ اليوم الذى أسلم فيه عثمـان لزم النبى حيث كان ولم يفارقه الا للهجرة باذنه أو فى مهمة من المهام التى ينتدب لها ، ولا يغنى

(١) عثمان ذو النورين محمد رضا ص ١٢ ــ ص ١٣٢ ٠

(٢) عثمان بن عفان ــ د٠ محمد حسين هيكل ــ طبعة ثانية ــ دار المعارف ص ٢٨

(٣) عثمان بن عفان ذو النورين ــ عباس العقاد ــ طبعة المكتبة العصرية ص ٥٢ ، ٥٣

أحد فيها غيره . شأنه فى هذه الملازمة شأن الخلفاء الراشدين جميعا .

وينوه الرسول الكريم عن هذه الرفقة ولكن فى الجنة ، فيقول صلى الله عليه وسلم « لكل نبى فى الجنة رفيق ورفيقى فى الجنة عثمان » .

ـ وكان عثمان موضع سر النبى عليه الصلاة والسلام فى مرضه .

ففى رواية عن السيدة حفصة أنها حادثت السيدة عائشة تذكرها بذلك .

فقالت : انى كنت أنا وأنت عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأغمى عليه .

فقلت لك : أترينه قد قبض .

فقلت : لا أدرى .

ثم أفاق فقال : افتحوا له الباب .

فقلت لك : أبوك أو أبى ؟

فقلت : لا أدرى .

ففتحنا فاذا عثمان .

فلما رآه النبى صلى الله عليه وسلم قال : أدنه .

فأكب عليه عثمان فساره بشىء لا أدرى أنا وأنت ماهو ، ثم رفع رأسه .

فقال (الرسول) : أفهمت ما قلت لك .

قال (عثمان) : نعم .

قال الرسول : أدنه .

فأكب (عثمان) عليه أخرى فساره بشىء ما ندرى ما هو ، ثم رفع رأسه .

فقال (الرسول) : أفهمت ماقلت لك .

قال (عثمان) : نعم . سمعته أذناى ووعاه قلبى .

ثم أمره فانصرف(١) .

---

(١) الرواية عن أبى عبد الله الجابرى وهى رواية راجحة وردت فى كتاب عثمان ابن عفان ذو النورين لعباس العقاد ـ مطبعة المكتبة العصرية ص ٨٢ .

ـ وكان عثمان يهيم بالعبادة ، وفى ذلك وصفه معاصروه فقالوا
كان عثمان يصوم كثيرا ويقوم الليل الا هجعة من أوله) (١) •

وكان عبد الله بن عمر يقرأ الآية الكريمة •

«أمن هو قانت أناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه» (الزمر/٩)

ثم يقول : هو عثمان بن عفان (٢) •

وقد روى عن عثمان بن عفان قوله :

(لو أنى بين الجنة والنار ، لا أدرى الى أيتها يؤمر بى ، لتمنيت أن أصير رمادا قبل أن أعلم الى أيتها أصير) (٣) •

عثمان بن عفان تصله بالرسول صلى الله عليه وسلم صلات عديدة :

ـ وثالث الخلفاء الراشدين له أكثر من صلة بالرسول صلى الله عليه وسلم فقد ولد بالطائف بعد الفيل بست سنين •

أبوه عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، فعثمان رضى الله عنه قرشى أموى يجتمع هو والنبى صلى الله عليه وسلم فى عبد مناف •

وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف • وأم أروى أم حكيم بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) •

ـ وتزوج عثمان رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمها خديجة رضى الله عنها •

وقد هاجر عثمان الى أرض الحبشة مع زوجته رقية فكان أول مهاجر لها ، فأبطأ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرهما ، فجعل يتوكف الخبر ، فقدمت امرأة من قريش من أرض الحبشة فسألها •

فقالت رأيتها •

---

(١) وداعا عثمان ـ خالد محمد خالد ـ طبعة دار المعارف ص ٤٢ •

(٢) المرجع السابق ص ٤٨ •

(٣) المرجع السابق ص ٥٢ •

(٤) الطبرى ـ جزء ٤ ـ طبعة رابعة ـ طبعة دار المعارف ص ٤٢٠ •

فقال : على أى حال رأيتهـا ٠

قالت : رأينها وقد حملها على حمار من هذه الدواب وهو يسوقها ٠

فقال : صحبهما الله ٠ أن كان عثمان لأول من هاجر الى الله عز وجل بعد لوط ٠

ولما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بدر كانت ابنته رقيه مريضة فتخلف عليهـا عثمـان بأمر رسول الله صـلى الله عليه وسلم ، فتوفيت يوم وصول زيد بن حارثة بظفر رسول الله صـلى الله عليه وسلم ونصرة المسلمين ٠

ـ وبعد وفاة رقية زوج النبى صلى الله عليه وسلم عثمان أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى ذلك يروى سعيد بن المسيب أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى عثمان بعد وفاة رقية مهموما لهفان ٠

فقال له : مالى أراك مهموما ٠

فقال : يا رسول الله وهل دخل على أحد ما دخل على ، ماتت ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم التى كانت عندى وأنقطع ظهرى وأنقطع الصهر بينى وبينك ، فزوجه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أختها أم كلثوم على مثل صداقها وعلى مثل عشرتها (١) ٠

وقد سمى بذى النورين لأنه تزوج من بنتى الرسـول صلى الله عليه وسلم ولم يعلم أحد تزوج بنتى نبى غيره ٠

ويقال أنه سمى بذلك لأن النبى عليه الصلاة والسلام قال فيه نور أهل السماء ومصباح أهل الأرض ٠

ويقال انه سمى بذلك لأنه كان يكثر من تلاوة القرآن كل ليلة فى صلاته فالقرآن نور وقيام الليل نور (٢) ٠

ـ وكان عثمان يحب الرسول صلى الله عليه وسـلم ، ففى أيـام خلافته ضرب رجلا فى منازعة استخف فيهـا بالعباس بن عبد المطلب عم الرسول ٠

---

(١) عثمان ذو النورين ـ محمد رضا ـ ص ٩ ، ١٠ ، ١٤

(٢) عثمان ابن عفان ذو النورين ـ عباس العقاد ـ ص ٧٩ ٠

فقيل له عن مبررات الضرب ٠

فقال : نعم ، أيفخم رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه وأرخص في الاستخفاف به لقد خالف رسول الله صلى الله عليه وسلم من فعل ذلك ومن رضى به منه(١) ٠

حيــاء عثمــان :

ـ روى عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالسا فاستأذن عليه أبو بكر فاذن له وهو على حاله واستأذن عليه عمر فأذن له وهو على حاله ثم استأذن فأرخى ثيابه فلما قاموا ٠

قالت عائشة : « يارسول الله استأذن أبو بكر وعمر فاذنت لهما وأنت على حالك فلما استأذن عثمان أرخيت عليك ثيابك ٠

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياعائشة الا تستحى من رجل والله ان الملائكة لتستحى منه ٠

وقال عليه الصلاة والسلام أيضا : أرحم أمتي أبو بكر وأشدها فى الله عمر وأشدها حياء عثمان(٢) ٠

ـ هذا والاستحيــاء من الحياء بمعنى الخجل والاحتشــام ، وأعلى درجات الحياء ماكان منشؤه الشعور برقابة الله وعظم حقه ٠

قال عليه الصلاة والسلام : استحيوا من الله حق الحياء ٠

قالوا : انا نستحى من الله يا رسول الله ٠

قال : ليس ذلك ، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى وتذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا وآثر الآخرة على الأولى ٠

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم حييا بل كان شــديد الحياء حتى لقد وصفه مخالطوه بأنه كان أشد حياء من العذراء فى خدرها ٠

لكن حياء النبى كان مقصورا على مالا يتصل بتبليغ الدعوة والنهوض بالرسالة واقرار الحق وأقامة العدل ، فكان يغضب لله وجهر بتسفيه الشرك وسخر من الضلال ولما لم يجد من امتشاق الحسام بدا شهر سيفه

---

(١) الطبرى جزء ٤ ـ مرجع سابق ـ ص ٤٠٠ ٠

(٢) وداعا عثمان ـ خالد محمد خالد ـ ص ٢٨ ٠

وجـاهد في سبيـل الله حتى أعلى كلمتـه ومكن لدينـه الذى ارتضاه لعباده(١) ·

ـ وفيما يتعلق بالمال العام وهو مال المسلمين ، فانه اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، اذا استحل البعض هذا المال بغير حق وهو مال الله الذى أداه الشعب لبيت مال المسلمين ، فينبغى أن يتحـول حياء الحاكم الى غضب ويجهر بتسفيه اغتصاب الأموال العامة ويعمل على ردها الى بيت المال بكافة الطرق ·

لين عثمان بن عفان :

ـ كان عثمان يتصف باللين ومما يذكر عن لينه أنه كان لا يوقظ نائما من أهله الا أن يجده يقظان فيدعوه فيناوله وضوءه وكان يلى وضوء الليل بنفسه فقيل له : لو أمرت بعض الخدم فكفوك ·

فقال : لا · الليل لهم يستريحون فيه(٢) ·

وكان يهـاب الحديث وكان لهيبته الحديث يعـاف الحوار وطول الجدل فاذا التزم أمرا أصر عليه فتعذر صرفه عنه ، على أن هيبته للحديث جعلته لين الجانب(٣) ·

ـ هذا واللين من الخصال الحميدة ويقال لان الرجل لقومه وانقاد لهم وعاملهم بالرفق(٤) ·

وقد خاطب الله جل وعلا رسـوله الكريم صـلى الله عليه وسلم فقال :

« فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فأعف عنهم واسـتغفر لهم وشـاورهم فى الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله » (آل عمران / ١٥٩) ·

وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه لينا وخاطبه رسول الله صلى الله عليه وسلم وشبهه فى لينه بابراهيم عليه السلام حين قال :

« فمن تبعنى فانه منى ومن عصـــانى فانـك غفـور رحيم » (ابراهيم/ ٣٦) ·

---

(١) من أخلاق النبى ـ الدكتور أحمد محمد الحوفى ـ ص ٢٦٢
(٢) عثمان ذو النورين ـ محمد رضا ـ طبعة ثانية ص ١٢
(٣) عثمان بن عفان لمحمد حسين هيكل ص ٣٩ ، ٤٠ ·
(٤) معجم الفاظ القرآن الكريم ـ المجلد الثانى ـ طبعة مجمع اللغة العربية ـ ص ٦٠١ ·

وشبهه فى لينه أيضا بعيسى عليه السلام حين قال :

« ان تعذبهم فانهم عبادك ، وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم » (المائدة/ ١١٨) .

ولكن كان لين الرسول صلى الله عليه وسلم يتحول الى حزم حينما يتطلب الأمر ذلك ، وكذلك كان أبو بكر الصديق ، فقد تحول لينه الى حزم حينما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وامتنع البعض عن أداء الزكاة ، فأعلن عليهم حربا ، وقال قولته المشهورة « والله لو منعونى عناقا كانوا يؤدونها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه » .

وينبغى أن يكون ما فعله أبو بكر رضى الله عنه نموذجا لمن يلى أمر الأمة فى شأن الأموال العامة ، فيسترد لبيت المال أية أموال أخذت بغير حق مهما كانت قوة من أخذوه بالباطل ولو كانوا أولى بأس أو سلطان أو جاه أو ذوى قربى أو من عليه القوم .

تعامل عثمان بن عفان فى ماله تاجرا ومتطوعا به فى الجهاد ولسقاية المسلمين وتفريج كربهم :

ـ عثمان بن عفان ناشئة ثراء فالى قومه كانت امارة قوافل التجارة، واشتغل هو نفسه بالتجارة وورث التعامل فى التجارة عن قومه وأبائه ، وكان لعثمان فيما ورثه عن أبيه ما جعله واسع الثراء . ولعله من الذين من الله عليهم بما أنزله فى سورة قريش .

« لا يلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » (سورة قريش) .

فقد الفت قريش الرحلة فى الشـتاء الى اليمن وفى الصيف الى الشام فى التجارة وغير ذلك ، ثم يرجعون آمنين فى أسفارهم لعظمتهم عند الناس لكونهم سكان حرم الله ، فمن عرفهم احترمهم ومن سار معهم أمن بهم ، كما جعل الله لهم حرما آمنـا وبيتا محرما ، وتفضل عليهم بالأمن والرخص مما يتطلب أفراد الله تعالى وحده لا شريك له بالعبادة (١) .

وتعامل عثمان بن عفان فى ماله متطوعا به فى سبيل الله .

ففى غزوة تبوك أو غزوة العسرة (٢) ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس الى الخروج وأعلمهم المكان الذى يريد ليتأهبوا لذلك ، وبعث

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ـ اختصار وتحقيق محمد على الصابونى ـ المجلد الثالث ص ٦٧٩ ، ٦٨٠ .

(٢) مأخوذة من قوله تعالى « الذين اتبعوه فى ساعة العسرة » (التوبة/١١٧) .

الى مكة والى قبائل العرب يستنفرهم وأمر الناس بالصدقة وحثهم على التقوى فجاءوا بصدقات كثيرة ومن هؤلاء أبو بكر الصديق رضى الله عنه : جاء بماله كله وكان ٤٠٠ر٠٠٠ درهم ٠

عمر بن الخطاب رضى الله عنه : جاء بنصف ماله ٠

عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه : جاء بمأتى أوقية ٠

عاصم بن عدى رضى الله عنه : جاء بسبعين وسقا من تمر ٠

عثمان رضى الله عنه : جاء بـ ٩٥ بعيرا ، ٥٠ فرسا وبذلك جهز ثلث الجيش ٠

وقيل جاء عثمان بألف دينار فى كمه فنثرها فى حجر الرسول صلى الله عليه وسلم ٠

وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : هل أبقيت لأهلك شيئا ٠

قال : أبقيت لهم الله ورسوله ٠

وقال عليه الصلاة والسلام لعمر بن الخطاب : هل أبقيت لأهلك شيئا ٠

قال : نعم نصف مالى ٠

وقال عليه الصلاة والسلام لعثمان بن عفان : ماضر عثمان ما عمل بعد اليوم ٠

وقال لجميع من جهز جيش العسرة : من جهز جيش العسرة فله الجنة (١) ٠

وبذلك كان الصحابة ومنهم عثمان بن عفان رضى الله عنهم من الذين أشار الله لهم بوعده للمؤمنين الذين يبذلون أنفسهم وأموالهم فى سبيله بأنه اشترى منهم تلك الأنفس والأموال بالجنة ثمنا لما بذلوا بقوله تعالى :

« ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » (التوبة/ ١١١) ٠

– وتعامل عثمان بن عفان فى أمواله فوجهها الى اشباع ضرورة من ضرورات حياة المسلمين وذلك بتوفير مياه الشرب لهم ، فقام عثمان بذلك بما يقوم به بيت مال المسلمين لو كان لديه الأموال ٠

---

(١) عثمان بن عفان ذو النورين – محمد رضا – ص ١٩ ، ٢٠ ٠

فقد كان ليهودى بالمدينة بئرا يبيع المسلمين ماءها بما يبهظهم . ولم تكن عيون المدينة وآبارها وعذوبتها وغزارتها موافقة لشرب المسلمين وريهم .

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لصاحبها : تبعينها بعين فى الجنة .

فقال اليهودى : ليس لى ولا لعيالى غيرها .

فقال عليه الصلاة والسلام : من يشترى بئر رومة ، فيجعلها للمسلمين يضرب بدلوه فى دلائهم وله بها مشرب فى الجنة ؟

فأتى عثمان بن عفان رضى الله عنه اليهودى وساومه فيها فأبى أن يبيعها كلها فاشترى منه نصفها باثنى عشر ألف درهم . واتفق مع اليهودى على أن يكون له يوم ولعثمان يوم ، وجعل المسلمون يستقون فى يوم عثمان ليومين ، فذهب اليهودى الى عثمان ، فقال له : أفسدت على بئرى فاشتر النصف الآخر .

فاشتراه للمسلمين بثمانية آلاف درهم وجعل رشاءه فيه كرشاء رجل من المسلمين .

ـ وتعامل عثمان بن عفان رضى الله عنه فى ماله فقدمه لغوث المسلمين حينما نزلت بهم المجاعة وعم القحط فى عهد أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

فقد جاءت لعثمان بن عفان رضى الله عنه فى ذلك الوقت عيرا من الشام عبارة عن ألف بعير تحمل برا وزيتا وزبيبا ، فلما جعلها فى داره جاءه التجار يطلبون أن يبيع لهم وقالوا له : نعرض عليك الدرهم درهمين .

فقال : أعطيت زيادة على هذا .

قالوا : أربعة .

قال : أعطيت زيادة على هذا .

قالوا : خمسة .

قال : أعطيت أكثر من هذا .

قالوا : يا أبا عمرو ما بقى فى المدينة تجار غيرنا وما سبقنا اليك احد فمن هذا الذى أعطاك ؟

قال : ان الله أعطانى بكل درهم عشرة أعندكم زيادة ؟

قالوا : لا .

قال : فاني أشهد الله أني جعلت ما حملت هذه البعير صدقة لله على المساكين والفقراء (١) ٠

وبذلك انطبق على عثمان بن عفان رضى الله عنه قول الله جل وعلا :

« ان الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور » (فاطر / ٢٩) ٠

وانطبق على عثمان بن عفان رضى الله عنه كذلك قول الله سبحانه وتعالى :

« يا أيها الذين آمنوا على أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ٠ يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم » (الصف ١٠ ، ١١ ، ١٢) ٠

ـ وقد ساهم عثمان كذلك بماله متطوعا فى توسعة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ٠

مشاركة عثمان فى المسائل العامة للدولة الاسلامية قبل البيعة :

شارك عثمان بن عفان رضى الله عنه فى المسائل العـامة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وفى عهد كل من أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، وفيما يلى نماذج لهذه المشاركة ٠

ـ عثمان كاتب الوحى

عن فاطمة بنت عبد الرحمن أنها سألت عائشة عن عثمان بن عفان ، وأرسلها عمها فقال : ان أحد بنيك يقرئك السلام ويسألك عن عثمان ابن عفان فان الناس قد شتموه فقالت : لعن الله من لعنه ٠ فوالله لقد كان عند النبى صلى الله عليه وسلم وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمسند ظهره الى وان جبريل ليوحى اليه القرآن ، وانه ليقول له « أكتب يا عثيم »٠

فما كان الله لينزله تلك المنزلة الا كريما على الله ورسوله ٠

ـ الرسول يستخلف عثمان على المدينة

استخلف رسول الله عثمان بن عفان على المدينة فى غزوته الى ذات الرقاع والى غطفان وأرسـله الى اليمن مستطلعا حين كانت امارتها لعلى ابن أبى طالب (٢) ٠

---

(١) عثمان بن عفان ـ محمد رضا ـ طبعة ثانية ص ٢٨ ٠

(٢) عثمان بن عفان ذو النورين ـ عباس العقاد ـ ص ٨٤ ٠

ـ كان عثمان سفيرا عن الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديبية :

وكان عثمان بن عفان سفيرا عن رسول الله والمسلمين فى الحديبية .

فقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ليبعثه الى مكة فيبلغ عنه اشراف قريش ما جاء له .

فقال عمر : يا رسول الله انى أخاف قريشا على نفسى وليس بمكة من بنى عدى بن كعب أحد يمنعنى وقد عرفت قريش عداوتى اياها وغلظتى عليها ، ولكن أدلك على رجل أعز بها منى ، عثمان بن عفان ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان فبعثه الى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم رسالة رسول الله أنه لم يأت لحربهم وأنه انما جاء زائرا للبيت ومعظما لحرمته .

فخرج عثمان الى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص فحمله بين يديه ثم أجاره فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أرسله به .

وحين فرغ عثمان من رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قالوا له : ان شئت أن تطوف بالبيت فطف .

فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله صلى الله عليه وسلم .

واحتبست قريش عثمان عندها ثلاثة أيام وأشاع الناس أنهم قتلوه . فلما أبطأ ، قلق عليه المسلمون فلما بلغ ذلك الخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال : لا نبرح حتى نناجز القوم .

ولما لم يكن قتل عثمان محققا وتثبيتا وتقوية للمسلمين بايع النبى صلى الله عليه وسلم عنه ، فوضع يده اليمنى فى يده اليسرى .

وقال : اللهم هذه عن عثمان فى حاجتك وحاجة رسولك (١) .

فكان عثمان بن عفان رضى الله عنه بذلك ممثلا للرسول صلى الله عليه وسلم وهو رئيس الدولة الاسلامية لدى أهل مكة فشأنه فى ذلك شأن وزراء الخارجية حديثا حينما يسافرون ويحملون رسالات رؤساء الدول الى دول أخرى .

---

(١) عثمان ذو النورين ـ محمد رضا ـ طبعة ثانية ص ١٧ .

- عثمان من أهل المشورة فى مسائل الدولة العليا .

واعتبر عثمان رضى الله عنه من الصحابة وأهل الشـــورى الذين يؤخذ رأيهم فى أمهات المسائل فى خـــلافة أبى بـــكر وعمر رضى الله عنهمـــا .

- فلما عزم أبو بكر الصديق رضى الله عنه غزو الشام بعد غزو العراق ، دعا اليه جلة المهاجرين والانصار يشيرون عليه فشجعه عمر على المضى فيما يريد ، وأما عبد الرحمن بن عوف فدعا الى الحيطة والحذر وسكت الناس بعد الذى سمعوا من ابن عوف .

فسألهم أبو بكر : ماذا ترون ؟

فقال عثمان بعـــد هنيهة : أرى أنك ناصر لأهـــل الدين شفيق عليهم ، فان رأيت رأيا لهم فيه رشد وصلاح وخير فاعزم على امضائه ، فانك غير ضنين ولا متهم عليهم (١) .

وسارع الحاضرون حين سمعوا قول عثمان فأقروا رأيه .

- وكان عثمان بن عفان ممن أحسنوا الشهادة فى عمر حين أراد أبو بكر أن يستخلفه وأن يجمع كلمة المسلمين فقد كان البعض مشفقين من شدة عمر ، أما عثمان فأجاب الصديق حين سأله عن عمر .

« اللهم علمى به أن سريرته خـــير من علانيته وأن ليس فينـــا مثله » (٢) .

وكتب أبو بكر عهده الأخير وهو على سرير الموت وعثمان الى جواره يملى عليه ، فلما أفاق سأله : من كتبت . ؟

قال عثمان : عمـــر .

قال أبو بكر : بارك الله فيك . بأبى أنت وأمى ، لو كتبت نفسك كنت لها أهلا (٣) .

- وفى عهد عمر بن الخطاب كان عثمان معارضا لسفر عمر لبيت المقدس لمـــا طلب أهالى بيت المقدس الصلح على أن يحضر عمر بنفســـه الى مدينتهم وقال مخاطبا أمير المؤمنين .

(فانت ان أقمت ولم تسر اليهـــم رأوا أنك بأمـــرهم مستخف ، ولقتالهم مستعد ، فلم يلبثوا الى السير حتى ينزلوا على الصغار ويعطوا الجزية) (٤) .

(١ ، ٢) عثمان بن عفان - محمد حسين هيكل - ص ٤٧ .

(٣) عثمان بن عفان ذو النورين - عباس العقاد - ص ٨٤ .

(٤) عثمان بن عفان - محمد حسين هيكل - ص ٤٧ - ٤٨ .

وكان عثمان ممن أيدوا رأى عمر بن الخطاب فى عدم تقسيم أرض الفتوح على الفاتحين وابقائها فيئا للمسلمين وللذرية من بعدهم ٠

وكان عثمان على رأس المعارضين فى فتح مصر أيام عمر بن الخطاب ٠

وقال له : يا أمير المؤمنين ان عمرا لمجرأ وان فيـــه حبا للامارة فأخشى أن يخرج من غير نفر ولا جماعة فيعرض المسلمين للهلك رجـاء فرصة لا يدرى أتكون أم لا ، وشاركه فى المعارضة كثيرون (١) ٠

ما وجه لعثمان من نقد قبل الخلافة :

ــ اختصم عثمان بن عفان وأبو عبيدة عامر بن الجراح

فقال أبو عبيدة : تخرج على فى الكلام وأنا أفضل منك بثلاث ٠

فقال عثمان : وما هى ؟

قال : الأولى أنى كنت يوم البيعة حاضرا وأنت غائب ٠

والثانية شهدت بدرا ولم تشهـــده ٠

والثالثة كنت ممن ثبت يوم أحد ولم تثبت أنت ٠

فقال عثمان : صدقت ٠

أما يوم البيعة فان رسول الله بعثنى فى حاجة ومد يده عنى وقال هذه يد عثمان بن عفان ، وكانت يده الشريفة خير من يدى ٠

وأما يوم بدر فان رسول الله صلى الله عليه وسلم استخلفنى على المدينة ولم يمكننى مخالفته ، وكانت ابنته رقيـة مريضـــة واشتغلت بخدمتهـــا حتى ماتت ودفنتها ٠

وأما انهزامى يوم أحد فان الله عفا عنى وأضاف فعلى الى الشيطان فقال تعـــالى :

« ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم ان الله غفور حليم » (آل عمران / ١٥٥) ٠

فخصمه عثمان وغلبه (٢) ٠

---

(١) عثمان بن عفان ــ محمد حسين هيكل ــ ص ٤٧ ــ ٤٨ ٠
(٢) عثمان ذو النورين ــ محمد رضا ــ ص ٣٠ ٠

مناقشة بين ابن عمر واحد المصريين بشأن بعض مواقف عثمان أيام الرسول صلى الله عليه وسلم :

وقد دارت مناقشة مماثلة بين ابن عمر رضي الله عنهما وبين رجل من أهل مصر حج البيت ووجه ابن عمر فسأله عن بعض مواقف عثمان ابن عفان رضي الله عنه ، في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وأجابه ابن عمر على ما سأل وذلك على النحو التالى (١) .

حدثنا موسى بن اسماعيل ، حدثنا أبو عوانه حدثنا عثمان ـ هو ابن موهب .

قال : جاء رجل من أهل مصر حج البيت فرأى قوما جلوسا .
فقال : من هؤلاء القوم ؟ .
فقالوا : هؤلاء قريش .
قال : فمن الشيخ فيهم ؟ .
قالوا : عبد الله بن عمر .

قال : يا ابن عمر انى سائلك عن شيء فحدثنى ؟ هل تعلم أن عثمان فر يوم أحد ؟

قال : نعـــم .
فقال : تعلم أنه تغيب عن بدر ولم يشهـــد .
قال : نعـــم .
قال : تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها .
قال : نعـــم .
قال : الله أكبـــر .

فقال ابن عمر : تعال أبين لك ، أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له (٢) .

وأما تغيبه عن بدر فانه كانت تحته بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت مريضة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ان لك أجر رجل ممن شهد بدرا وسهمه ،
وأما تغيبه عن بيعة الرضوان ، فلو كان أحد أعز ببطن مكـــة من عثمان لبعثه مكانه ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان ،

---

(١) صحيح البخارى ـ الجزء السادس ص ١٠٦ ، ١٠٧ طبعة المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .

(٢) يشير ابن عمر بذلك الى الآية التى أوردناها فى الفقرة السابقة .

وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب الى مكة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده اليمنى هذه يد عثمان فضرب بها على يده ، فقال هذه لعثمان ·

فقال له ابن عمر : اذهب بها الآن معك ·

أى أذهب بهذه الأجوبة التى أجبتك بها مقرونة باعذارها فانها لا تنفعك فى النيل من عثمان رضى الله عنه (١) ·

مجمع ملامح شخصية عثمان بن عفان :

من الصور السابقة يتضح أن عثمان بن عفان رضى الله عنه قبل توليه الخلافة توفرت فيه المواصفات التالية :

- من أوائل من اعتنقوا الاسلام ·
- له صلات متعددة بالرسول صلى الله عليه وسلم ·
- يتسم بالحياء ·
- يتسم باللين ·
- خبير بأمور المال فى التجارة ·
- تطوع بماله فى سبيل الله ·
- حل محل بيت المال فى الانفاق على سقيا المسلمين ·
- ساهم بماله فى تفريج قحط المسلمين وعمارة مسجد الرسول ·
- حل محل الرسول صلى الله عليه وسلم فى ولاية المدينة ·
- كان كاتب الوحى ·
- كان سفير الرسول صلى الله عليه وسلم الى أهل مكة يوم الحديبية ·
- من أهل المشورة فى المال والحرب والصلح وغيرها من مسائل الدولة العليا ·
- كان حكمه فى مرحلة شيخوخته ·

بهذه المناقب والصفات وبعناصر هذه الشخصية تحمل عثمان ابن عفان أمانة حكم الدولة الاسلامية بعد عمر وأصبح مسئولا عن رعاية الدولة الاسلامية التى أشار اليها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فى حديث الرعاية المشهور وهو :

---

(٢) التعليق ورد فى هامش صحيح البخارى ص ١٠٧ ·

« كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالأمير الذى على النـاس راع عليهم وهو مسئول عنهم والرجل راع على أهـل بيته وهو مسئول عنهم وامرأة الرجل راعية على بيت زوجها وولدها وهى مسئولة عنهم ، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسئول عنه ، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » (١) ٠

غير أنه قبل بحث كيفية قيام عثمان بن عفان رضى الله عنه بهـذه الرعاية عن طريق سياسته المالية ينبغى التعرف على أوضاع عامة تصدرت حكمه من شأنها أن تكون ذات صلة بسياساته العامة ومنها السياسـة الماليـة ٠

---

(١) كتاب الأموال ٠ لأبى عبيد القاسم بن سلام ص ١٠ -

الفصـــل الثـــانى

مقدمات تصدرت عهد عثمان بن عفان لها صلة
بســـياساته العـــامة
ومنهـــا السياسة الماليـة

سبقت عهد عثمان بن عفان أوضاع عامة ومقدمات ووصايا ونبؤة توحى بأن سيكون لها شأن مع تحرك السياسات العامة ومنها السياسة المالية فى عهده ، وهذه المقدمات هى :

ـ وجود صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ولهـــم صـــدارة المجتمع بما لهم من فضـــل نتيجة جهادهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نشر الدعوة الاسلامية والتطوع بأنفسهم وأموالهم فى سبيلها ومصاحبتهم للرسول عليه الصلاة والسلام •

ـ خليفة سابق وهو عمر بن الخطاب اتسم بالزهد وبالحزم وتعفف هو وعائلته وأقرباؤه عن المال العام ونوايا له أعلنها ووصايا أوصى بها الخليفة بعده وحديث له عن فتنة كبرى كان بابها موصدا فى عهده •

ـ تنافس قبلى له جذورة فى الجاهلية بين آل هاشم وآل أمية علما بأن الخليفة الجديد ينتمى لآل أمية •

ـ منازعات ومناوشات فى الامصار •

ـ دخول عثمان بن عفان فى مرحلـــة الشيخوخة قبـــل توليـــه الخـــلافة •

ـ نبوءة سابقة تنبأ بهـــا الرســـول صلى الله عليه وســـلم لعثمـــان ابن عفـــان •

صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت لهم صدارة المجتمع :

شريحة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم تصدرت مجتمـع الدولة الاسلامية بعد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفى عهد الخلفـــاء الراشدين كان منهم أهل الشورى وأصحاب الافتاء ورواة الحديث ومنابع العلم وأساطين الكلم ومجاهدو الفتوح ومقيمو العدل وحراس التقوى

ورقباء الأموال العامة وهم من المهاجرين والانصار ، فكان المهاجرون أول الناس اسلاما وأكرمهم أحسابا وأمسهم رحما برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان الأنصار هم الذين أووا الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ما هاجر اليهم من مكة الى المدينة وآزروه ونصروه وجاهدوا هم والمهاجرون مع الرسول صلى الله عليه وسلم حتى تحقق نصر الاسلام والمسلمين .

وقد أشار اليهم القرآن الكريم فى سورة التوبة فقال جل وعلا :

« والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم » (التوبة / ١٠٠) .

ويشير القرآن الكريم كذلك الى مراتبهم فيقول جل وعلا :

« لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى » (الحديد / ١٠) .

ويقول عنهم الرسول صلى الله عليه وسلم :

« لا تسبوا أصحابى فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » (١) .

ـ أبو بكر وعمر يخشيان فتنة الصحابة

وقد استبقى الصديق عنده كبار الصحابة ليجمع بين معونتهم له فى الرأى والعمل وبين تجنبهم الفتنة ومأزق الولاية ، وكان يتذمر من ترخص بعض الصحابة فى أمور تؤذن بما بعدها .

فقال لعبد الرحمن بن عوف يعظه ويحذره :

« والذى نفسى بيده لأن يقدم أحدكم فتضرب عنقه خير له من أن يخوض غمرات الدنيا ، ثم أنتم غدا أول ضال بالناس يمينا وشمالا لا تضيعوهم عن الطريق » .

وقال لعمر يحذره من عواقب انطلاق الصحابة فى الأقطار .

فقال له وهو يجود بنفسه :

« واحذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه

---

(١) البخارى ـ الجزء السادس ـ طبعة المجلس الأعلى للشئون الاسلاميه ص ٨٩ .

وسلم ـ الذين انتفخت أجوافهم ، وطمحت أبصارهم ، وأحب كل امرىء منهم لنفسه وان منهم لحيرة عند زلة واحد منهم ، فاياك أن تكونه ، وأعلم أنهم لا يزالون منك خائفين ما خفت الله ... (١) .

وكان عمر لا يسمح لهم بمغادرة المدينة الا باذن منه ولأجل محدود واستبقاهم بجانبه ليستعين بهم فى مسائل الدولة ولانه كان يخشى عليهم الفتنة وتأثرهم بحضارات البلاد المفتوحة فشكوه من أجل ذلك فقام وقال :

(ألا انى قد سننت الاسلام سن البعير ، يبدأ فيكون جذعا (٢) ثم ثنيا (٣) ثم رباعيا (٤) ثم سديسا (٥) ثم بازلا (٦) ، ألا فهل ينتظر بالبازل الا النقصان ، ألا فان الاسلام قد بزل ، ألا وان قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عبادة ، الا فأما وان الخطاب حى فلا ... انى قائم دون شعب الحرة آخذ بحلاقيم قريش وعجزها أن يتهافتوا على النـار (٧) .

ـ رسول الله يتنبأ بوقوع الفتن بين الصحابة

ولعل ما حدا بأبى بكر وعمر رضى الله عنهما أن يعاملا الصحابة تلك المعاملة المنضبطة هو أن صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة لغيرهم ، وأن ترخصهم بمتاع الحياة الدنيا يجعل الناس يقتدون بهم بل ويزيدون خصوصا وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نبههم الى فتن ستقع بينهم فيقول أسامة بن زيد رضى الله عليهما : أشرف النبى صلى الله عليه وسلم على أطم ـ أى مرتفع ـ من أطام المدينة ،

وقال : هل ترون ما أرى .

قال الصحابة الذين كانوا معه : لا

قال : فانى لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر .

---

(١) عثمان بن عفان ذو النورين ـ عباس العقاد ـ ص ١٠٢ ، ١٠٣ .
(٢) الجذع من البعير : أجذع الابل فى الخامسة فهو جذع .
(٣) الثنى من البعير : ثنى الجمل يدخل فى السن الخامسة .
(٤) الرباعى من البعير : هو ما كان فى السن بين الثنى من البعير والسديس منه
(٥) السديس : الجمل فى الثامنة .
(٦) البازل : الجمل فى التاسعة .
(٧) مع الخلفاء الراشدين فى الاسلام ـ عبد الخالق ابو رابية ـ طبعة المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ص ٥٥ .

ويقول عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(اذا مشت أمتى المطيطاء ـ أى الخيلاء ـ وخدمتها أبناء الملوك فارس والروم سلط شرارها على خيارها) (١) .

وهو بهذا يشير لردود الفعل للفتوح التى تمت فعلا بعده فى عهود الخلفاء الراشدين

ـ نماذج تحليلية لبعض الصحابة فى عهد عثمان

وفيما يلى تحليل لشخصيات من الصحابة عاصروا عهد عثمان وكان لبعضهم أثر فى مجريات الامور فى عهده (٢)

على بن أبى طالب ـ باب مدينة العلم

ولد على بن أبى طالب فى مكة المكرمة بجوار البيت العتيق ، أبوه أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم عم النبى وكافله بعد عبد المطلب وأمه هى فاطمة بنت أسد بن هاشم ، وهى أول هاشمية ولدت هاشميا ، وقد أسلمت وتوفيت بالمدينة وتولى النبى دفنها وألبسها قميصه واضطجع فى قبرها .

يقال ان أمه أسمته حيدرة وقيل بل أسمته أسدا والحيدرة اسم من أسماء الأسد وكنى على بأسماء كثيرة عرف بأبى الحسين ، وسماه الرسول صديقا ، فعن أبى ليل عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« الصديقون ثلاثة » : حبيب بن مرى النجار مؤمن آل ياسين الذى قال ياقوم اتبعوا المرسلين وحزقيل مؤمن آل فرعون الذى قال : « أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله » وعلى بن أبى طالب الثالث وهو أفضلهم .

وسماه الرسول أيضا أبا الريحانتين ، فعن جابر بن عبد الله قال ، قال رسول الله لعلى بن أبى طالب السلام عليك أبا الريحانتين ، فعن قريب يذهب ركناك .. والله خليفتى عليك » .

فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قال على « هذا أحد الركنين ، ولما ماتت فاطمة قال هذا الركن الآخر » .

وكناه النبى المصطفى أبا تراب فقد غاضب يوما فاطمة فخرج

---

(١) وداعا عثمان ـ خالد محمد خالد ـ ص ٩٣ .

(٢) تضمنت الأبواب التالية نماذج اخرى من الصحابة وردت فى ثنايا البحث .

فاضجع الى الجدار فى المسجد فجاءه النبى صلى الله عليه وآله وسلم ـ وقد امتلأ ظهره ترابا ـ فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يمسح عن ظهره ويقول اجلس أبا تراب ٠

أصابت قريشا أزمة شديدة وكان أبو طالب ذا عيال كثيرة وتخفيفا عنه أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا فضمه اليه فلم يزل على مع رسول الله حتى بعثه الله فتابعه وآمن به وصدقه وكان أول المسلمين من الصبيان فقد أسلم وهو لايزال دون الخامسة عشرة وفى روايات أخرى دون الثالثة عشر ، وكان أول من صلى مع النبى صلى الله عليه وسلم ٠

وكان من أثر صحبة النبى صلى الله عليه وسلم ومن كثرة ماتردد على مسامعة من آى الذكر الحكيم ومن تفسير لآيات هذا الذكر أن تفقه فى أمور الدين والدنيا وفى الأخذ بأسباب البلاغة والفصاحة الذين ضرب فيهما بسهم لم يتح لغيره ، ووصل فيهما جميعا مرتبة لم يستطع أحد أن يدانية فيها ٠

ولقد أخرج البراز والطبرانى عن جابر بن عبد الله ، كما أخرج الترمذى والحاكم عن على أنه قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم « أنا مدينة العلم وعلى بابها فمن أراد العلم فليأته من بابه » ٠

وكان على يقول : « سلونى ٠٠٠ والله لا تسألونى عن شىء الا أخبرتكم ، وسلونى عن كتاب الله فوالله ما من آيه الا وأنا أعلم بليل نزلت أم بنهار ، فى سهل أم فى جبل » ٠ وكانت فتاواه مرجعا للخلفاء والصحابة ويصح أن يقال أن عليا رضى الله عنه أبو علم الكلام فى الاسلام لأن المتكلمين أقاموا مذاهبهم على أساسه ، شهد كل السرايا والغزوات فكانت شجاعته من الشجاعات النادرة ٠ ويقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم :

« ان عليا من أحب خلق الله الى الله وأنه أخوه فى الدنيا والآخرة » (١) ٠

---

(١) مقتبس من كتاب مدرسة الرسول صلى الله عليه وسلم تاليف الأستاذ عبد المنعم عبادة أصدره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية الصفحات من ١٠٣ الى ١٤٠ ٠

وكما سبق الايضاح كان على أحد الذين وشحهم عمر بن الخطاب للخلافة من بعده

وقد قال على بن أبى طالب واصفا نفسه أبيات الشعر التالية :

محمد النبى أخى وصهرى — وحمزة سيد الشهداء عمى
وجعفر الذى يمسى ويضحى — يطير مع الملائكه ابن أمى
وبنت محمد سكنى وعرسى — مسوط (١) لحمها بدمى ولحمى
وسبطا أحمد ولداى منها — فأيكمو له سهم كسهمى
سبقتكموا الى الاسلام طرا — صغيرا ما بلغت اوان حلمى (٢)

ـ عبد الرحمن بن عوف ـ أمين الأمة :

ومن الصحابة الأتقياء الأغنياء عبد الرحمن بن عوف ، أسلم قبل أن يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم ، هاجر الى الحبشة والى المدينة وشهد بدرا والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى دومة الجندل وعممه بيده وسدلها بين كتفيه وقال : ان فتح الله عليك فتزوج ملكهم أو قال شريفهم .

وكان شريفهم الأصبغ بن ثعلبة بن ضمضم الكلبى فتزوج ابنته تماضر . وكان أحد العشرة المشهود لهم بالجنة وأحد الستة أصحاب الشورى الذين جعل عمر بن الخطاب الخلافة منهم وأخرج نفسه منها واختار للمسلمين . وكان عظيم التجارة مجدودا فيها كثير المال . كان كنز الصدقة من أمواله فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وبعده .

وقال عنه الرسول صلى الله عليه وسلم « عبد الرحمن بن عوف أمين فى السماء وفى الأرض » توفى سنة ٣٢ هـ وهو ابن ٧٥ سنة وأوصى بخمسين ألف دينار فى سبيل الله ، وأوصى لمن بقى ممن شهد بدرا لكل رجل ٤٠٠ دينار وكانوا مائة فأخذوها وأوصى بألف فرس فى سبيل الله ، وخلف مالا عظيما من ذهب قطع بالفؤوس وترك ألف بعير ومائة فرس وثلاثة آلاف شاة ترعى بالبقيع (٣) .

---

(١) مسوط : مختلط .

(٢) على امام المتقين لعبد الرحمن الشرقاوى من مقال ظهر بعدد جريدة الاهرام يوم ١٩٨٤/١٠/٢٤ ص ١٢ .

(٣) عثمان بن عفان ذو النورين تاليف محمد رضا ص ١٠٤ ، ١٠٨ .

ـ طلحة بن عبد الله ـ الخير الفياض

يجتمع نسبه مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى (مرة بن كعب) كان في تجارة له بأرض بصرى حين لقى أحد رهبانها وأنبأه أن النبى الذى سيخرج فى بلاد الحرم قد أهل عصره وأشرقت أيامه ، فلما عاد الى بلده مكة علم بظهور النبى صلى الله عليه وسلم ، فذهب الى أبى بكر فصحبه الى الرسول صلى الله عليه وسلم فأسلم . وكان من المسلمين المبكرين ، حمل حظه من اضطهاد قريش وهاجر الى المدينة حين أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالهجرة وشهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عدا غزوة بدر فقد كان فى مهمة كلفه بها الرسول صلى الله عليه وسلم خارج المدينة ولما عاد كان نصر الله فى بدر قد تحقق فأنبأه الرسول أن له أجر المقاتلين وأعطاه نصيبه من غنائم المعركة .

وفى غزوة أحد لما رأى الرسول صلى الله عليه وسلم ينزف وقف طلحة يدافع عنه يضرب بسيفه البتار يمينا وشمالا وساند الرسول صلى الله عليه وسلم وحمله بعيدا عن الحفرة التى زلت بها قدمه ، وتلقى بضع وسبعون بين طعنة وضربة ورمية وقطعت أصابعه . وكان أبو بكر اذا ذكر يوم أحد يقول : ذلك كله يوم طلحة .

كان من أكثر المسلمين ثراء وأغناهم ثروة ، كان ينفق منها على الدعوة بغير حساب وعلى أقربائه وعلى الفقراء والمساكين ولقبه رسول الله صلى الله عليه وسلم (طلحة الخير) « وطلحة الجود » « وطلحة الفياض » اطراء لجوده المفض (١) .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم :

« من سره أن ينظر الى رجل يمشى على الأرض وقد قضى نحبه ، فلينظر الى طلحة » أى من المشار اليهم فى قول الله تعالى :

« من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » (الأحزاب/ ٢٣) .

ـ الزبير بن العوام : حوارى رسول الله

يلتقى نسبه مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى « قصى بن كلاب » كما أن أمه صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو زوج أسماء بنت أبى بكر ذات النطاقين .

---

(١) مقتبسة من كتاب « رجال حول الرسول » ـ تاليف خالد محمد خالد ص ٤٣٩ وما بعدها .

كان واحدا من السبعة الأوائل الذين سارعوا الى الاسلام وكان عمره يومئذ خمس عشرة سنة عذبه عمه ليرجعه عن اسلامه فكان يقول : « لا والله لا أعود للكفر أبدا » .

هاجر الى الحبشة الهجرتين الأولى والثانية وأول سيف شهر فى الاسلام كان سيف الزبير ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلقى الكثير من الطعنات . وفى غزوة أحد بعد أن انقلب جيش المسلمين راجعا الى المدينة ندبه الرسول صلى الله عليه وسلم هو وأبو بكر لتعقب جيش قريش ومطاردته وقاد سبعين من المسلمين فأسرعت قريش أوبتها الى مكة .

ويوم اليرموك اخترق جيوش الروم الزاحفة صائحا « الله أكبر » .

وقد قيل فى تاريخه أنه ما ولى امارة قط ولا جباية ولا خراجا ولا شيئا الا الغزو فى سبيل الله ، فتح هو وعلى بن أبى طالب أبواب حصن بنى قريظة بعد أن طال حصارهم كان يحبه الرسول صلى الله عليه وسلم ويباهى به ويقول :

« ان لكل نبى حواريا وحواريى الزبير بن العوام » .

كان يدير تجارة ناجحة وكان ثراؤه عريضا ولكنه أنفقه فى الاسلام حتى مات مدينا (١) .

ـ أبو موسى الأشعرى : سيد الفوارس

اسمه عبد الله بن قيس المكنى بـ (أبى موسى الأشعرى) ، سمع برسول الله صلى الله عليه وسلم فغادر اليمن بلده الى مكة وأسلم ، ثم رجع الى بلده وعاد ومعه بضعة وخمسون رجلا من أهل اليمن الذين لقنهم الاسلام واخوان شقيقان له هما أبو رهبم وأبو بردة وسمى الرسول صلى الله عليه وسلم قومهم جميعا بالأشعريين وكان يقول عليهم :

« ان الأشعريين اذا أرملوا فى غزوة أو قل فى أيديهم الطعام ، حملوا ما عندهم فى ثوب واحد ثم اقتسموه بالسوية فهم منى وأنا منهم » .

وهو فقيه يتألق فى الافتاء والقضاء حتى قيل :

« قضاة هذه الأمة أربعة عمر وعلى وأبو موسى وزيد بن ثابت » .

وفى مواطن الجهاد يقول عنه الرسول صلى الله عليه وسلم :

« سيد الفوارس أبو موسى » .

---

(١) رجال حول الرسول ـ خالد محمد خالد ـ ص ٤٥٣ وما بعدها .

وفى المعارك التى خاضها المسلمون ضد امبراطورية الفرس كان لأبى موسى بلاؤه العظيم وكذلك ضد الروم ·

يقرأ القرآن بصوت يهز أعماق من يسمعه حتى قال عنه الرسول الكريم :

« لقد أوتى أبو موسى مزمارا من مزامير آل داوود » ·

ولى فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم مع معاذ بن جبل أمر اليمن ، وفى عهد عمر ولاه أمير المؤمنين البصرة (١) ·

ـ أبو هريرة : راوى الحديث

نشأ يتيما مسكينا اجيرا لبسرة بنت غزوان لطعام بطنه كان اسمه فى الجاهلية عبد شمس ·

قدم على النبى سنة سبع وهو بخيبر فأسلم ولما أسلم سماه الرسول عبد الرحمن وأطلق عليه أبو هريرة لأنه كانت له هرة تلازمه يطعمها ويحملها وينظفها ويأويها ·

ومكث معه سنوات أربع الى أن ذهب النبى الى الرفيق الأعلى ، كان حافظا له ذاكرة قوية دعا له الرسول أن يبارك الله له فيها تفرد بكثرة الرواية عن الرسول صلى الله عليه وسلم روى عنه نحوا من ثمانمائة أو أكثر من الصحابة والتابعين وأهل العلم ، جمع مالا حلالا حينما ولاه عمر البحرين فأمره عمر بدفعها الى بيت مال المسلمين فدفعها ، مات عن ثمان وسبعين سنة فى العام التاسع والخمسين للهجرة (٢) ·

ـ العباس بن عبد المطلب : شيخ قريش

ومن الصحابة الرؤساء فى قومهم العباس بن عبد المطلب ، كان فى الجاهلية رئيسا فى قريش واليه كانت عمارة المسجد الحرام والسقاية فى الجاهلية وهو عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان ممن خرج مع المشركين يوم بدر مكرها وأسر يومئذ فيمن أسر ثم هاجر الى النبى صلى الله عليه وسلم وشهد معه فتح مكة وانقطعت الهجرة ·وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعظمه ويكرمه بعد اسلامه · فكان وصولا لأرحام قريش محسنا اليهم ذا رأى سديد وعقل غزير وقد قال رسول الله صلى

---

(١) رجال حول الرسول ـ خالد محمد خالد ـ ص ٧٥٩ وما بعدها ·

(٢) المرجع السابق ص ٥٣٣ وما بعدها ·

الله عليه وسلم « أيها الناس من آذى عمى فقد آذانى فانما عم الرجل صنو أبيه » .

وعن العباس قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقلت : علمنى يا رسول الله .

فقال : سل الله العافية .

ثم أتيته مرة أخرى فقلت : يا رسول الله علمنى شيئا أدعو به .

فقال : يا عباس يا عم رسول الله سل الله العافية فى الدنيا والآخرة .

واستسقى عمر بن الخطاب بالعباس رضى الله عنهما عام الرمادة لما اشتد القحط على المسلمين فسقاهم الله تعالى وأخصبت الأرض .

وكان الصحابة يعرفون للعباس فضله ويقدمونه ويشاورونه ويأخذون برأيه توفى بالمدينة وصلى عليه عثمان ودفن بالبقيع وهو ابن ثمان وثمانين (١) .

ـ أبو الدرداء الأنصارى : حكيم الأمة

ومن الصحابة الحكماء أبو الدرداء الأنصارى وكان اسمه عويمر بن مالك تأخر اسلامه قليلا وحسن اسلامه ، وكان فقيها عاقلا حكيما وقال الرسول صلى الله عليه وسلم عنه (عويمر حكيم أمتى) وشهد ما بعد أحد من المشاهد .

ومما يروى عن حكمته أنه مر يوما على رجل أصاب ذنبا وكان الناس يسبونه .

فقال : أرأيتم لو وجدتموه فى قليب (بئر قديمة) ألم تكونوا مستخرجيه ؟

قالوا : بلى .

قال : فلا تسبوا أخاكم واحمدوا الله الذى عافاكم .

قالوا : أفلا تبغضه .

قال : انما أبغض عمله فاذا تركه فهو أخى .

وكان أبو الدرداء مقرىء أهل دمشق وقاضيهم وتوفى فى سنة ٣٢ هجرية ، ولما نزل به الموت بكى .

---

(١) عثمان بن عفان ذو النورين ـ محمد رضا ـ ص ١٠٨ وما بعدها .

فقالت له أم الدرداء : فأنت تبكى يا صاحب رسول الله ٠

قال : نعم ومالى لا أبكى ولا أدرى علام أهجم من ذنوبى (١) ٠

ـ عبد الله بن عمر : المتتبع لآثار الرسول صلى الله عليه وسلم

بدأت علاقته بالاسلام وبالرسول صلى الله عليه وسلم وهو فى الثالثة عشر من عمره حين صحب أباه الى غزوة بدر ، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام رده لصغر سنه ٠

تعلم من أبيه عمر بن الخطاب وتعلم مع أبيه من الرسول صلى الله عليه وسلم كان ينظر ماذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يفعل فيحاكيه فى دقة واخبات ٠

قالت عنه عائشة رضى الله عنها : ما كان احد يتبع أثار النبى صلى الله عليه وسلم فى منازله كما كان يتبعه ابن عمر ٠

روى الأحاديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم ولا يروى عنه حديث الا اذا كان ذاكرا كل حروفه ، دعاه عثمان بن عفان رضى الله عنهما ، وطلب اليه ان يشغل منصب القضاء فاعتذر وألح عليه فاعتذر وسأله عثمان : أتعصينى ٠

فأجاب ابن عمر : كلا ولكن بلغنى أن القضاة ثلاثة ، قاض يقضى بجهل فهو فى النار ، وقاض يقضى بهوى فهو فى النار ، وقاض يجتهد ويصيب فهو كفاف لا وزر ولا أجر ٠ وانى لسائلك بالله أن تعفينى ٠

فأعفاه عثمان ٠

وكان يصلى ويذكر ربه كثيرا وكان كأبيه تهطل دموعه حين يسمع آيات النذير فى القرآن وكان تاجرا ناجحا وكان له عطاؤه من بيت المال فكان يتصدق به على الفقراء والمساكين ٠ عرضت عليه الخلافة أكثر من مرة فأبى ٠ كان حريصا على أن لا يكون له فى الفتن التى مرت بدولة الاسلام نصيب ٠

ولقد لقى ربه بالغا من العمر خمسة وثمانين عاما فى العام الثالث والسبعين للهجرة (٢) ٠

---

(١) عثمان بن عفان ذو النورين ــ محمد رضا ــ ص ١١٤ ٠

(٢) رجال حول الرسول ــ خالد محمد خالد ــ ص ١٢١ ٠

- عبد الله بن العباس : حبر الأمة

هو ابن العباس بن عبد المطلب بن هاشم عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم وهو غلام ومات الرسول صلى الله عليه وسلم قبل أن يبلغ ابن عباس سن الرجولة ، أدناه الرسول عليه الصلاة والسلام منه وهو طفل وربت على كتفه ودعا له قائلا « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » ، ويلقب بحبر هذه الأمة ، وتعلم من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم بعدوفاته ، امتلك ثروة كبرى من العلم ومعها ثروة أكبر من أخلاق العلماء فقد كان يفيض على الناس من ماله بنفس السماح الذى يفيض عليهم من علمه · عابد قانت أواب ·

يصفه سعد بن وقاص فيقول « ما رأيت أحدا أحضر فهما ولا أكبر لبا ولا أكثر علما ولا أوسع حلما من ابن عباس .... » ·

كان متنوع الثقافة فى تفسير القرآن وتأويله وفى الفقه وفى التاريخ وفى لغة العرب وآدابها وتوفى فى عامه الحادى والسبعين (١) ·

هذه نماذج من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان عليهم بعد عمر بن الخطاب أن يوجهوا مع عثمان بن عفان الدولة الاسلامية الى مزيد من الرفعة والازدهار ويصلوا بالاسلام الى مزيد من القوة والانتشار ، ويقدموا مشورتهم فى مسائل الدولة العليا ومنها مسائل السياسة المالية ، فهل هم فاعلون ؟

زهد الخليفة السابق عمر ونواياه بشأن المال العام ووصاياه وخشيته من فتنة كبرى :

- كان يقود المجتمع قبل عثمان عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، وكان شديدا حازما عفيفا عن المال العام هو وأفراد عائلته ، وانعكس حزمه على ادارة المالية العامة وعلى ولاته ·

- وقد بدا له أن الفروق بدأت تتسع بين الأغنياء والفقراء اتساعا قد يؤدى الى ميل المجتمع عن التوازن الآمن ، فأعلن قرارين بشأن المال العام فقال :

« لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على الفقراء (٢) ·

---

(١) المرجع السابق ص ٧١٣ ·

(٢) عبقرية عمر - عباس العقاد - ص ١٥٤ ، ١٥٥ ·

وقال :

« والله لئن بقيت الى العام المقبل لألحقن آخر الناس بأولهم ولأجعلنهم بيانا واحدا » .

ـ كما أوصى المرشحين للخلافة بعده أن يبقى من يتولى منهم الخلافة الولاة الذين كانوا على الأمصار حين وفاته فى مناصبهم لمدة عام (١) ولعله خشى أن ينم أحلال هؤلاء الولاة بغيرهم فور تولى الخليفة الجديد الخلافه مما قد يعرض الدولة الاسلامية لهزة غير مأمونة العواقب ، خصوصا وقد كان عمر يجتهد فى اختيار هؤلاء الولاة ويدقق فى مواصفاتهم ويحصى أموالهم قبل الولاية ويراجع ثرواتهم فى نهايتها ويرد الى بيت مال المسلمين ما زاد منها مما يحوطه الشك والريبة ، وفيما يلى أسماء الولاة الذين كانوا على ولايات الدولة الاسلامية قبل أن تؤول الخلافة لعثمان بن عفان رضى الله عنه .

نافع عبد الحارث الخزاعى	على الطائف
سفيان بن عبد الله الثقفى	على مكة
يعلى بن منية	على صنعاء
عبد الله بن أبى ربيعة	على الجند
المغيرة بن شعبة	على الكوفة
أبو موسى الأشعرى	على البصرة
عمرو بن العاص	على مصر
عمير بن سعد	على حمص
معاوية بن أبى سفيان	على دمشق
عثمان بن أبى العاص الثقفى	على البحرين وما ولاهما
شريح	على قضاء الكوفة
كعب بن سور	على قضاء البصرة (٢)

ـ وأوصى عمر أيضا بأن لايؤثر الخليفة بعده أهله وعشيرته على رقاب الناس فقبل موته وجه الحديث لمن رشحهم ليختار المسلمون الخليفة بعده .

---

(١) تاريخ الطبرى ـ الجزء الرابع ـ طبعة دار المعارف ـ الطبعة الرابعة ـ نقلا عن الواقدى ص ٢٤٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٤١ .

فقال لعلى بن أبى طالب أحد المرشحين :

« يا على قد يعرف الناس لك صهرك وقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم وما آتاك الله من العلم والفقه فان وليت من أمور الناس شيئا أن تحمل بنى هاشم على رقاب الناس » ٠

وقال لعثمان بن عفان :

« قد يعرف الناس لك سنك وصهرك من رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرفك ، فان وليت من أمر الناس فاتق الله ألا تحملن بنى أبى معيط على رقاب الناس »

وقال لسعد بن أبى وقاص :

« أنشدك الله يا سعد ان وليت من أمور الناس شيئا أن تحمل أقاربك على رقاب الناس » ٠

وناشد الآخرين بمثل هذه المناشدة ٠

هذا وايثار الحكام الأقرباء والأصهار بالمال العام — وهو من صور حملهم على رقاب الناس — يمثل اعتداء على المال العام واستحواذ له بغير حق وأكل للمال بالباطل ويضعف ثقة الرعية بالسياسات العامة للدولة خصوصا سياستها المالية ٠

— كما ألمح عمر فى أحد أحاديثه الى احتمالات فتنة تحقيق بالمجتمع الاسلامى فقد كان يجلس الى بعض أصحابه وفيهم حذيفة بن اليمان فجرى بينهما هذا الحوار الذى يرويه البخارى فى صحيحه فى باب الفتن :

عمر : أيكم يحفظ قول النبى صلى الله عليه وسلم فى باب الفتن ٠

حذيفة : فتنة الرجل فى أهله وماله وولده وجاره تكفرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ٠

عمر : ليس عن هذا أسألك ، ولكن التى تموج كموج البحر ٠

حذيفة : ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين ٠ ان بينك وبينها بابا مغلقا ٠

عمر : أيكسر الباب أم ينفتح ٠

حذيفة : بل يكسر ٠

عمر : اذا لا يغلق أبدا ٠

حذيفة : نعم ٠

فلما سأل الجالسون حذيفة : أكان عمر يعلم الباب ٠

قال : نعم كما أعلم أن دون غد ليله ، وذلك أن حديثــه ليس بالأغاليط فهبنا أن نسأله من الباب ، فأمرنا مسروقا ٠

فسأله : من الباب ؟

قال عمر : عمر ٠

والفتنة اذا اندلعت تذهب بالاستقرار فتضعف شوكة المسلمين وتوشن تنفيذ سياسات الدولة ومنها سياستها المالية ٠

تنافس قبلى بين الهاشميين والأمويين له جذوره فى الجاهلية :

من الأوضاع التى كانت قائمة قبل عهـد عثمـان تنافس قبلى له جذوره كان قائما بين الهاشميين والأمويين علما بأن الخليفة عثمـــان من الأمويين ٠

ويرجع هذا التنافس الى ما قبل الاسلام بعشرات السنين وسببه أن سقاية ورفادة البيت الحرام تعتبـر بين العـرب شرفا عظيما منـذ الجاهلية ، وقد حظى بهذا الشرف هاشم من بنى عبد مناف فكان يتولى خدمة البيت الحرام ، فلما طعن فى السن حاول ابن أخيه أميــة بن عبد شمس أن ينتزع منه شرف خدمة البيت الحرام ، ولكنه لم يقـدر على اطعام حجاج البيت فعيره قومه فهاجر الى الشــام وكون له أسرة واشتغل بالتجارة وأصبح واسع الثراء ، بينما اهتم هاشم بأمور البيت الحرام وصيانة الحاج أكثر من التجارة ٠

فلما جـاء الاسـلام واختار الله رسوله محمـدا ابن عبد الله من بنى هاشم ، أثار ذلك حفيظة بنى أمية ، فتصدوا لدعوته وعلى رأسهم أبو سفيان بن حرب ، وسخروا من النبى صلى الله عليه وسلم ومن دعوته واتهموه بالجنون والسحر والشعوذة ، وألحقوا بإتباعه صنوف الأذى بل والتعذيب ، وشهروا بمكة ضدهم سلاح المقاطعة وكتبوا بهذه المقاطعة صحيفة علقوها على الكعبة وبذلك منعوا عن محمد وأتباعه الطعـام والماء وامتنع عليهم التعامل مع أهل مكة بسبب هذه المقاطعة ، حتى اذا أكل الأرض الوثيقة ما عدا كلمة (باسمك اللهم) استمر بنو أميــة وكفار العرب فى ايذاء الرسول وأصحابه وحاولوا قتل النبى نفسه فهاجر الى المدينة ، وقامت حروب كان أبو سفيان يعبىء جيوش الكفار وينظمها ويخطط لها ويمولها ، واستمرت تلك الحروب حتى حقق الله لرسوله صلى الله عليه وسلم النصر بفتح مكة وعفا عليه الصلاة والســلام عن أهل مكة وقال قولته المشهوره « أذهبوا فأنتم الطلقاء » ٠

وان كان أبو سفيان ومعظم بنى أمية قد اعتنقوا الاسلام الا أن نفوسهم ما زالت يعود اليها بين الحين والآخر رجع ذلك التنافس الذى

امتدت جذوره الى الجاهلية الأولى ، ويخشى وعثمان رضى الله عنه أموى وقد تولى الخلافة أن يعتبرها بنو أمية فرصة سنحت لتعويض حرمانهم من شرف خدمة البيت الحرام ، فيطفو على سطح المجتمع ذلك التنافس القبلى بين آل هاشم وآل أمية فتشيع فيه دعاوى الجاهلية الأولى .

هذه اذا مقدمة من المقدمات التى سبقت حكم عثمان وعليه أن يأخذها فى حسبانه عند ادارة شئون الدولة الاسلامية وعند توزيعه فىء المسلمين فلا يؤثر به ذا قرابة لقرابته ولا يميز أمويا على هاشمى ويعتبر أن الناس فى عهده سواسية كأسنان المشط كما أنبأ بذلك الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم .

منازعات ومناوشات قبيل عهد عثمان وشيكة التضخم فى عهده :

ـ كانت منازعات العرب الذين استوطنوا البصرة والكوفة متصلة، وكانت كل واحدة من المدينتين تسرع الى مناوأة عامل الخليفة عليها ، حتى اضطر عمر غير مرة الى أن يولى عماله وأن يقول : هات امرأ أصلح به قوما أن أبدلهم أميرا مكان أمير » (١) .

ـ كان يزدجر كسرى الفرس لا يزال مقيما فى فرغانة عاصمة الترك بسمرقند ينتظر الفرصة للعود الى بلاده ومناجزة المسلمين (٢) .

ـ كان الروم قد اطمأنت أمورهم بعض الشيء بعاصمة قسطنطين وكانوا يتهيئون للأخذ بالثأر وشن الغارة من جديد على الشام وعلى مصر (٣) .

وقد فكر الفرس والروم فى الانتفاض لما جاءتهم الانباء بمقتل عمر وبيعة عثمان فتمردت ولايات كانت أذعنت لسلطان العرب وصالحتهم فنقضت صلحها ومنعت الجزية التى صالحت عليها ، فكان على الخليفة الجديد أن يرد هذه الولايات الى الطاعة ، وأن يفرض عليها جزاء أقله ما صالحت عليه فى عهد عمر مخافة أن تنقض غيرها من الولايات صلحها وتعلن الثورة والعصيان (٤) .

دخول عثمان بن عفان فى مرحلة الشيخوخة قبل تولية الخلافة :

ولى عثمان بن عفان رضى الله عنه الخلافة كما سبق أن ذكرنا وهو ابن ثمانى وستين سنة وقال آخرون وهو ابن ست وثمانين وقال آخرون وهو ابن ثمان وثمانين أو تسعين (٥) أيا كان الخلاف فى سنه فمدة حكمه كانت فى مرحلة الشيخوخة .

(١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) عثمان بن عفان ــ محمد حسنين هيكل ص ٥٥ .
(٥) الطبرى ــ الجزء الرابع ــ ص ٤١٧ ، ٤١٨ .

يقول المتخصصون ان الشيخوخة مرحلة من مراحل العمر تكون من خمسين الى آخر العمر وقيل الى الثمانين وقد نوه القرآن الكريم عن مرحلة الشيخوخة فى أكثر من موضع منها قوله تعالى :

« هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون » (غافر / ٦٧) ٠

وعندما يتجاوز المرء سن الخمسين يبدأ شعوره ببعض علامات الشيخوخة وكبر السن ، فيقل نشاطه ويحس بالتعب بسرعة عند بذل أى مجهود فكرى أو جثمانى وتأخذ الغدد فى الضعف تدريجيا وينقص افرازها للهرمونات ، ولذلك يميل الى الهدوء والدعة والسكون وتتضاءل الآمال الكبيرة أمامه ويفقد الحماس لكل جديد ، وعندما يبلغ الستين من العمر تظهر عليه بوضوح علامات الضعف والاضمحلال وتفقد العضلات والعظام مرونتها فيحس بتصلبها ويزيد خفقان القلب وتصلب الشرايين، وعند هذا السن يشحب الوجه وتتجعد البشرة ويزول بريق العين وتظهر جيوب تحتها ويتهدل الجلد عند الرقبة وحول الذقن وتصلع الرأس أو يشيب شعرها ويصيب بعض الأعضاء قلة الحيوية من الارتخاء ويلحقه الاعياء الشديد عند محاولة تركيز ذهنه فى شىء منها مدة طويلة وتضمحل الذاكرة (١) ٠

ويشير القرآن الكريم الى الوهن الذى يصاحب الشيخوخة فى نداء زكريا لربه ، فيقول جل وعلا :

« قال ربى انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا » (مريم / ٤) ٠

ولما سبق يخشى أن تحد شيخوخة الخليفة عثمان من انطلاق نشاطه واتخاذ القرارات العامة فى حينها ويخشى كذلك أن لا يتحمس بسبب شيخوخته لاجراء التعديلات والتغيرات للسياسات الموضوعة ومنها السياسات المالية اذا قضت بذلك ضرورات تتطلبها المصلحة العامة ٠

نبوءة للرسول صلى الله عليه وسلم بدخول عثمان الجنة على بلوى تصيبه :

عن سعيد ابن المسيب قال :

---

٠ (١) نحن المعمرون ــ تأليف حسن عبد السلام ــ ص ١٥ ، ١٧ ٠

« أخبرني أبو موسى الأشعرى : أنه توضأ فى بيته ثم خرج فقال : لألزمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأكونن معه يومى هذا .

قال : فجاء المسجد فسأل عن النبى صلى الله عليه وسلم .

فقالوا : خرج ووجه (١) ههنا ، فخرجت على أثره أسأل عنه حتى دخل بئر أريس (٢) — فجلست عند الباب — وبابها من جريد — حتى قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجته ، فتوضأ فقمت اليه فاذا هو جالس على بئر أريس وتوسط قفها (٣) وكشف عن ساقيه ودلاهما فى البئر ، فسلمت عليه ثم انصرفت فجلست عند الباب .

فقلت : لأكونن بواب رسول الله صلى الله عليه وسلم اليوم فجاء أبو بكر فدفع الباب .

فقلت : من هذا ؟

فقال : أبو بكر .

فقلت : على رسلك (٤) .

ثم ذهبت .

فقلت : يا رسول الله هذا أبو بكر يستأذن .

فقال : ائذن له وبشره بالجنة .

فاقبلت حتى قلت لأبى بكر : أدخل ورسول الله صلى الله عليه وسلم يبشرك بالجنة فدخل أبو بكر فجلس عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القف ودلى رجليه فى البئر كما صنع النبى صلى الله عليه وسلم وكشف عن ساقيه ثم رجعت فجلست وقد تركت أخى (٥) يتوضأ ويلحقنى .

فقلت : أن يرد الله بفلان خيرا — يريد أخاه — يأت به .

فاذا انسان يحرك الباب .

فقلت : على رسلك .

ثم جئت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه ،

فقلت : هذا عمر بن الخطاب يستأذن .

---

(١) ووجه : بفتح الواو الجيم المشدده أى توجه .

(٢) أريس : بستان بالقرب من قباء .

(٣) قفها : بضم القاف وتشديد الفاء أى حافتها أو الدكة التى حولها .

(٤) على رسلك : أى تمهل وتأن .

(٥) يريد أخاه أبا بردة أو أخاه أبا رهم ، وقيل كان له أخ ثالث اسمه مجهد ،

فقال : ائذن له وبشره بالجنة .

فجئت فقلت : أدخل وبشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة

فدخل فجلس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القف عن يساره ودلى رجليه فى البئر ثم رجعت فجلست ،

فقلت : أن يرد الله بفلان خيرا يأت به .

فجاء انسان يحرك الباب .

فقلت : من هذا .

فقال : عثمان بن عفان .

قلت : على رسلك .

فجئت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته ،

فقال : ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه (١) .

فجئت فقلت له : أدخل وبشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة على بلوى تصيبك فدخل فوجد القف قد ملء فجلس وجاهه (٢) من الشق الآخر .

قال سعيد بن المسيب : فأولتها قبورهم (٣ ، ٤) .

- رواية أخرى عن نبوءة الرسول صلى الله عليه وسلم لعثمان

كان عبد الله بن سعد وجه مروان بن الحكم الى عثمان بن عفان من افريقية ووجه معه رجل من العرب من لحم جذام .

قال مروان بن الحكم : فسرنا حتى اذا كنا ببعض الطريق قرب الليل .

فقال لى صاحبى : هل لك الى صديق لى ها هنا .

قلت : ما شئت .

---

(١) يريد ما أصاب عثمان - رضى الله عنه - من المحاصرة ثم الشهادة يوم بدر .

(٢) وجاهه : بضم الواو وكسرها أى مقابله .

(٣ ، ٤) يريد أنه أول حالة اجتماع للرسول صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر فى القف وانفراد عثمان فى مكان آخر مواجها للرسول صلى الله عليه وسلم ، بما تكون عليه قبورهم بعد موتهم ، فالنبى وأبو بكر وعمر فى مكان واحد بالمسجد وعثمان رضى الله عنه منفرد فى البقيع .. البخارى - الجزء السادس طبعة المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ص ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ .

فعدل بى عن الطريق حتى اذا أتى على دير ، واذا سلسلة معلقة فأخذ السلسلة فحركها ، وكان أعلم منى ، فأشرف علينا رجل ، فلما رآنا فتح الباب فدخلنا فلم يتكلم حتى طرح لى فراشا ولصاحبى فراشا . ثم أقبل على صاحبى يكلمه بلســانه فراطنــه (١) حتى سؤت ظنا ثم أقبل على ،

فقال : أى شىء قرابتك من خليفتهم ؟

قلت : ابن عمه .

قال : هل أحد أقرب اليه منك ؟

فقلت : لا ، الا أن يكون ولده .

قال : صاحب الأرض المقدسة أنت .

قلت : لا .

قال : فان استطعت أن تكون هو فافعل .

ثم قال : أريد أن أخبرك بشىء وأخاف أن تضعف عنه .

قلت : ألى تقول هذا وأنا وأنا ،

ثم أقبل على صاحبى فراطنه ، ثم أقبل على فساءلنى عن مثل ذلك وأجبته بمثل جوابى ،

فقال : ان صاحبك مقتول وانا نجد أنه يلى هــذا الأمر من بعده صاحب الأرض المقدسة ، (٢) فان استطعت أن تكون ذلك فافعل .

فاصابتنى لذلك وجمة (٣) .

فقال لى : قد قلت لك انى أخاف ضعفك عنه .

فقلت : ومالى لا يصــيبنى وقد نعيت لذلك سيد المســلمين وأمير المؤمنين .

ثم قدمت المدينة فاقمت شهرا لا أذكر لعثمان من ذلك شيئا ، ثم دخلت عليه وهو فى منزل له على سرير ، وفى يده مروحة فحدثتــه بذلك ، فلما انتهيت الى ذكر القتل بكيت وأمسكت .

فقال عثمان : تحدث لا تحدثت .

---

(١) راطنه : أى كلم بلغته .

(٢) صاحب الأرض المقدسة : وبما يقصد على بن أبى طالب .

(٣) وجمة : وجم وجوما أي سكت وأطرق من الحزن .

فحدثته . فأخذ بطرف المروحة يعضها واستلقى على ظهره . وأخذ بطرف عقبه يعركه ، حتى ندمت على اخبارى اياه .

ثم قال : صدق وسأخبرك عن ذلك :

لما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تبوك أعطى أصحابه سهما وأعطانى سهمين ، فظننت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انما أعطانى ذلك لما كان من نفقتى ،

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا ولكن أحببت أن يرى الناس مكانك منى أو منزلتك منى » .

فأدبرت فلحقنى عبد الرحمن بن عوف ،

فقال : ماذا قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما زال يتبعك بصره فظننت أن قولى قد خالف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمهلت حتى اذا خرج الى الصلاة ، أتيته .

فقلت : يا رسول الله ، ان عبد الرحمن بن عوف أخبرنى بكذا وكذا وأنا أتوب الى الله .

فقال صلى الله عليه وسلم : لا ولكنك مقتول أو قاتل فكن المقتول . الله أعلم (١) .

ـ حديث للرسول صلى الله عليه وسلم يتضمن نبوءة لعمر وعثمان بالاستشهاد

فعن سعيد عن قتادة أن أنس بن مالك رضى الله عنه ، حدثهم :

أن النبى صلى الله عليه وسلم صعد أحدا وأبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم ،

فقال : أثبت أحد ، فانما عليك نبى وصديق وشهيدان (٢) .

عبء ثقيل ينتظر عثمان بن عفان :

واذا نظرنا نظرة شاملة الى المقدمات التى نوهنا عنها سابقا ، نجدها تتضمن احتمالات بميل بعض الصحابة عن القمة الايمانية التى تركهم

---

(١) هذه الرواية وردت فى كتاب فتوح مصر وأخبارها ـ مرجع سابق ـ ص ١٢٧ ويشير المؤلف الى أنها عن حديث لعبد الله بن معشر الأيلى ويذكر أنه لا يدرى أكان فى فتح افريقية أم بعده ويميل الى الأخذ بها فيما تضمنه عما دار بين الرسول صلى الله عليه وسلم وعثمان رضى الله عنه .

(٢) صحيح البخارى ـ الجزء السادس ـ طبعة المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ص ٩٢ .

عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن فتحت الامصـــار ، ونوايا سابقة من خليفة سابق بتعديلات جذرية فى السياسة المالية ، وتنافس قبلى اذا سرى أضر بوحدة الأمة وتماسكهـــا ، وانتفاضات بالأمصـــار اذا لم ترد الى الطاعة زالت هيبة الدولة وانكمش سلطانها ، ونبوءات بفتن يفتح بابها ونبوءات أخرى بقتل الخليفة الجديد نفسه ٠ .

انه حمل ثقيل ألقى على كتفى عثمان ولذلك لما بايعه أصحـــاب الشورى يذكر المؤرخون أنه خرج فيهم وهو أشدهم كآبة (١) حتى أتى منبر الرسول صلى الله عليه وسلم وقام يخطب الناس فارتج عليه ٠

بلورة السياسة المالية لمقابلة التحديات التى ستواجه عثمان :

وفى ضوء ما تقدم يصبح على السياسة المالية للخلافة الثالثة علاوة على أداء وظائفها التقليدية أن تتهيأ لمقابلة هذه التحديات فيتم بلورتهـــا بمراعاة ما يلى :

ـ أن تقوم السياسة المالية بصفة عامة على الحق والعدل والأمانة لأن هـــذه السمات تنبع من أحكام الاســـلام نفسه ، ولأنهـــا منجيات للدولة من الباطل والظلم والخيانة فى المال العام والثلاث من وقود الفتن ٠

ـ توضع السياسة المالية بحيث تحقق نوايا الخليفة السابق بأخذ فضول أموال الأغنياء وتوزيعها على الفقراء وجعل الناس فى العطاء بيانا واحدا ٠

ـ أن تلتزم السياسة المالية بقاعدة عدم ايثار بعض ذوى قربى الخليفة أو الولاة بالمال العام تنفيذا لوصية عمر لعثمان رضى الله عنهما بعدم حمل آل معيط على رقاب النـــاس ولعـــدم اذكاء التنافس بين آل هاشم وبين بنى أمية ٠

ـ أن لا تقوم الدولة باجراءات خاصة من شأنها زيادة غنى الأغنياء من الصحابة ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبيه من بعده خشـــوا عليهم الفتنة ، والمال أحيانا يكون مصدرا من مصادر الفتنة ٠

ـ أن تمول السياسة المالية جنـــد الاســـلام لرد الامصار المنقضة الى الالتزام بعهودها ومواثيقها وأداء حقوق بيت المال من جزية وخراج وحتى لا تتفسخ الدولة ٠

ـ أن تمول السياسة المالية جند الاســـلام لنشر الدعوة وتحقيق

---

(١) الطبرى ـ جزء ٤ ـ طبعة دار المعارف ـ طبعة رابعة ص ٢٤٣ ٠

نصر الله بفتوحات جديدة تمكن لدين الله فى الأرض ، وتؤدى الامصار المفتوحة الجزية صاغرة وخراج الأرض لبيت مال المسلمين .

ــ أن يراعى فى وضــع السياسة المالية الأخـذ بقاعدة المشــورة فتعرض على هيئة المشورة بالدولة الاسلامية وهم صحابة رســول الله صلى الله عليه وسلم للاستئناس بآرائهم ومن نتائج المشورة أنها توحـد الرعية وراء السياسات العامة وتقلل أو تمنع قيام معارضة بســـبب نواح فى السياسة العامة لم تكن روعيت عند اعدادها .

الباب الثانى

السياسية المالية العامة الاسلامية
فى عهد عثمان بن عفان ومسائل تنفيذها

الفصل الأول

السياسة المالية المعلنة لعثمان بن عفان

تعريف السياسة المالية للدولة الاسلامية (١) :

« السياسة المالية للدولة الاسلامية عبارة عن ادارة الايرادات العامة والنفقات العامة لهذه الدولة وتوازنها بغرض تحقيق أهداف الدولة الاسلامية » .

وبناءا على هذا التعريف تكون عناصر السياسة المالية للدولة الاسلامية كالآتي :

الايرادات العامة للدولة الاسلامية وادارتها :

ـ وكانت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم تشمل بصفة أساسية الزكاة وخمس الغنائم والجزية ، واستمرت كذلك في عهد أبي بكر الصديق ، ثم زادها عمر بن الخطاب بايرادات خراج الأرض وعشور التجارة .

وقد يتحقق لبيت المال ايرادات عارضة كايرادات الضوائع والتركات التي لا وارث لها .

ـ والزكاة فرضت بالقرآن أيام الرسول صلى الله عليه وسلم غير أنه بعد وفاته امتنع البعض عن دفعها فحاربهم أبو بكر الصديق وانتصر عليهم فاستقر أداؤها لبيت مال المسلمين ، فلما آلت الخلافة لعمر بن الخطاب أفتى فيما عرض عليه من مسائلها ودعم حصيلتها بالمتابعة والرقابة ، وفي عام الرمادة أرجأ تحصيلها ، وقد زادت في عهده نتيجة دخول أهل البلاد المفتوحة في دين الله أفواجا .

ـ وخمس الغنائم يؤول لبيت مال المسلمين استنادا لآية الخمس(٢) في القرآن . طبقها الرسول صلى الله عليه وسلم فأعطى المحاربين أربعة أخماس ما غنموه في الغزوات والسرايا وآل لبيت المال خمس هذه

---

(١) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع لكتابنا ـ النظم المالية في الاسلام ـ وكتابنا السياسة المالية لعمر بن الخطاب .

(٢) سورة الأنفال ـ الآية ٤١ .

الغنائم ، وقد سار أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب على سنة الرسول الكريم ، فكان يؤول خمس غنائم الفتوحات التى تمت فى عهدهما لبيت مال المسلمين ٠

ـ والجزية فرضت أيضا بالقرآن الكريم (١) على أهل الكتاب الذين آلت بلادهم للدولة الاسلامية فدخلوا فى حوزة المسلمين وآثروا البقاء على دينهم وعدم اعتناق الاسلام ٠ وقد طبق الرسول الكريم نص القرآن وطبقه خليفتاه من بعـــده ، فآل لبيت المال ما يدفعه أهـــل الكتاب من جزية مفروضة ٠ وقد نظم عمر أوضاعها الفنية فحدد فئاتها طبقا لدرجة يسار أهل الكتاب وبين المعفون منها وأوضح طرق تحصيلها ومواعيد التحصيل بما يلائم ظروف أهل الكتاب ٠

وقد زادت حصيلتها تدريجيا من أيام الرسول حتى نهاية عهـــد عمر بن الخطاب بتوالى الفتوحات الاسلامية ٠

ـ أما الخراج فاستقر مبدأ فرضه على الأراضى الزراعية فى البلاد المفتوحة بمعرفة الدولة الاسلامية فى عهد عمر بن الخطاب ٠ فقد طلب الفاتحون تقسيم الأرض بينهم كباقى غنائم الفتوحات الاسلامية ، ولكن عمر احتكم الى أهل الشورى من المهاجرين والأنصـــار فأيدوه فى عدم التوزيع ، وفرض الخراج عليها ليؤول لبيت مال المسلمين ٠ وفى ضـــوء ذلك اتخذ عمر الخطوات اللازمة للتنفيذ ، فمسح عماله الأرض وحددوا فئات الخراج بما يحقق عدالة عبئه وملائمة مواعيد تحصيله ٠

ـ والعشور أول من فرضها عمر فقد كان يؤخذ عشر قيمة تجارة المسلمين اذا أتوا أرض البلاد التى لم تدخل فى حوزة الدولة الاسلامية ، ففرض عمر ضريبة مماثلة على تجار تلك البلاد اذا أتوا أرض الاسلام ٠

وكانت فئاتها العشر على تجارتهم ونصف العشر على قيمة تجارة أهل الكتاب الذين فى ذمة الدولة الاسلامية أما بالنسبة للتجار المسلمين فلا يؤدون الا زكاة تجاراتهم ان لم يكونوا قد أدوها من قبل ٠

ـ الضـــوائع والتركات التى لا وارث لها وهى عارضة ولا تكون موردا غزيرا منتظما للدلالة الاسلامية ٠

النفقات العامة للدولة الاسلامية وادارتها :

الانفاق العام فى المالية العامة الاسلاميه منظم على النحو التالى :

---

(١) سورة التوبة ـ الآية ٢٩ ٠

- ينفق من ايرادات الزكاة على وجوهها المحددة بالقرآن(١) فتؤول للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل ٠

وقد طبق الرسول الكريم ذلك وتبعه أبو بكر وعمر ، غير أن عمر رأى عدم الانفاق منها على المؤلفة قلوبهم لانتفاء حكمته بعد أن قويت الدولة الاسلامية ٠

- ينفق من ايرادات خمس الغنائم على وجوهها المحددة بالقرآن(٢) فيكون لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ٠

وقد طبق رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، غير أن خليفتاه من بعده رضى الله عنهما وجها سهم الرسول وذى القربى للانفاق على الكراع والسلاح ٠

- ينفق من ايرادات الجزية والخراج وعشور التجارة على سائر النفقات العامة التى تتطلبها ادارة الدولة الاسلامية وأداء الخدمات العامة وتحقيق سائر أهداف الدولة الاسلامية ، وهذه النفقات العامة زادت تدريجيا منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم الى نهاية عهد عمر وذلك بسبب اتساع الدولة الاسلامية تدريجيا وتزايد رعاياها واكتمال كيانها ٠

- ينفق من ايرادات التركات التى لا وارث لها والضوائع على الفقراء ٠

توازن السياسة المالية الاسلامية :

التوازن التقليدى للمالية العامة هو أن يكون الانفاق العام للدولة فى حدود ايراداتها غير أنه حديثا يقصد بتوازن السياسة المالية أن تساهم فى تحقيق التوازن الاقتصادى العام وعلى ذلك من الممكن أن يزيد الانفاق العام عن الايرادات العامة للدولة واحداث عجز محدد يغطى بقروض تعقدها الدولة لتحقيق التوازن العام ٠

وقد حققت المالية العامة الاسلامية فى عهد كل من أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فائضا مكنهما من توزيع أعطيات على الرعية وان كان نصيب أفراد الرعية زاد فى عهد عمر بن الخطاب وبعد أن كان أبو بكر يوزع الأعطيات بالتساوى خالف عمر ذلك فزاد أنصبة ذوى قربى

---

(١) سورة التوبة آية ٦ ٠

(٢) سورة الأنفال آية ٤١ ٠

الرســـول صلى الله عليه وسلم والذين كان لهم فضـــل السبق والجهاد في الاســـلام ٠

تحقيق أهداف الدولة الاسلامية :

ينبغي أن توصل ادارة الايرادات العامة والنفقات العامة وتوازن المالية العامة الاسلامية الى تحقيق تمويل أهداف الدولة الاسلامية وهي متعـددة ولعـــل أهمها وأعمها نصره الاســـلام وانتشـــاره وما يدخل في نطاق الرعاية التي أشار اليها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في حديثه المشهور عن الرعاية الذي نوهنا عنه سابقا ٠

السياسة المالية لعثمان بن عفان كما أعلنها في كتبه :

عند ما ولى عثمان بن عفان الخلافة خطب الناس الخطبة التالية :

« الحمد لله ٠ أيها الناس ، اتقوا الله ، فان الدنيا كما أخبر الله عنها « لعب ولهو وزينـــة وتفـــاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثـــل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصـــفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور فخير العبـــاد فيها من عصم الله واســـتعصم بالله وبكفـــاية ، وقد وكلت من أمركم بعظيم ولا أرجو العون عليه الا من الله ولا يوفق للخير الا هو وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب » ٠

ويعلق أحد الكتاب على ذلك فيقول :

« وكانت كلماته هادئة رصينة لينة كلها نصـــائح تتعلق بالدين بعيدة كل البعد عن السياسة وكأنه أراد أن لا يلزم نفسه بنهج خاص يقيده ويأخذ عليه طريقه » (١) ٠

غير أن الطبري أورد خطبة أخرى ٠

خطب عثمان الناس فحمد الله وأثنى عليه صلى الله عليه وسلم وقال :

« انكم في دار قلعة وفي بقية أعمار ، فبادروا أجالكم بخير ماتقدرون عليه ، فلقد أتيتم ، صبحتم أو مسيتم ، ألا وأن الدنيا طويت على الغرور ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور ، اعتبروا بمن مضى ثم جدوا ولا تغفلوا ، فانه لا يغفل عنكم ٠ أين أبناء الدنيا واخوانهـــا الذين أثاروها وعمروها ، ومتعوا بها طويلا ، ألم تلفظهم ، ارموا بالدنيا حيث رمى بها الله ، واطلبوا الآخرة ، فان الله قد ضرب لها مثلا وللذى هو خير فقال عز وجل :

---

(١) مع الخلفاء الراشدين للأستاذ عبد الخالق أبو رابية ص ٥٠ ٠

« واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا . المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا . » (الكهف ٤٥ ، ٤٦) (١) .

ويورد الطبرى عن مصدر آخر خطبة أخرى لعثمان بعد ما بويع فقال :

« أما بعد ، فانى قد حملت وقد قبلت ، ألا وأنى لتبع لست مبتدع الا وان لكم على بعد كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ثلاثا :

اتباع من كان قبلى فيما اجتمعتم عليه وسننتم ، وسن سنة أهل الخير فيما لم تسنوا عن ملأ . والكف عنكم الا فيما استوجبتم ، ألا فان الدنيا خضرة قد شهيت الى الناس ، ومال اليها كثير منهم ، فلا تركنوا الى الدنيا ولا تثقوا بها ، فانها ليست بثقة ، واعلموا أنها غير تاركة الا من تركها (٢) .

ويقول البعض أنه لما بويع عثمان خرج الى الناس وأراد أن يخطبهم فارتج كما سبق أن ذكرنا ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« أيها الناس ان أول مركب صعب ، وان بعد اليوم أياما ، وان أعش تأتكم الخطبة على وجهها وما كنا خطباء وسيعلمنا الله . » (٣)

ولم تتضمن هذه الخطب أية اشارة للسياسة المالية ، مع أن الخطب الأولى لمن يلون أمر الأمم تنبىء الشعب بالسياسة العامة ومنها السياسة المالية التى نوى ولى الأمر تطبيقها غير أنه فيما بعد وجه عثمان رضى الله عنه كتابا الى الولاة وكتابا آخر الى عمال الخراج وأذاع كتابا على العامة هذه نصوصها .

كتاب عثمان بن عفان الى الولاة :

« أما بعد ، فان الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم اليهم أن يكونوا جباة وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة ، فاذا عادوا كذلك انقطع الحياء والامانة والوفاء بما عليهم ، ثم تثنوا بالأمة فتعطوهم الذى لهم وتأخذوهم بالذى عليهم ثم العدو الذى ينتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء (٤) .

كتاب عثمان الى عمال الخراج :

(١) الطبرى مرجع سابق ٢٤٣ .

(٢) الطبرى مرجع سابق ص ٤٢٢ .

(٣) عثمان ذو النورين ــ محمد رضا ــ ص ٣٣

(٤) الطبرى جزء ــ ٤ ــ ص ٢٤٥ طبعة دار المعارف ــ الطبعة الرابعة .

وكتب عثمان الى عمال الخراج يقول « أما بعد فان الله خلق ، الخلق بالحق فلا يقبل الا الحق ، خذوا الحق وأعطوا الحق به . والأمانة ، الأمانة ، قوموا عليها ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم الى ما اكتسبتم ، والوفاء ، الوفاء لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد، فان الله خصم لمن ظلمهم » (١) .

كتاب عثمان الى العامة :

وأذاع عثمان الى العامة كتابا ، قال فيه :

« أما بعد ، فانكم انما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع ، فلا تلفتنكم الدنيا عن أمركم ، فان أمر هذه الأمة صائر الى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم : تكامل النعم ، وبلوغ أولادكم من السبايا ، وقراءة الاعراب والاعاجم القرآن . وقد قال رسول رسول الله :

(الكفر في العجمة) فاذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا (٢) .

تحليل ما ورد بكتب عثمان السابقة خاصا بالسياسة المالية :

تضمن كتاب عثمان للولاة فيما يتعلق بالمسائل المالية ما يلى :

ـ أن يكون الولاة رعاة ولا يكونوا جباة .

ـ اعطاء المسلمين مالهم وأخذ ما عليهم فيما يتعلق بالأموال العامة.

ـ اعطاء أهل الذمة مالهم وأخذ ما عليهم فيما يتعلق بالأموال العامة .

وتضمن كتاب عثمان لعمال الخراج المسائل التالية :

ـ أخذ الأموال العامة بالحق واعطائها بالحق .

ـ التخلق بالأمانة في التعامل بالمال العام .

ـ التخلق بالوفاء سواء لبيت المال أو للممول .

ـ عدم ظلم اليتيم في مسائل المالية العامة .

ـ عدم ظلم المعاهد في علاقاته المالية مع الدولة .

وتضمن كتاب عثمان بن عفان رضى الله عنه للعامة حقيقة لها علاقة بالمسائل المالية وهى :

ـ تكامل النعم يؤدى للابتداع .

ومما يلاحظ على ما تضمنته الكتب السابقة أن بعض ما ورد بكتاب عثمان للولاة تكرر فى كتابه لعمال الخراج كتطبيق الحق فى الأخذ وتطبيقه فى العطاء وعدم ظلم أهل الذمة .

(١ ، ٢) الطبرى جزء ٤ ص ٢٤٥ طبعة دار المعارف ـ الطبعة الرابعة

ويلاحظ كذلك أن كتبه لم تتضمن عزمه على تطبيق سياسة مالية عامة اسلامية وهذه لها مقومات تختلف عن السياسات المالية غير الاسلامية وهو أمر مفترض التطبيق ولا يحتاج من خلفاء المسلمين الى تنويه عندما يعلنون سياستهم المالية لأنهم يحكمون تحت راية الاسلام ٠

السياسة المالية المعلنة لعثمان بن عفان :

وفى ضوء ما سبق تكون عناصر السياسة المالية العامة التى أعلنها ثالث الخلفاء الراشدين قامت على الأسس العامة التالية :

- تطبيق سياسة مالية عامة اسلامية ٠
- عدم اخلال الجباية بالرعاية ٠
- أخذ ما على المسلمين بالحق لبيت مال المسلمين ٠
- اعطاء المسلمين ما لهم من بيت المال بالحق ٠
- أخذ ما على أهل الذمة لبيت مال المسلمين بالحق واعطائهم مالهم وعدم ظلمهم ٠
- تخلق عمال الخراج بالأمانة والوفاء ٠
- تفادى أية انحرافات مالية يسفر عنها تكامل النعم لدى العامة٠

ونناقش فيما يلى هذه الأسس :

الأساس الأول : نية عثمان بن عفان تطبيق سياسة مالية عامة اسلامية :

من البديهى أن الخليفة الثالث عثمان بن عفان نوى أن يطبق سياسة مالية عامة اسلامية وان لم يعلن عن ذلك صراحة ، وكان ذلك أمرا لا ريب فيه ، فقد بويع رضى الله عنه على أساس تطبيق حكم الله وسنة رسوله وان ينهج نهج الخليفتين قبله ٠

وتطبيق حكم الله يلزم من يلى أمر المسلمين ، أن يتخذ القرآن دستورا ، فالقرآن تتضمن آياته نصوصا خاصة بالمالية العامة ، فالزكاة والجزية وخمس الغنائم وهى من الايرادات العامة للمالية الاسلامية تستند الى آيات فى القرآن الكريم والانفاق العام من الزكاة وخمس الغنائم تحدد كذلك بنصوص القرآن ٠

وقد طبق أبو بكر الصديق رضى الله عنه ما نزل به القرآن الكريم وما سنه الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل ان أبا بكر كما نوهنا سابقا قاتل الممتنعين عن أداء الزكاة ٠

وطبق عمر بن الخطاب كذلك المالية العامة الاسلامية ونظم قواعدها وأرسى مبادئها وزاد مواردها ورشد انفاقها ، ومما يجزم بنية التطبيق لدى عثمان وان لم يعلن عنها شواهد أخرى نوهنا عنها عن مناقب عثمان قبل مبايعته وهى أنه صحابى جليل كان من السابقين الى الاسلام ، ذو صلات عديدة بالرسول صلى الله عليه وسلم وكان كاتب الوحى وتطوع بماله الخاص فى سبيل دعوة الاسلام وقضاء حاجات المسلمين وتفريج عسرهم •

وأهمية تطبيق المالية العامة الاسلامية أنها تنفذ حكم الله فى الأرض فالأغنياء يدفعون الزكاة سنويا لبيت المال وبيت المال يوزعها على الفقراء والمساكين ، وأهل الكتاب يدفعون الجزية لبيت مال الدولة الاسلامية وبذلك يدخلون فى ذمتها نحميهم وتوفر لهم الأمان وتضفى عليهم سائر خدماتها العامة ، والمحاربون المسلمون يحاربون لنشر دعوة الاسلام ، ويحقق الله لهم النصر ويغنمون أموال الأعداء ، فيرسلون خمسها بالحق لبيت مال المسلمين ويقوم بيت المال بتوزيعها على اليتامى والمساكين وأبناء السبيل وغيرها من وجوه الانفاق طبقا لآية الخمس •

وبذلك تتميز المالية العامة الاسلامية بأنها مرتبطة بالاسلام تطبق تعاليمه وتحمى ايراداته ويساند الانفاق العام فيها نشر راية الاسلام وخير المسلمين •

وهى مرشدة الانفاق العام لأن تعاليم الاسلام تمنع الاسراف وتحاربه والله لا يحب المسرفين ، وهى مرشدة الادارة لأن السفهاء وهم من لا يجيدون ادارة الأموال ممنوعون بنص القرآن من أن يؤتوا المال عموما سواءا كان عاما أو خاصا •

وهى مالية عامة خيرة لأن بعض مواردها العامة توجه للبنية الضعيفة من الرعية •

وهى مالية عامة نقية من الدنس ولا تتضمن مواردها كسبا من حرام لأن الله لا يبارك الكسب الحرام فلا تتضمن ايراداتها مثلا ايرادا من انتاج خمر أو بيعه أو من ادارة بيوت للمراهنات أو الميسر أو ايرادات من فوائد ربوية عن قروض قدمتها الدولة للغير ، وهى مالية عادة ثواب المسلمين فيها مزدوج ، فلا يدفعون الفرائض المالية لبيت المال لخدمات عامة تعود عليهم فقط بل يبغون أيضا ثواب الله فى الدنيا والآخرة ، فمن يدفع الزكاة يؤدى فريضة الله التى هى فى نفس الوقت فريضة الدولة تؤول لبيت مال المسلمين ، فهناك توافق اذا بين ما أمر به الله وما تطلبه الدولة •

الأساس الثاني : عدم اخلال الجباية بالرعاية :

ينبه عثمان بن عفان رضى الله عنه فى كتابه للولاة أن جباية أموال بيت المال كادت تطغى على الواجب الأول للولاة وهو رعاية الرعية ، ذلك أن الجباية احدى واجبات الرعاية المكلف بها رئيس الدولة الاسلامية ، فلا يصح أن تطغى على سائر الواجبات ، وقد حدد الفقهاء تكاليف الرعاية أى واجبات الأمة لتحقيق رعاية الشعب كما يلى :

فيقول أحدهم (١) : ويلزم الامام من أمور الأمة عشرة أشياء

ـ « حفظ الدين على الأصول التى أجمع عليها سلف الأمة .. ليكون الدين محروسا من الخلل والأمة ممنوعة من الزلل » .

ويختص به حديثا مرفق التعليم والخدمات الدينية وذلك بتعليم علوم الدين ونشرها .

ـ « تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين وقطع الخصام بينهم ، حتى تظهر النصفة فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم » .

وهذا يتولاه حديثا مرفق العدالة من محاكم وقضاة وسائر ادارات وزارات العدل .

ـ « حماية البيضة والذب عن الحوزة ، لينصرف الناس فى المعايش وينتشروا فى الاسفار آمنين » .

وهذا يقوم به حديثا مرفق الشرطة والأمن الداخلى .

ـ « اقامة الحدود لتصان محارم الله عن الانتهاك وتحفظ حقوق عباده عن اتلاف واستهلاك » .

وهذا يقوم به حديثا مرفق العدالة الذى ينبغى أن يطبق أحكام الشريعة الاسلامية .

ـ « تحصين الثغور بالقوة المانعة والقوة الدافعة ، حتى لا يظفر الأعداء بثغرة ينهكون بها محرما ويسفكون فيها دماء مسلم أو معاهد » . وهذا يقوم به حديثا مرفق الدفاع والحرب .

ـ « جهاد من عاند الاسلام بعد الدعوة حتى يسلم أو يدخل فى الذمة » . والمفروض أن يقوم به حاليا مرفق الدفاع والحرب .

---

(١) النظم الاسلامية ـ الجزء الثانى ـ تاليف د. محمد عبد الله العربى ص ٦٩ وقد نقل هذه التكاليف عن ابو يعلى فى الأحكام السلطانية .

ـ « جباية الفيء والصدقات على ما أوجبه الشرع نصا واجتهادا من غير عسف » . وتقوم به حاليا مصالح الايراد بالدولة وتتبع عادة وزارات المالية أو الخزانة .

ـ « تقدير العطاء وما يستحق فى بيت المال من غير سرف ولا تقصير فيه فى وقت لا تقديم فيه ولا تأخير » .

وتقوم به حاليا وزارات المالية أو الخزانة .

ـ « استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء فيما يفوضـه اليهم رئيس الدولة من الأعمال ويكله اليهم من الأمـوال لتكون الأمـوال محفوظة والأعمال مضبوطة » .

وحديثا يتولى ذلك وزارات وأجهزة العمل والعاملين .

ـ « أن يباشر الامام بنفسه مشارفة الأمور وتصفح الأحوال ليهتم بسياسة الأمة وحراسة الملة ، ولا يعول على التفويض تشاغلا بلذة أو عبادة ، فقد يخون الأمين ويغش الناصح ـ وقد قال تعالى :.

« يا داوود انا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى » (ص/٢٦) .

ويقوم بذلك حاليا رئيس الدولة ويتبعه مرفق الرئاسة .

ـ اعداد موازنة عامة حديثا يتوضح بها تكاليف الرعاية

هذه هى تكاليف الرعاية كما يوردها الفقهاء ، وهى قابلة للتطوير بما يلائم تطور الأزمان والعصور بحيث لا يخالف التطوير نصا من نصوص القرآن أو حكما من أحكام الدين .

وحديثا تعد كل دولة موازنة عامة سنوية يتوضح بها أنشطة الدولة نشاطا نشاطا وما قدر لكل نشاط من اعتمادات توجه للانفاق العام على أدائه خلال السنة المالية ، كما تتضمن الموازنة العامة بيانا بتقديرات الايرادات العامة المنتظر جبايتها خلال السنة المالية .

وتوزع الاعتمادات على مرافق الدولة المختلفة وأنشـطتها طبقـا لأولويات معينة وفى ضوء أهميتها فى المدة المعدة عنها الموازنة العـامة وبذلك لا يخل نشاط للدولة بنشاط آخر لها وبذلك تقوم الدولة ببعض تكاليف الرعاية التى حدث بها الرسول صلى الله عليه وسلم فى حديثه السابق عن الرعاية .

الأساس الثالث : أخذ ما على المسلمين بالحق لبيت مال المسلمين :

عمال الخراج نواب عن الدولة فى استئداء حقوق بيت المال ، فاذا أخذوا ما على المسلمين بالحق أدوا واجبهم المنوط بهم . واذا غالوا فى جباية حقوق بيت المال ، ظلموا المولين وألحقوا بهم الضرر وحملوهم فوق ما يطيقون والرسول صلى الله عليه وسلم يحذر من المغالاة فى استئداء حقوق بيت المال كما يتضح مما يلى :

- نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن جباية كرائم الأموال فى الزكاة

جباية كرائم الأموال فى الزكاة لا يساير الحق الذى يجب على عامل الخراج اتباعه عند استئداء حقوق بيت المال ، ذلك لأن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم نهى عنه أكثر من مرة ، بسبب أن أخذ كرائم الأموال غبن لصاحب المال والغبن لا يقره الشرع ولأنه ينفر أصحاب الأموال من اخراج الزكاة ، وفى ذلك مضيعة للفقراء والمساكين ، فقضت عدالة الاسلام أن تؤخذ الزكاة من أوساط الأموال لا من كرائمها ولا من أدناها ، وأحاديث الرسول على الله عليه وسلم فى ذلك كثيرة نورد منها ما يلى :

عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذا الى اليمن فقال :

« انك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم اليه عبادة الله تعالى ، فاذا عرفوا الله تعالى فأخبرهم أن الله تعالى فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم ، فان هم أطاعوا لذلك فخذ منهم وتوق كرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فانها ليس بينهـا وبين الله حجاب » (١) .

وعن سعر بن ديسم الكنانى الديلى ، عن مصدقى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهما قالا : نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نأخذ شافعا والشافع التى فى بطنها ولدها .

وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشافع لأن الشافع من كرائم الأموال (٢) .

عن صنابح بن الأعسر الصنابحى - رضى الله عنه قال :

---

(١) اخرجه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى - ورد فى كتاب المنتخب من السنة المجلد السادس - طبعة المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

(٢) الحديث أخرجه الامام أحمد وأبو داوود والنسائى وأخرجه أيضا الطبرانى وقد ورد فى كتاب المنتخب من السنة - الجزء السادس - ص ٢٢٠ طبعة المجلس الأعلى للشـــئون الاسلامية .

رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فى ابل الصدقة ناقة مسنة فغضب ، وقال : ما هذه ؟

فقال : يا رسول الله انى ارتجعتها ببعيرين من حاشية الصدقة فسكت (١) .

وقد غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن الناقة المسنة من كرائم الأموال ، فلما أوضح له المصدق أنه أخذها بدلا من بعيرين من حاشية الصدقة وجبا على صاحب الأموال أقره رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك حيث لم يجاوز المصدق أمره صلى الله عليه وسلم بعدم الأخذ من كرائم الأموال .

ـ أمر الرسول الكريم بالتخفيف فى استئداء زكاة الثمر

جباية زكاة الثمار على أساس قيمة المحصول بالكامل يجافى الحق الواجب على جابى الزكاة تطبيقه ، لأن هذه المحاصيل تتعرض للنقصان بسبب أكل أصحابها منها ولما يهبونه منها للغير وبسبب أكل المارة وحيواناتهم ، ولذلك أمر الرسول صلى الله عليه وسلم المصدقين أن يخففوا فى استئداء زكاة الثمار لأن المحصول يتعرض للنقصان بسبب العرية وهى نخلات يهبها رب المال لشخص يجنى ثمارها ـ أو بسبب الواطئة ـ وهم المارة فى الطريق وقد سموا بذلك لوطئهم بلاد الثمار مجتازين ـ أو بسبب الآكلة ـ وهم من يأكلون من الثمار وهم أرباب الثمار وعمالهم وأقاربهم وجيرانهم .

فقد روى أبو عبيد باسناده عن مكحول قال :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا بعث الخراص قال :

« خففوا على الناس ، فان فى المال العرية والواطئة والآكلة » (٢) .

وقد أوضح الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم كذلك مقدار هذا التخفيف فعلى الخارص أن يترك ثلث أو ربع الخرص توسعه على أرباب الأموال لأنهم يحتاجون الى الأكل هم وأضيافهم ويطعمون جيرانهم وأهليهم وأصدقاءهم ، فان استوفى العامل الكل منهم أضر بهم ولا ضرر ولا ضرار فى الاسلام .

واذا كان المتروك بين الربع والثلث فان المرجع فى ذلك الى المصدق باجتهاده فان رأى الآكلة كثيرا ترك الثلث وان كانوا قليلا ترك الربع .

---

(١) الحديث أخرجه الامام أحمد فى مسنده ـ مرجع سابق ـ ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .
(٢) الأموال لأبى عبيد ، ص ٥٨٦ .

فعن سهل بن أبى حثمة رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« اذا خرصتم فجذوا (١) ودعوا الثلث (٢) فان لم تجذوا أو تدعوا فدعوا الربع » (٣) ٠

الأساس الرابع : اعطاء المسلمين ما لهم من بيت المال بالحق :

عطاء بيت المال للمسلمين اما أن يكون مباشرا كصرف الزكاة للمستحقين لها وما يقضى به نظام الأعطيات من توزيع فائض الأموال على المسلمين أو يكون العطاء العام غير مباشر يتمثل فى الخدمات العامة التى تؤديها الدولة للرعية وهذه ينفق عليها من بيت مال المسلمين ٠

وفى كلا العطاءين ينبغى أن يتسم العطاء بالحق ٠ فلا يجوز فى العطاء المباشر أن تخالف الأسس التى تحددت لوضعه محاباة لبعض الأفراد أو حرمانا أو نقصانا للبعض الآخر دون مبرر ولا يجوز أن يتأخر العطاء عن موعده بسبب تعقد الاجراءات أو كثرة الحجب التى تحجب أرباب الظلامات عن الوصول لمن بيدهم أمر العطاء لبحث ظلاماتهم من تأخير العطاء أو قلته أو عدم وصوله اليهم ، ولا يجوز فى العطاء غير المباشر المتمثل فى الخدمات العامة التى تؤديها الدولة للشعب أن تكون لمنفعة فرد معين بل يجب أن يعود نفعها على الأمة جمعاء ٠

الأساس الخامس : عدم ظلم أهل الذمة وأخذ ما عليهم لبيت المال بالحق واعطائهم حقوقهم بالحق كذلك :

لا يجوز ظلم أهل الكتاب عند استئداء الجزية منهم لان أهل الكتاب من الذميين الذين يقيمون فى الدولة الاسلامية وهم فى ذمتها ورعايتها ماداموا يؤدون الجزية وقد أوصى بهم برسول الله صلى الله عليه وسلم فقد ولى عبد الله بن أرقم على جزية أهل الذمة ، فلما ولى من عنده ناداه فقال « ألا من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته أو انتقصه أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة » (٤) ٠

استنادا لذلك فقد أوصى بهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين موته فقال :

---

(١) جذوا : أى اقطعوا ٠
(٢) دعوا الثلث : أى اتركوه ٠
(٣) الخراج لأبى يوسف ص ١٢٥ ٠
(٤) المنتخب من السنة ـ مرجع سابق ـ ص ٢٦١ ٠

« أوصى الخليفة من بعدى بأهل الذمة خيرا ، أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم وأن لا يكلفوا فوق طاقتهم » (١) .

فاذا آذى عمال الجزية الذميين أو كلفوهم فوق طاقتهم أو عذبوهم أو أخذوا الجزية من الشيخ الكبير الذى لا شىء له ولا يستطيع العمل أو أخذوها من الذمى الذى أسلم كان هذا لونا من ألوان الظلم الذى نبه الخليفة الثالث فى كتابه عمال الخراج بعدم ارتكابه مستندا فى ذلك لتعاليم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم .

هذا وعــلاوة على الجزية يؤدى أهل الذمة الذين يزرعون أرض الخراج وهى التى آلت للدولة الاسلامية كغنيمة نتيجة للفتح الاسلامى ما يستحق عليها من خراج لبيت مال المسلمين ويجب أن يراعى عمــال الخراج الحق فى تحديد قيمته المستحقة على الأرض التى يزرعها أهــل الذمة ، وذلك بمراعاة العوامل التى تحكم تحديده لان اغفالها كلها أو بعضها يوقع الظلم بأهل الذمة الذين يزرعونها وهذه العوامل أربع وهى :

احدها : ما يختص بالأرض من جودة يزكو بها زرعها أو رداءة يقل بها ريعها .

الثانى : ما يختص بالزرع من اختلاف أنواعه من الحبوب والثمار فمنها ما يكثر ثمنه ومنها ما يقل ثمنه فيكون الخراج بحسبه .

والثالث : ما يختص بالسقى والشرب لان ما التزم المئــونة فى سقية النواضح والدوالى لا يحتمل من الخراج ما يحتمله سقى السيوح والأمطار .

والرابع : أن لا يستقصى فى وضع الخراج غاية ما تحتمله ليجعل فيها لأرباب الأرض بقية يجبرون بها فى النوائب والجوائح (٢) .

هذا واذا كانت الدولة الاسلامية قد أبرمت عهدا أو عقدت صلحا مع أهل الكتاب فواجب الدولة الاسلامية وعمال خراجها أن يلتزموا بما ورد بها من شروط ومنها الشروط التى تحدد قيمة ما يدفعونه من جزية أو خراج ، لان المسلمين اذ أبرموا عقدا أو عهدوا عهدا التزموا بالوفاء بالعقود والعهود .

---

(١) الخراج لأبى يوسف ص ١٢٥ .

(٢) مقال عن الموارد المالية فى الاسلام بقلم فضيلة الشيخ عبد الرحمن حسن منشور بالجزء الثانى من بحوث مؤتمر مجمع البحوث الاسلامية .

الأساس السادس : عدم ظلم اليتيم :

لليتيم حقوق فى المال العام بنصوص القرآن الكريم فهو من المستحقين لأموال الزكاة ان كان فقيرا تطبيقا لقول الله سبحانه وتعالى :

« انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » (التوبة / ٦٠) .

ولليتيم نصيب فى خمس الغنائم تطبيقا لقوله جل وعلا :

« واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » (الأنفال / ٤١) .

ولليتيم نصيب فى عطاء بيت المال فقد كان يفرض للأطفال عموما ومنهم يتامى الأطفال .

واليتيم هو من مات أبوه قبل البلوغ ، وقد سئل بن عباس عن اليتيم متى ينقطع عنه اسم اليتيم فأجاب :

« أما اليتيم اذا احتلم وأونس منه الرشد فقد انقطع عنه اليتم » (١) .

واذا كان اليتيم غنيا فيؤدى الزكاة المفروضة على أمواله اذا توفرت شروطها تطبيقا لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم :

« ابتغوا بمال اليتيم لا تذهبها الزكاة » (٢) .

وواجب المصدق أن يأخذ الزكاة بالحق والعدل حتى لا يذهب ظلمه بمال اليتيم أو جزء منه بغير وجه حق .

الأساس السابع : تخلق عمال الخراج بالأمانة والوفاء :

يطالب الخليفة الثالث عمال الخراج أن يتحلوا بالأمانة وهى صفة لازمة لجميع من يشتغلون بالأموال العامة ، واذا لم تتوفر فيهم هذه

---

(١) مقال « الموارد المالية فى الاسلام » لفضيلة الشيخ عبد الرحمن حسن ـ نشر بالجزء الثانى من مجلدات مؤتمر البحوث الاسلامية .

(٢) الأموال لأبى عبيد ص ٥٤٨ ومعنى الحديث أن مال اليتيم ينبغى أن يستثمر حتى لا تأخذ الزكاة جزءا منه كل عام فتفنيه .

الصفة جاروا على حقوق بيت المال وجاروا على الممولين ، وانتكست العلاقة بين بيت المال والممولين ، والقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة تنبه وتحض على التزام الأمانة :

فيقول الله تعالى :

« ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها » (النساء / ٥٨) ·

« لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم » (الأنفال / ٢٧) ·

« والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » (المؤمنون / ٨) ·

وعن أبى موسى الأشعرى يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ان الخازن المسلم الأمين الذى يعطى ما أمر به كاملا موفورا ، طيبة به نفسه حتى يدفعه الى الذى أمر له به ، أحد المتصدقين » (١) ·

وعن بريدة الاسلمى رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« من استعملناه على عمل فرزقناه رزقا فما أخذ بعد فهو غلول » (٢) ·

ويطالب الخليفة عثمان كذلك عمال الخراج بأن يتحلوا بالوفاء ، وقد ورد الوفاء مطلقا فى كتاب الخليفة فيشمل الوفاء لبيت المال بمراعاة استئداء كامل حقوقه من الرعية والوفاء للممولين بعدم ظلمهم بالمغالاة فى تحديد الفرائض المالية المطلوبة منهم والوفاء لاهل الذمة بالرفق وحسن المعاملة وتطبيق ما تضمنته شروط الصلح معهم من جزية وخراج دون زيادة ·

الأساس الثامن : أثر تكامل النعم على مسار الأمة :

لم يرد عثمان بن عفان رضى الله عنه أن يترك العامة دون تبصير فحذرهم من أن تجذبهم الدنيا الى ملاذها ومتاعها وخشى أن أمر الأمة صائر الى الابتداع بعد أن توفرت لهم ثلاث : وهى تكامل النعم ، وبلوغ أولاد السبايا وقراءة الأعاجم القرآن ·

---

(١) المنتخب من السنة النبوية الشريفة عدد ٣٦ المجلد الثانى ، ص ١٠٠٠ ، ١٠٠١ هدية منبر الاسلام ·

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٠٢ ·

فعثمان بن عفان أدرك أن تكامل النعم لدى البعض سيميل بأولى النعم عن المسار السليم ، لان تكامل النعمة بزيادة الأموال لدى أفراد الرعية قد يفسدهم بسبب ما ينفقونه على الترف والملذات ٠

والله تعالى يقول :

« واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » (الاسراء / ١٦) ٠

سياسة عثمان المعلنة تشابه سياسة عمر المعلنة :

هذا هو تحليل للسياسة المالية التى أعلنها عثمان بن عفان وهى عموما تكاد تتفق مع السياسة المالية العامة التى أعلنها سلفه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حين ولى أمر المسلمين ، فقد أعلن وقتئذ :

« أن المال العام لا يصلحه الا خلال ثلاث ، أن يؤخذ بالحق ويعطى فى الحق ويمنع من الباطل » (١) ٠

ألا ترى أن السياستين تنبعان من مشكاة واحدة وهى مشكاة الاسلام ومبادئه ٠

غير أنه مما يلاحظ على سياسة عثمان بن عفان المعلنة أنها لم تعرض على الصحابة لاستشارتهم فيها ولم تستوف بعض النقاط العامة السابق التنويه عنها فى نهاية الباب السابق كى تتمكن السياسة المالية من مقابلة بعض التحديات التى سبقت عهد عثمان بن عفان ، على أن الأمر فى هذا الشأن يتوقف على تنفيذ السياسة المالية وما اذا كان روعى فى تطبيقها تفادى تأثير تلك التحديات من عدمه ، وهو ما سنتبينه فى الأبواب التالية ٠

(١) السياسة المالية لعمر بن الخطاب ـ تأليف قطب ابراهيم محمد ص ٢٣ ومابعدها ٠

الفصل الثانى

تنفيذ السياسة المالية الاسلامية فى عهد عثمـــان بن عفـــان

تصور موازنات عامة للمالية العامة فى عهد عثمان :

فى المالية العامة الحديثة تكون الموازنة العامة للدولة ركنا هاما من أركان سياستها المالية لان الموازنة العـامة تشمل فى جانب منها بيانا بالايرادات العامة للدولة وفى الجانب الآخر بيانا بنفقاتها العامة والايرادات تحصل من موارد محددة تصدر بها قوانين تحدد فرضها والخاضعين لها وكيفية تحديد أوعيتها والفئات التى تستقطع من هذه الأوعية وطرق تحصيلها ، والنفقات العامة تنفق على أغراض مقررة وفى حدود اعتمادات محددة وفى ظل نظم وقوانين ولوائح تضبط الانفاق وتراقبه وترشده ٠

ولم تعرف الموازنة العامة الا فى القرن الثامن عشر ، فلم يكن الفن المالى فى عهد الخليفة عثمان بن عفان ولا فى عهد غيره من رؤساء الدول الأخرى غير الاسلامية فى ذلك الوقت قد تطور نحو اعداد الموازنة العامة للدولة ٠

غير أن المتأمل فى النظـام المالى الاســلامى يلحظ أنه اشتمل على العناصر والمقومات التى تمكن من اعداد هذه الموازنة وتحقق أهدافها ٠

فالنظام المالى الاسلامى نظام متكامل له ايراداته العامة على النحو الذى ذكرنا وله نفقاته العامة وبذلك شمل على جانبى الموازنة العامة للدولة وكان يراعى التوازن المالى فى عهد الخلفاء الراشدين وغيرهم وذلك بأن يكون الانفاق العام فى حدود الموارد العامة بل ان النظام المالى الاسلامى حقق فائضا مكن من توزيع أعطيات على المسلمين كما سبق أن ذكرنا ٠

والموارد والنفقـات العـامة فى الاسلام يحكمهـا القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة أو الأثنين معـا ، فالزكاة كما ذكرنا مفروضة بالقرآن وكذا وجوه انفاقها ويعزز تفاصيلهـا ماطبقه الرسـول الكريم

صلى الله عليـه وسلم . وكذلك خمس الغنـائم حدد القرآن وتطبيقات الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ايراداتها ووجوه انفاقها ، والجزية فرضت بالقرآن الكريم وطبقها الرسول صلى الله عليه وسلم بكتبه التى كان يرسلها للملوك يدعوهم للاسـلام أو الجزية وكان يراعى التيسير والعدل فى استئدائها من أهل الكتاب ، وكان تطبيق الرسول صلى الله عليه وسلم لها مرشدا لخلفاء الاسلام وولاة الدولة الاسـلامية من بعد الرسول صلى الله عليه وسلم ، والخراج وعشور التجارة فرضا فى اطار الشـورى التى تعتبر فى الاسـلام دعامة هامة من دعامات السياسات العامة ومنهـا السياسة المـالية .

اذا ففى الاسلام اطار قرآنى وسنن رسـول كريم تحيط بحركة المالية العامة وتوجه مسارها كل هذا يدعونا فى مناقشتنـا للسياسة المالية المنفذة والمطبقة فى عهد عثمان بن عفان أن نقدم بحث هذه السياسة بتصور موازنة عامة فى سنة مالية من سنـوات عهده تشمل ايرادات الدولة الاسلامية ونفقاتها العامة .

ومسايرة للنهج المـالى الاسلامى ولما يستلزمه من تخصيص بعض الايرادات العـامة لوجوه انفاق محـددة ، فان الموازنة العـامة للدولة الاسلامية تتكون من أربع موازنات عامة ثلاث منهـا تخصص ايراداتها للانفاق على وجوه انفاق محددة والرابعة عامة ينفق منهـا على جميع وجوه الانفاق العام للدولة ، وهى :

الموازنة العـامة للزكاة :

وايراداتها العامة من منحصلات الزكاة وأوجه نفقاتها العامة محددة بالقرآن وهى للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل .

موازنة الضـوائع :

وهى موازنة عارضـة بطبيعتهـا لأن مواردها عارضـة مصدرها الضـوائع وتركات من لا وارث له وينفق منهـا على الفقراء فهى بذلك تتضامن مع موازنة الزكاة فى تمويل حاجات الفقراء .

الموازنة العـامة لخمس الغنائم :

وايراداتها العامة من خمس الغنائم الذى يؤول لبيت المـال وينفق فى وجوه حددها القرآن الكريم وهى للرسـول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل .

الموازنة العـامة للجزية والخراج وعشـور التجارة :

وتكون مواردها من الجزية وأموال الخراج وعشور التجارة ويمثل جانب النفقات فيهـا كل ما ينفق على المصـالح العامة كرواتب الخلفاء والولاة والقضاة والجند ونفقات ادارة مرافق الدولة الاسلامية واعانات ومعاشات رجال الاسلام وما ينفق على المشروعات العامة كاقامة المساجد وحفر الآبار واقامة الجسور وغيرها ٠

وقد جرت العادة فى الموازنات العامة الحديثة أن تقسم ايرادات الموازنة ونفقاتها الى أبواب ، وتطبيقـا لذلك يمـكن تقسـيم الايرادات العامة للدولة الاسلامية ونفقاتها العـامة الى الأبواب التالية :

يمكن أن نقسم الايرادات العامة للدولة الاسلامية في عهد عثمان بن عفان الى الأبواب التالية :

باب (١) أيرادات الزكاة ٠

باب (٢) ايرادات خمس الغنـائم ٠

باب (٣) ايرادات الجزية ٠

باب (٤) ايرادات الخراج ٠

باب (٥) ايرادات عشور التجـارة ٠

باب (٦) ايرادات عارضـة من الضـوائع وتركات من لا وارث لهم ٠

ويمكن أن نقسم النفقات العامة للدولة الاسلامية من حيث طبيعتها الى الأبواب التالية :

باب (١) ويشتمل جميع مايعطى للعاملين بالدولة الاسلامية كرواتب الخلفاء والولاة والقضاة والجند ٠

باب (٢) ويشمل النفقات الجارية خلاف ماسبق فى الباب الأول اللازمة لادارة الدولة والمعاشات التى تعطى للفقراء والمساكين والمؤلفة قلوبهم والغارمين وفى سبيل الله والأعطيات التى تتقرر لرجال الاسلام من غير العاملين بالدولة ٠

باب (٣) ويشمل ماينفق على المشروعات العامة التى تقوم بها الدولة لبنـاء المساجد أو توسعتها وحفـر الآبار وغيرها ٠

وفى ضوء ماسبق نناقش فيما يلى تنفيـذ المـالية العامة فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه عن طريق :

- تصوير وتنفيذ موازنة الزكاة .

- تصوير وتنفيذ موازنة الضوائع باعتبار أن مواردها مخصصة للفقراء فتتشابه مع الزكاة فى الانفاق عليهم .

- تصوير وتنفيذ موازنة خمس الغنـائم .

- تصوير وتنفيذ موازنة الجزية والخراج وعشـــور التجارة وهى تقابل الموازنة العامة فى النظم المـالية الحديثة .

وسيشمل هذا الفصل مناقشة الثلاث موازنات الأولى وذلك على النحو التـــالى :

تصوير وتنفيذ موازنة الزكاة فى عهد
عثمــان بن عفــان

تصور موازنة عامة للزكاة فى عهد عثمان بن عفان :

فى ضوء ماسبق يمكن تصور موازنة عامة للزكاة فى عهد الخليفة الثالث على النحو التالى :

الموازنة العــامة للزكاة فى عهــد الخليفة
عثمــان بن عفان عن السنة المــالية

المبلــغ	الايرادات العــــامة	المبلــغ	النفقــات العــــامة
دينار		دينار	
٠٠٠	باب (١) ايردات الزكاة	٠٠٠	باب (١) رواتب العاملين عليها
			باب (٢) نفقات جارية وتشمل اعانات :
		٠٠٠	الفقراء
		٠٠٠	المساكين
		٠٠٠	المؤلفة قلوبهـم
		٠٠٠	فى الرقاب
		٠٠٠	الغــارمين
		٠٠٠	فى سبيل الله
		٠٠٠	ابن السبيل
٠٠٠	اجمالـــى	٠٠٠	اجمالـــى

ونوضح فيما يلى الأوضاع العامة التى أثارتها تنفيذ وتطبيق الزكاة ايرادا وانفاقا وادارة فى عهد عثمان بن عفان .

عثمان بن عفان يوضح للناس قواعد زكاتهم :

عن ابراهيم بن سعد عن ابن شهاب عن السائب ابن يزيد قال عثمان بن عفان : « هذا شهر زكاتكم فمن كان عليه دين فليؤده حتى تخرجوا زكاة أموالكم . ومن لم تكن عنده لم تطلب منه ، حتى يأتى بها تطوعا ومن أخذ منه حتى يأتى هذا الشهر من قابل .

قال ابراهيم : « أراه يعنى شهر رمضان » (١) .

وقال أبو عبيد : « وقد جاءنا فى بعض الأثر أن هذا الشهر الذى أراده عثمان هو المحرم » (٢) . يؤكد عثمان بن عفان رضى الله عنه بهذا القول المبادىء التالية :

ـ مبدأ سنوية الزكاة اذ يشترط لأداء الزكاة ما عدا زكاة الزروع حولان الحول ويظهر ذلك من قول عثمان أن من أخذ منه لا يؤد زكاة عن أمواله حتى يأتى نفس الشهر فى السنة التالية فلا تتكرر عليه الزكاة فى عام واحد .

ومبدأ السنوية مبدأ مقرر فى المالية الحديثة بالنسبة للضرائب على الايرادات فهى تؤدى سنويا فى التاريخ الذى يحدده قانون الضريبة . وغالبا ما تكون السنة الضريبية لهذا النوع من الضرائب مطابقة للسنة الميلادية .

ـ اذا أخذنا بقول أبو عبيد أن الشهر الذى قصده عثمان بن عفان هو شهر المحرم فكأنه أراد أن تكون السنة المالية الاسلامية مطابقة للسنة الهجرية ، فعلى المسلمين بعد مرور سنة هجرية كاملة على ما لديهم من أموال أن يسددوا ما عليها من زكاة فى أول السنة الهجرية التالية وهو شهر المحرم اذا توفرت شروطها .

ـ ويدعو عثمان بن عفان رضى الله عنه الناس الى حساب وعاء الزكاة ، فيطلب منهم أداء ما عليهم من ديون حتى تؤخذ الزكاة على الباقى ، وهذا يدعو الى مناقشة هل أداء الديون شرط لخصمها من الزكاة ونرى أنه يكفى أن يكون المزكى مدين بالدين لخصمه من وعاء الزكاة ما دام الدين حقيقيا لا تتطرق اليه الصورية .

---

(١) الأموال لأبى عبيد ص ٥٣٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٣٥ .

ويورد أبو عبيد الأقوال التى تؤيد ذلك فيقول :

عن كثير بن هشام عن جعفر بن يرقان عن ميمون ابن مهران قال :

« اذا حلت عليك الزكاة فانظر كل مال لك ثم اطرح منه ما عليك من الدين ثم زك ما بقى » (١) . ولعل عثمان أراد أن يستحث الناس على أداء ما عليهم من ديون وفاء منهم للدائنين وتسهيلا لحساب المال الخاضع للزكاة ، وحتى يقطع بجدية الدين وعدم تطرق الصورية اليه .

- يقول عثمان « ومن لم تكن عنده لم تطلب منه حتى يأتى بها تطوعا » وبذلك يفتح عثمان بن عفان الدعوة الى التطوع ، فقد يرى بعض المسلمين أنه لا يستحق عليهم زكاة ومع ذلك يرون التطوع بأداء صدقات من أموالهم يؤدونها لبيت المال ، فيقبلها منهم ويضمها الى موارد الزكاة وتصرف الدولة منها على نفس مصارف الزكاة ، وهذا يشبه حديثا ما تلجأ اليه بعض الحكومات من دعوة المواطنين الى المساهمة فى بناء مصحة أو معهد أو ملجأ للفقراء والمساكين ، فيبادرون بالتطوع ببعض أموالهم تقربا الى الله وتخفيفا عن فقراء ذوى مسغبة أو مساكين ذوى متربة ، وفى ذلك يقول الله جل وعلا :

« خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم والله سميع عليم » (التوبة / ١٠٣) .

وعن أبى هريرة قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الله يقبل الصدقات ولا يقبل منها الا الطيب ، ويقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم مهرة أو فصيلة حتى أن اللقمة لتصير ملء أحد » (٢) .

وقد يكون قول عثمان « ومن أخذنا منه لم نأخذ منه حتى يأتينا بها تطوعا » ،

انه يقصد أن لا يجبى بيت المال صدقة الذهب والفضة الا اذا أتى بها صاحبها لبيت المال وأما الصدقة التى يكره الناس عليها ويجاهدون على منعها فهى صدقة الماشية والحرث والنخل .

وبذلك يكون عثمان قد ترك لأصحاب الأموال أداء الزكاة على ما يعرف بالأموال الباطنة وهى أموال الذهب والفضة والتجارة ولا يقبلها منهم الا اذا أتى بها صاحبها تطوعا .

---

(١) المرجع السابق ص ٥٣٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٣٧ .

ويقول في ذلك أبو عبيد :

« ألا ترى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان يبعث مصدقيه الى الماشية فيأخذونها من أربابها بالكره منهم والرضا ، وكذلك كانت الأئمة بعده ، وعلى منع صدقة الماشية قاتلهم أبو بكر ، ولم يأت عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا عن أحد بعده أنهم استكرهوا الناس على صدقات الصامت ، الا أن يأتوا بها غير مكرهين وانما هى أماناتهم يؤدونها فعليهم فيها أداء العين والدين لأنها ملك ايمانهم ، وهم مؤتمنون عليها • وأما الماشية فانها حكم يحكم بها عليهم وانما تقع الأحكام فيما بين الناس على الأموال الظـــاهرة وهى فيما بينهم وبين الله على الظـــاهرة والباطنة جميعا » (١) •

وفى هذا تختلف الزكاة عن الضرائب الحالية ، فان الدولة تستأدى ضرائبها عن الأموال الظاهرة والباطنة معا اذا كانت من عناصر الوعاء الخاضع للضريبة ولممثلى الدولة المختصين باستئداء هذه الضرائب حق الاطلاع على كافة الدفاتر والمستندات والأوراق وغيرها التى تمكنهم من تحديد الوعاء الخاضع للضريبة أو تقديره واستئداء الضرائب المستحقة للدولة •

ولعل من نتائج عدم استكراه الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده المسلمين على صدقات الأموال الباطنة ، أنها تترك عمليات حصر المسلم لأمواله الباطنة وتحديد ما عليها من زكاة وأداء هذه الزكاة لضمير المسلم ورقابة الله وحده دون بيت المال وممثليه ، فان أداها المسلم أداء سليما فى ظل رقابة الله بارادته ودون جبر من بيت المال وممثليه زكت نفسه ونقت سريرته وانشرح صدره وطهرت أمواله •

عثمان بن عفان يبدى الرأى فى زكاة دين الدائن :

ــ عن عبد الله بن صالح وابن بكير عن الليث عن ابن شهاب عن السائب بن يزيد أن عثمان كان يقول :

« ان الصدقة تجب فى الدين الذى لو شئت تقاضيته من صاحبه والذى هو ملىء تدعه حياءا أو مصانعه ففيه الصدقة » (٢) •

ــ وعن عثمان رضى الله عنه قال :

(زكه ــ يعنى الدين ــ اذا كان عند الملاء) (٣) •

---

(١) الأموال لأبى عبيد ، ص ٥٣٧ •

(٢) الأموال لأبى عبيد ، ص ٥٣٧ •

(٣) المنتخب من السنة ــ المجلد السادس ــ طبعة المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، ص ٣٠١ •

فمن هذين القولين لعثمان بن عفان يبين أن الصدقة واجبة على الدين للدائن على المدين الملء ويستطيع الدائن أن يحصل من المدين على دينه ولكن يستحى أن يذكر المدين به أو أن الدائن يدع دينه للمدين مصانعة له . والمصانعة تعنى سكوت الدائن عن المطالبة بدينه نظير منفعة يحصل عليها من المدين .

وقد تواترت الأحكام على ذلك .

ـ فعن ابن عباس وابن عمر رضى الله عنهما قالا : (من أسلف مالا فعليه زكاته فى كل عام اذا كان فى ثقة) (١) .

والمعنى أن من كان له دين عند غيره وكان المدين موثوقا به من جهة الغنى والقدرة على سداد الدين وموثوقا به من جهة دينه وأمانته وأنه يخاف الله تعالى ، فلا يجحد الدين ولا يماطله اذا حل وقت سداده ، فمثل هذا الدين كالمال الذى فى يد الشخص وحينئذ يجب عليه أن يزكيه كل عام كما يزكى ماله الذى عنده كل عام (٢) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه سئل عن زكاة المال الغائب .

فقال : اد عن الغائب من المال كما تؤدى عن الشاهد .

فقال له الرجل : اذا يهلك المال .

فقال : هلاك الدين خير من هلاك الدين .

والمال الغائب هو الذى ليس فى قبضة يد صاحبه ولا تحت تصرفه وانما هو عند المدين له والمال المشاهد هو الذى فى قبضة صاحبه وتحت تصرفه .

فابن عباس يرى وجوب زكاة الدين وان أدى ذلك الى هلاك الدين بتوالى ما يؤخذ عليه من زكاة . لأن هلاك المال لا يضير صاحبه فى الآخرة ولكن ضياع الدين سبب فى الخسران والهلاك فى الآخرة لأن أداء الزكاة ركن من أركان الاسلام .

ـ واذا طبقنا الحكم الذى ورد فى هذه الأحاديث على ديون التجارة التى جرى العرف على تقسيمها الى ديون جيدة وديون مشكوك فيها وديون منعدمة ، فان الديون الجيدة التى للتاجر تجب فيها الزكاة والديون

(١ ، ٢) المرجع السابق ، ص ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ .

المنعدمة لا تجب فيها الزكاة والديون المشكوك فيها وهى التى يحتمل تحصيلها أو عدم تحصيلها لظروف أحاطت بالمدين قد يتحقق معها عدم أداء الدين أو قد تزول هذه الظروف ويتحقق الوفاء بالدين ، ففى قول عثمان لا تجب فيها الزكاة لأن شروط الأداء طبقا لما ورد فى حديثه وهو ملاءة المدين غير متوافر فى الدائن ٠

وفى قول ابن عباس تجب فيه الزكاة لأنه لم يشترط ملاءة المدين لأداء الزكاة ٠ على أنه اذا ما زال الشك وتم التيقن من ملاءة المدين أو قويت احتمالات أداء الدين وجبت فيه الزكاة ٠

اقتراض عثمان بن عفان من مصرف الزكاة لمصرف المصالح العامة :

يذكر التاريخ أن عثمان بن عفان أخذ بصفة عامة من أموال الصدقة (١) فأنفق منها فى الحرب وفى غير الحرب على المرافق العامة ٠

فواجهه الناس قائلين : ان لأموال الصدقة مصارف معينة بينها الله فى قوله :

« انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » ٠

والله قد بين هذه المصارف بهذا القصد الذى نص عليه فى أول الآية وبقوله فريضة من الله فلا يجوز للامام أن ينفق من أموال الصدقة الا فى المصارف التى بينها الله عز وجل فى هذه الآية ٠

وقد رد عثمان رضى الله عنه بأنه لم يفعل ذلك الا حين رأى فى أموال الصدقة سعة وحين رأى حاجة الحرب الى مزيد من الأموال ، فاقترض من أموال الصدقة لينفق على الحرب على أن يرد ذلك اذا اتسع المال لرده ، ومن حق الامام أن يقترض من مصرف لمصرف ، لا يخالف بذلك الدين ولا يغير سنة موروثة ما دام مصمما على أن يرد على أموال الصدقة ما أخذ منها ٠

ويجيب المعترضون على عثمان بأن ذلك ليس به بأس من ناحية الدين ولكن الخطأ هو أن يأخذ الامام من مصرف لينفق على مصرف آخر ، فان ذلك يدل على شىء من سوء التدبير المالى ، وعلى اسراف فى أموال الحرب والمرافق الأخرى بانفاقها فى غير احتياط ولا تحفظ ٠

---

(١) الفتنة الكبرى ، طه حسين ، جـ ١ ص ٧٤ وما بعدها ٠

يبين من رد الخليفة عثمان رضى الله عنه أنه لم ينقص من أموال الزكاة بصفة نهائية ، وانما اقترض منها ليردها ثانية ٠

ونرى أن ذلك من حق الامام لا مطعن عليه فى أحكام الدين ولا فى القواعد المتفق عليها فى المالية العامة ، فأما من ناحية الدين فان حالة الحرب حالة من حالات القوة القاهرة التى تبيح مرونة فى المسائل التشريعية وكذلك فى المالية العامة ، فلا يمكن أن تغل يد الخليفة فى الاقتراض من مصرف الى مصر آخر خصوصا فى حالة الحرب ، والا أدى قصور التمويل الى قصور معدات الحرب وأدواتها والحاق الهزيمة بجند المسلمين ٠

ومن المبادىء المسلم بها فى الاسلام أنه يمكن دفع ضرر كبير بضرر صغير فلأن تضييق مصارف الزكاة بصفة مؤقتة نتيجة ما تم اقتراضه منها وهو ضرر مؤقت ان وجد ، خير من أن تنتكس الفتوحات الاسلامية ، وتنتكس الدعوة تبعا لذلك ، وهو ضرر بالغ الأثر وهو أكبر من الضرر المؤقت الذى لحق نفرا من المسلمين ان كان هناك ثمة ضرر وانما المخالفة الدينية فى هذه الحالة تقع اذا أخذ الخليفة من أموال الزكاة بصفة نهائية وليس على سبيل القرض ، ومع ذلك تذهب بعض الآراء الى أن أحد مصارف الزكاة وهو مصرف فى سبيل الله يعطى للغازى فى سبيل الله من أموال الزكاة لأن انقطاعه للجهاد أقعده عن العمل والكسب وليس هذا من باب التشجيع على البطالة فهذا الصنف قد آثر مصلحة الوطن على مصلحة نفسه وترك العمل لشخصه ليعمل فى مجال أوسع وهو العمل لاعلاء كلمة الله وخدمة المجتمع الاسلامى كله ٠

ويرى البعض كذلك أن سبيل الله يشمل الغزو الشرعى وغيره من مصالح الاسلام ويجوز صرف الزكاة فى المنافع العامة وما تقتضيه حاجات الأمة (١) ٠

اذا فمن الناحية الدينية يكون توجيه النقد للخليفة الشيخ على اقتراضه من مصرف الزكاة فى غير محله ٠

ومن ناحية المالية العامة فانه لدواعى المرونة خصوصا فى حالة الحرب يجوز الاقتراض من مصرف لمصرف آخر بشروط أو بغير شروط طبقا للنظام المالى للدولة ٠

---

(١) النظم المالية فى الاسلام ٠ للأستاذ قطب ابراهيم محمد ، طبعة ثانية ص ١٥٨ ٠

.لى أنه من ناحية أخرى لا ينبغى أن يتسم الانفاق العام بالاسراف والا أدى ذلك الى ضياع الأموال العامة فى غير منفعة عامة تعود على الشعب، والاسلام ينهى عن الاسراف عموما فيصف الله جل وعلا عباد الرحمن بأنهم الذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قوما ، والله لا يحب المسرفين وفى ذلك يقول الله جل وعلا « والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » (الفرقان /٦٧) .

ويقول جل وعلا :

« وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا . ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا (الاسراء / ٢٦ و ٢٧) .

ولا يجوز للأمير كذلك ان يعطى الأموال العامة على سبيل الهبة لمن لا يستحقها قد يعطيها أحيانا على سبيل الهبة ولكن لتحقيق منفعة عامة ، فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتألف المسلمين ممن لم يرسخ الايمان فى قلوبهم ، أو غير مسلمين كرؤساء القبائل والعشائر لاتقاء شرهم وليكونوا عونا للمسلمين والاسلام ، وكانوا يعطون من مصدرين فاذا كانوا مسلمين يعطون من أموال الزكاة ، واذا كانوا غير مسلمين يعطون من أبواب المصارف الأخرى كالفىء والغنائم .

عثمان ينفق من الزكاة على الطعام فى المسجد فى رمضان للفقراء وأبناء السبيل :

سن عثمان سنة جديدة ، فكان يضع الطعام فى المسجد فى رمضان ، وقال :

« للمتعبد الذى يتخلف فى المسجد وابن السبيل والمعترين » (١) .

والخليفة عثمان رضى الله عنه بذلك يكرم المسلمين من بيت المال وفى ذلك اقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم الذى كان أجود الناس وأجود ما يكون فى رمضان فعن بن عباس رضى الله عنه قال :

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس وأجود ما يكون فى رمضان حين يلقى جبريل وكان يلقاه جبريل فى كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة » .

---

(١) الطبرى ـ مرجع سابق ـ ص ٢٤٦ .

وهذا الاجراء الذى أتبعه عثمان يساعد على الاستجابة لدعوة الرسول أيضا بافطار الصائمين فقد قال صلى الله عليه وسلم :

« من فطر صائما كان له مثل أجره غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيء » (رواه الترمذى) .

ومن باب أولى ينبغى افطار الصائم اذا كان فقيرا وهو المعتر أو من أبناء السبيل وهو المسافر المنقطع عن أهله وماله .

كما أن السنة التى استنها عثمان ترغب المسلمين فى الاعتكاف فى المساجد ، ما دام أكلهم معدا ، وفى ذلك تشجيع على احياء سنة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، فعن ابن عمر رضى الله عنه قال :

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الآواخر من رمضان » (١) .

عثمان بن عفان ينشيء منازل للضيافة بالكوفة من أموال الزكاة :

بلغ عثمان أن أبا سمال الاسدى ومعه نفر من هل الكوفة ينادى مناد لهم اذا قدم الميار (٢) ان من كان من القبائل ليس لقومهم بالكوفة منزل فمنزله على أبى سمال فاتخذ عثمان بعض الدور كمنازل للضيافة ينزل بها الغرباء ممن ليس لهم منزل ومن هذه الدور منزل عبد الله بن مسعود فى هذيل . وكان الأضياف ينزلون داره فى هذيل اذا ضاق عليهم ما حول المسجد (٣) .

ويعتبر ما ينفق على الضيافة انفاق عام من مصرف الزكاة حتى ولو كان الضيف غنيا لأنه يعتبر من أبناء السبيل .

عثمان بن عفان يعطى من بيت المال لكل مملوك بالكوفة :

مما زاد عثمان بن عفان على يده أن رد على كل مملوك بالكوفة من فضول الأموال ثلاثة فى كل شهر يتسعون بها من غير أن ينقص مواليهم من أرزاقهم (٤) .

ويغلب أن يكون مصدر هذه الأموال التى وزعها عثمان على كل

---

(١) وردت الأحاديث المنوه عنها فى كتاب رمضان والأعياد ــ دراسات فى الاسلام ــ أصدرها المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، ص ١٨ ، ١٩ ، ٢٠٢ ، تأليف فضيلة الشيخ أبو الوفا المراغى ، نقلا عن البخارى .

(٢) الميار :وهو جمع مائر وهو جالب الميرة والميرة الطعام .

(٣) تاريخ الطبرى ــ الجزء الرابع ــ مرجع سابق ، ص ٢٧٣ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٧٤ .

مملوك هو أموال الزكاة باعتبار أن لهم فيها نصيبا لأنهم أحد الثمانية مصارف التى حددتها آية الزكاة وهو مصرف « وفى الرقاب » ٠

صحابى يعيد توزيع ابل الصدقة فى عهد عثمان بن عفان

يذكر المؤرخون أن عبد الرحمن بن عوف أعاد توزيع ابل من ابل الصدقة فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه ٠ ذلك أن بعض السعاة أقبلوا بابل الصدقة فوهبها عثمان لبعض أهل الحكم ، فلما بلغ ذلك عبد الرحمن دعا بعض أصحاب النبى فاستردوا له هذه الابل وقسمها فى الناس ٠ والخليفة عثمان فى داره لم ينكر ذلك الأمر ولم يغيره بل لم يكلم فيه عبد الرحمن ولا أصحابه ٠ فكأن الخليفة أخطأ ورده عبد الرحمن بن عوف ٠

ويذكر بعض المعلقين على ذلك بأن جرأة ابن عوف كانت خطيرة ، لأنه تمرد على أمر الخليفة وكان سكوت عثمان على هذا التمرد سابقة أشد خطرا لأنه اعتراف بالخطأ ونقص من هيبة السلطان (١) ٠

وقد يكون للمسألة وجهة نظر أخرى وهى أنه اذا كان الخليفة أخطأ وتبين له صواب هذا الخطأ بما فعله عبد الرحمن بن عوف فلم يعترض فيعتبر ذلك رجوعا للصواب ولا غضاضة فى ذلك فالخليفة معرض للخطأ كسائر الناس وابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون ٠

وقد حدث مثل هذا الخطأ فى عهد عمر بن الخطاب نفسه حينما نهى على المنبر عن المغالاة فى المهور فردته امرأة فى آخر المسجد مستشهدة بآية من القرآن الكريم فاعترف بخطئه وأقر بأن المرأة قد أصابت وعمر قد أخطأ ٠

---

(١) مع الخلفاء الراشدين ، عبد الخالق أبو رابية ، ص ٨ ٠

تصوير وتنفيذ موازنة الضوائع فى عهد عثمان

موازنة الضوائع بطبيعتها موازنة غير أساسية فى المالية العامة الاسلامية لأن ايراداتها غير دورية تتوقف على ما يؤول لبيت المال من تركات من لا وارث لهم وأموال الضوائع التى ترد لبيت المال ، ولذلك فلا تتأثر كثيرا باختلاف السياسات المالية ويتفق الانفاق منها مع أحد وجوه انفاق الزكاة وهو الانفاق على الفقراء ، فأموال موازنة الضوائع تصرف لاشباع حاجات الفقراء وعلاج مرضاهم وتعليمهم وغير ذلك من وجوه الخدمات العامة اللازمة لهم علاوة على ما ينالونه من موازنة الزكاة والموازنة العامة اذا لزم الأمر ٠

وفيما يلى تصوير موازنة الضوائع فى عهد الخليفة عثمان بن عفان ٠

الموازنة العامة للضوائع
فى عهد الخليفة عثمان بن عفان عن السنة المالية ٠٠٠٠

المبلغ	الايرادات العامة	المبلغ	النفقات العامة
دينار ٠٠٠	باب (٦) ايرادات الضوائع وتركات من لاوارث لهم	دينار ٠٠٠	باب (٢) نفقات جاريه وتشمل اعانات الفقراء باب (٣) مشروعات عامة لصالح الفقراء
٠٠٠	اجمالى	٠٠٠	اجمالى

تصوير وتنفيذ موازنة خمس الغنائم فى عهد عثمان بن عفان

استمرار الجهاد فى عهد عثمان بن عفان :

الجهاد فرض كفاية على المسلمين اذا قام به البعض سقط عن الآخرين وذلك فى كل سنة ، فلا يجوز تركه فى أى سنة ، والذى يدل على أنه فرض كفاية قوله تعالى :

« لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما » (النساء /٩٥) .

ولو كان الجهاد واجبا وجوبا عينيا لما وعد الله القاعدين بالحسنى كما أنه تواتر فى السنة النبوية أنه صلى الله عليه وسلم أرسل قوما دون آخرين ، ولا يقاتل الأعداء حتى يدعوهم الى الاسلام فان امتنعوا فتطلب منهم الجزية فان لم يستجيبوا للاسلام ولم يستجيبوا للجزية قوتلوا وقتلوا ، ولا يجوز قتل المرأة والصبى لأن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن قتلهما ، كما لا يقتل الأعمى والمعتوه والمجنون والشيخ الفانى والراهب الا أن يكون أحدهم مشتركا فى تدبير الحرب فانه يجوز قتله .

ولما كان الجهاد فرض كفاية فقد بدأ فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم واستمر فى عهد أبى بكر وعمر وكذلك فى عهد الخليفة عثمان بن عفان ، وكانت نتيجة ذلك انتشار الاسلام واتساع رقعة الدول الاسلامية ، وكانت فتوحات عهد عثمان كبيرة حققت غنائم كثيرة آل لبيت المال منها الخمس ، كما أنه يؤول الى بيت المال جزية من آثر البقاء على دينه من أهل الكتاب ولم يحارب ، فهناك ارتباط اذا بين بيت المال والفتوحات الاسلامية مما يقتضى ايضاح وجوه هذا الارتباط والتنويه تنويها مركزا عن الفتوحات الاسلامية فى عهد عثمان بن عفان .

وعلى ذلك نناقش فيما يلى :

- ارتباط المالية العامة الاسلامية بالفتوحات الاسلامية فى عهد عثمان .
- فتوحات الاسلام فى عهد عثمان .
- موازنة خمس الغنائم فى عهد عثمان وما أثير بشأن ايراداتها ومصروفاتها من مسائل .

وجوه ارتباط المالية العامة الاسلامية بالفتوحات الاسلامية فى عهد عثمان .

تمت فى عهد عثمان بن عفان عدة فتوحات ، والفتوحات فى النظام المالى الاسلامى تتأثر بالمالية العامة كما تؤثر فيها وذلك على النحو التالى :

ـ تمول المالية العامة فتوحات الاسلام ، وكانت أيام الرسول صلى الله عليه وسلم تعتمد اعتمادا أساسيا على تطوع المسلمين بالمال والنفس ، لكن بمرور الوقت وبعد اتساع رقعة الدولة الاسلامية ونمو الايرادات العامة ساهم بيت المال فى تمويل هذه الفتوحات سواء بما كان يدفعه للجنود من مرتبات أو لشراء الأسلحة والعتاد بجانب التطوع بالأموال والأنفس .

ـ اذا تحقق النصر فرضت الجزية على من لم يسلم من أهل الكتاب والخراج على الأرض التى أخذت عنوة ، واذا أسلم أهل البلاد سددوا الزكاة اذا بلغت أموالهم نصابا وتوفرت شروطها باعتبارها من أركان الاسلام ولا يكمل اسلام المسلم الا بأدائها . وهذه كلها تساهم فى زيادة الايرادات العامة للدولة الاسلامية .

ـ أحل الله للمسلمين غنائم الحرب ويوزع أربعة أخماسها بين الفاتحين والخمس الباقى يؤول لبيت مال المسلمين .

ـ اذا عقد الصلح يشترط دائما فى شروط الصلح أداء الجزية وهى مورد مالى باعتبارها واجبة الأداء على أهل الكتاب .

فتوحات الاسلام فى عهد عثمان بن عفان :

نورد فيما يلى وصفا مركزا للفتوحات التى تمت فى عهد عثمان بن عفان (١) .

ـ رد أذربيجان الى طاعة الدولة الاسلامية وادائها الجزية وفتح ارمينيه :

كانت ولاية أذربيجان وما والاها من ناحية الغرب آخر ما أخضعه المسلمون من ولايات فارس فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقد أخضعها عتبة بن فرقد وصالح أهلها باذن حذيفة بن اليمان وأعطاهم كتابا بالأمان على سهلهم وجبلهم وشعائرهم وأهل ملتهم وعلى أنفسهم وأموالهم وعقائدهم وشرائعهم على أن يؤدوا الجزية ، وامتد الفتح بعد ذلك

---

(١) التنويه عن الفتوحات مقتبسة من كتاب عثمان بن عفان ـ محمد حسين هيكل ، طبعة رابعة ص ٥٧ ومابعدها .

من أذربيجان الى الباب والى موقات غير أنه فى عهد عثمان منعت أذربيجان ما كانت صالحت عليه حذيفة من جزية قدرها ثمانمائة ألف درهم فسار اليها الوليد بن عقبة فردها الى الطاعة وفرض عليها جزية حذيفة ٠

وكان أهل أذربيجان أقرب أهل فارس عهدا بغزو المسلمين ولم يكونوا تعودوا من أداء الجزية ما تعوده الذين أدوها سنوات عدة فى عهد عمر فظنوا أن سياسة الخليفة الجديدة تخالف سياسة سلفه ، ولكن عثمان لم يتردد حين عرف أمرهم أن يعث الوليد بن عقبة لغزوهم فغزاهم وردهم الى الطاعة والى أداء الجزية ٠

ثم أن الوليد بعث عبد الله بن شبل بن عوف الأحمس الى موقان والبير والطيلسان وكلها تجاور أذربيجان فغزاها وسبى وغنم من أهلها ورد الى قلوبهم الايمان ببأس المسلمين وعظيم سلطانهم ٠

أرادت أرمينية وكانت ممتدة فى أرض فارس وفى أرض الروم معاضدة أذربيجان فى ثورتها فبعد أن أخضع المسلمون أذربيجان وما ولاها ، ساروا فى أرمينية من جانب فارس ومن جانب الروم فاستولوا عليهـا ٠

وقد خيل للروم حين جاءتهم الأنباء بثورة أذربيجان وقيام أهل أرمينية أنهم قادرون على استرداد ما ضاع من هيبتهم ومن سلطانهم فدحرهم المسلمون وردوهم على أعقابهم وفتحوا من بلادهم ما لم يكونوا فتحوا من قبل ٠ وقد حدث هذا كله فى أول خلافة عثمان فكان بالغ الأثر فى رد السكينة الى ربوع الشام وأقاليم فارس فى اعادة اليقين الى أهل الأقاليم المفتوحة بأن مقتل عمر واستخلاف عثمان لم يوهن من بأس المسلمين ولم يضعف من شوكهم ٠

ارتداد الاسكندرية لعدم منحها مزايا مالية وارجاعها لدولة الاسلام :

فى عهد عمر بن الخطاب فتح عمرو بن العاص مصر وأجلى الروم عنها واستقرت له ولايتها وكانت سياسته فيها أن يتألف أهلها بتخفيف الضرائب ويتركوهم أحرارا فى عقيدتهم وترك المناصب الادارية لأبناء البلاد والروم الذين آثروا البقاء فيها على الهجرة الى وطنهم الأول ، على أن هذه السياسة التى أرضت المصريين فى مجموعهم أغضبت أهل الاسكندرية ، فقد كان لهؤلاء قبل الفتح العربى ما أعفاهم من كثير من الضرائب ، فلما سوى القائد العربى بينهم وبين غيرهم وفرض عليهم ما فرضه على غيرهم احفظ قلوبهم وهيأ للروم الذين لم يغادروا الاسكندرية فرصة ، التأليب على المسلمين ، وأرسلوا الى الامبراطور قنسطانز الثانى يسـألونه أن

يخلصهم من حكم المسلمين ويهونون عليه الأمر بضعف مسلحة العرب فى الاسكندرية وكان لها حامية لا تزيد على الألف تحفظ النظام ونفرض سلطان المسلمين وأغروه بأنه صاحب البحر دون المسلمين فاستجاب قنسطانز وجهز أسطولا من ثلثمائة سفينة أوقرها بالرجال وجعل على قيادتها مانويل الخصى وأخفى على الناس مقصدها ٠

وبلغ الاسطول الاسكندرية ونزل جنوده بها وانضم اليهم الروم المقيمون بها وساروا معهم الى مسلحة العرب ، فقتلوا رجالها الا نفر لاذوا بالفرار وكان نزولهم بعد عام وشهر من بيعة عثمان ٠ عهد عثمان الى عمرو بن العاص أن يتولى اجلاء الروم عن مصر كما أجلاهم أول مرة فقد سار الروم فى بلاد مصر السفلى يغنمون وينهبون ويتوفرون على الملذات ينهبونها انتهابا ووقف المصريون من هؤلاء القساة موقف الخوف والفزع . وقد رأى عمرو أن لا تسرع قواته اليهم حتى يزداد المصريون لهم بغضا . فلما اقترب الروم من نقيوس خرج على رأس خمسة عشر ألف والتقى الجيشان تحت أسوار حصينة نقيوس على شاطىء النهر واشتد القتال وحمى وطيســه واستمات الفريقان فيه فترجح النصر ورأى عمرو شدة القتال فاندفع بين الصفوف يحارب واشتدت حملات المسلمين ولم يصبر الروم لحملاتهم فانهزموا مولين الأدبار يريدون الاسكندرية فتعقبهم عمرو وبلغ أسوار الاسكندرية فالفى الروم تحصنوا بها وأخـذ العرب المدينة عنوة وفرت جند الروم منهم بالمدينة فلاذت بالبحر وقتل أكثرهم وكان القائد مانويل الخصى فى القتلى وعادت الى الاسكندرية السكينة وتم بذلك جلاء الروم عن مصر للمرة الثانية ٠

فتح افريقية وكثرة الغنائم :

لما فتحت مصر للمرة الثانية أمر عثمان عبد الله بن سعد أن يسير الى افريقية وأمده بالرجال وتخطى عبد الله برقة وطرابلس حيث كان السلطان مطمئنا للمسلمين وبلغوا أفريقية يريدون غزوها وكانت أفريقية فى تسمية العرب هى شمال القارة الافريقية الممتد من تونس الى طنجة فى مراكش ، وكانت هذه الاصقاع خاضعة لنفوذ الروم متمتعة بحظ من الحكم الذاتى بأمرة أمير من الروم يدفع جزية عظيمة كل عام الى بلاط بيزنطة فلما تخطى عبد الله بن سعد حدود طرابلس الى تونس لقيته قوات جريجورى بظاهر المدينة ومنعته من التقدم ، ولما أبطأ النصر أمر عثمان عبد الله بن الزبير على جماعة من كبار المجاهدين بينهم طائفة من الصحابة والتابعين وسيرهم مددا لعبد الله بن سعد يعينونه على النصر فتبين أن المسلمين يقاتلون عدوهم من بكرة كل يوم الى الظهيرة فاذا كان الظهر عاد كل فريق الى خيامه ليستأنف القتال ، ولكن عبد الله بن الزبير فاجأ

الروم بتغيير الخطة فترك شجعان المسلمين فى خيامهم وعندهم خيولهم وهم على أهبة القتال وسار مع بقية الجيش فقاتلوا الروم الظهر قتالا شديدا وتركوهم ساعة الظهر ، وعاد ابن الزبير وقد أيقن الروم أن القتال لن يستأنف الى بكرة الغد ولذا ألقوا سلاحهم واستراحوا فى خيامهم ، ولكن ابن الزبير عاد عليهم ومعه شجعان المسلمين الذين لم يقاتلوا فى الصباح فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وقتلوا أميرهم جريجورى وأخذوا ابنته سبية فكانت من نصيب رجل من الأنصار ·

سار عبد الله بن سعد بعد ذلك الى سبيطلة وكانت دار الملك فحاصرها وفتحها وغنم المسلمون منها أموالا عظيمة وبلغ سهم الفارس منها ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل الف دينار ·

ومن سبيطلة بعث ابن سعد جيوشه فى البلاد فبلغت قفصة وصالح عبد الله ابن سعد أهلها على مليونين وخمسمائة ألف دينار وفى رواية أنه صالحهم على ثلثمائة قنطار ذهبا ·

وبذلك فتح المسلمون افريقية سهلها وجبلها ومهدوا لانتشار دين الله فيها ·

انشاء أسطول بحرى ومعركة ذات الصوارى :

كان معاوية قد كتب الى عمر يستأذنه فى بناء أسطول لغزو قبرص فلم يأذن له عمر ، فأعاد ذلك على عثمان فأجابه الى ما طلب بشرط أن يكون ركوب البحر والغزو فيه تطوعا لمن يشاء ، ولم يلبث معاوية أن جهز السفن للقتال وعرف عبد الله بن سعد أمر عثمان لمعاوية فجهز أيضا السفن فى مرفأ الاسكندرية وحمل عليها من تطوع للقتال على متن الماء · واتجه الاسطول الى قبرص فلما بلغوها وارتقوا الى ساحلها لم يرد حاكمها ولا رأى أهلها قتالهم ، وتفاوض الفريقان فى الصلح فصالحوا المسلمين على أداء الجزية كل عام على شريطة أن يؤدوا للروم مثلها ، وفى مقابل هذا الصلح المزدوج لا يمنعهم المسلمون ولا يقاتلون عنهم ويكون أهل قبرص عيونا للمسلمين يؤذنونهم بسير عدوهم من الروم ولكن أهل قبرص بعد مرور عدة سنوات أعانوا الروم على الغزاة فى البحر بمراكب أعطوهم اياها فسار أسطول الشام وأسطول مصر الى الجزيرة ففتحاها عنوة وقتلا وسبيا من أهلها وتحول المسلمون بعد ذلك الى جزيرة رودس التى سقطت فى يد المسلمين كذلك ·

كانت حرب البحار هى الأمل الباقى لدى الروم فى مجابهة الغزو العربى ، لذلك أعد الروم اسطولا مكونا من ٥٠٠ سفينة بقيادة الامبراطور

الجديد قسطنطين بن هرقل ، لم ينتظر كل من معاوية أمير الشام وعبد الله بن سعد أمير مصر طويلا حتى أعدا للأمر عدته وكانت سفنهم مائتين وتقدمت سفن عبد الله بن سعد ونشب قتال عنيف غاية العنف وأصابت قسطنطين جراحات أوهنت قوته وضعضعت عزمه فلما بلغ منه ومن رجاله ورأى المسلمين لا يهن لهم عزم أيقن أن الدائرة لهم عليه فولى مدبرا بما بقى من أسطوله ورجاله وقد آمن بأن بأس المسلمين فى البحر لا يقل عن بأسهم فى البر وأنهم لا غالب لهم ولم يتعقبه عبد الله بن سعد ويطلق المؤرخون على هذه الغزوة غزوة ذات الصوارى لكثرة السفن التى اشترك فيها الطرفان ولم تقم للروم بعد هذه الغزوة فى البحر قائمة فلم يفكر الروم من بعد فى العودة الى افريقية أو الى مصر أو الشام ٠

وبهذه الفتوحات الواسعة التى تمت فى عهد عثمان يكون قد خمدت ثورات الفرس والروم وغيرها التى تقدمت عهده وامتدت الدولة الاسلامية ودعوة الاسلام الى بلاد جديدة ومسلمين جدد ٠

ـ ويعلق أحد الكتاب على نتائج هذه الفتوحات فيقول :

ان علاج عثمان لمشكلات الدولة « الخارجية » التى فاجأته بعد ولايته قد كان كأحسن علاج يتولاه خليفة فى تلك الأونة : عزم وسداد ، وسرعة ، مع الحيطة والاناة والرفق فى سياسة الأولياء والخصوم ولا شك أن الخليفة كان معانا على عمله ، ولم يكن منفردا بعبئه فى تلك المحنة الجائحة : كان معانا عليه بحمية الجند وكفاية القادة ، وكانت حمية الدين التى حفزت دعاة الاسلام من نصر الى نصر ، ومن عزمة الى عزمة ، وصحبتهم من بدر الى القادسية وتبوك وبابليون صامدة على سمتها كأقوى وأقوم ما كانت فى يوم من أيامها ٠ بل لعلها فى حروب الفرس والروم كانت أقوى وأقوم من حروبها فى الجزيرة العربية ، اذ كانت أنفة العربى أن ينهزم أمام المتعجرفين عليه من الأعاجم كفيلة أن تنفث فى قلبه الغضبة القوية التى التى لا تثيرها حرب العربى للعربى والشبيه بالشبيه (١) ٠

---

(١) عثمان بن عفان ، ذو النورين ، عباس العقاد ، ص ١٣٢ ، ١٣٣ ٠

موازنة خمس الغنائم فى عهد عثمان وما أثر بشأن ايراداتها ومصروفاتها من مسائل :

حققت الفتوحات السابقة غنائم آل لبيت المال خمسها ، واذا أردنا أن نطبق الاتجاهات الحديثة فى تنظيم المالية العامة باعداد موازنة عامة سنوية فانه يمكن تصوير الموازنة العامة للخمس فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه على النحو التالى :

الموازنة العامة لخمس الغنائم فى عهد الخليفة
عثمان بن عفان
عن السنة المالية

المبلغ دينار	الايرادات العامة	المبلغ دينار	النفقات العامة
	باب ٢ ايرادات خمس الغنائم		٠٠٠٠ باب ٢ نفقات جارية
	٠٠٠٠ ــ غنائم موقعة ٠٠٠		٠٠٠٠ اعانات لليتامى
	٠٠٠٠ ــ غنائم موقعة ٠٠٠		٠٠٠٠ اعانات للمساكين
	٠٠٠٠ ــ غنائم موقعة ٠٠٠		٠٠٠٠ اعانات لأبناء السبيل
	٠٠٠٠ ــ غنائم موقعة ٠٠٠		٠٠٠٠ شراء كراع وسلاح (١)
٠٠٠	اجمالــى	٠٠٠	اجمالــى

وفيما يلى بعض المسائل التى أسفر عنها تطبيق سياسة المالية العامة فى عهد عثمان بن عفان بشأن خمس غنائم الفتوحات :

لم يسهم للصبى من الغنائم فى عهد عثمان بن عفان :

حدثنا عبد الله بن يزيد المقرئى حدثنا حرمله بن عمر ان عن تميم بن المهرى قال :

« شهدت فتح الاسكندرية فى المرة الثانية ، فلم يسهم لى حتى كاد أن يقع بين قومى وبين قريش منازعة • فقال بعض القوم : أرسلوا الى بصرة الغفارى وعقبة بن عامر الجهنى ، فانهما من أصحاب رسول الله صلى

(١) بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم استخدم سهم الرسول وذى القربى فى شراء الكراع (الخيل) والسلاح •

الله عليه وسلم فسالوهما عن هذا ، فأرسلوا اليهما فسألوهما ، فقالا : انظروا فان كان أنبت (١) فأسهموا له .

فنظر الى بعض القوم فوجدونى قد أنبت فأسهموا لى (٢)

ومعنى ذلك أنه لا يسهم للصبى ولا للمرأة انما يرضخ لهم أى يعطون شيئا قليلا شأنهم شأن الأدلاء والرعاة الذين يساعدون فى غزوات المسلمين بمعاونتهم فى السقاية وفى الارشاد عن الطرق ، وغيرها من الخدمات التى لا تصل الى الاشتراك الكامل فى الفتوح وهذا ما كان يطبق فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم .

السلب للقاتل فى عهد عثمان بن عفان كما كان فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم :

السلب هو ما كان على القتيل فى الحرب وما كان من سلاح وما كان تحته من فرس وقد قضى الرسول صلى الله عليه وسلم بالسلب للقاتل .

فعن أبى قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم حنين : « من قتل قتيلا له بينه فله سلبه » .

ومفاد هذا الحديث أنه لا يستحق للقاتل فى السلب الا بعد أن يقيم البينة على أنه هو الذى قتله حتى اذا تنازع اثنان كل منهما يدعى أنه قتله فالسلب لمن يقيم البينة منهما (٣) .

وقد حدث بعد انتفاض الاسكندرية وجاءت الروم وعليهم منويل الخصى وأرسوا بالاسكندرية وتركهم عمرو حتى يسيروا اليه فيصيبون من مروابه فى البلاد فيخزى الله بعضهم ببعض ، فخرجوا من الاسكندرية ومعهم من نقض من أهل القرى ، فجعلوا ينزلون القرية فيشربون خمورهم ، ويأكلون أطعمتها وينتهبون ما مروا به فلم يعرض لهم عمرو حتى بلغوا نقيوس فلقوهم فى البر والبحر ، فحاربوا بالنشاب ثم خرجوا من البحر فاجتمعوا هم والذين فى البر واستمروا فى حرب النشاب ، وبرز بطريق ممن جاء من أرض الروم على فرس له عليه سلاح مذهب فدعا الى البراز فبرز له رجل من زبيد يقال له « حومل » يكنى أبا مذحج . فاقتتلا طويلا برمحين يتطاردان ثم ألقى البطريق الرمح وأخذ السيف وألقى حومل رمحه وأخذ سيفه .

---

(١) أنبت أى ظهر شعر فى وجهه .

(٢) فتوح مصر واخبارها لأبى القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ، تقديم محمد صبيح ص ١٢١ .

(٣) الأموال ، لأبى عبيد ، ص ٣٨٨ ، ٣٨٩ .

وجعل عمرو يصيح : أبا مذحج ٠

فيجيبه : لبيك ٠

والناس على شاطىء النيل فى البر على تعبئتهم وصفوفهم ، فتجاولا ساعة بالسيفين ثم حمل عليه البطريق فاحتمله ثم أخذ حومل خنجرا كان فى منطقته أو فى ذراعه فضرب به نحر عدوه فأوتر قوته فأثبته ووقع عليه فأخذ سلبه ، ثم مات حومل بعد ذلك بأيام رحمة الله عليه ثم شد المسلمون على الروم فكانت هزيمتهم فطلبهم المسلمون حتى الحقوهم بالاسكندرية ففتح الله عليهم وقتل منويل الحصى » (١) ٠

حساب قيمة الغنائم ونصيب بيت المال فى احد فتوحات الاسلام فى عهد عثمان بن عفان :

من حديث لعبد الملك بن مسلمة عن غيره قال (٢) :

« غزونا مع عبد الله بن سعد افريقية فقسم بيننا الغنائم بعد اخراج الخمس ، فبلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار للفرس ألفا دينار ولفارسه ألف دينار وللراجل ألف دينار فقسم لرجل من الجيش توفى بذات الحمام فدفع لأهله بعد موته ألف دينار » ٠

ومن حديث لعثمان بن صالح وغيره قال (٣) :

« فكان جيش عبد الله بن سعد ذلك عشرين ألفا » ٠

ومن المعروف أن يؤول الخمس لبيت المال استنادا الى قول الله تعالى فى آية الخمس السابق الاشارة اليها (٤) ٠

وقد رفع نصيب الرسول صلى الله عليه وسلم وذى القربى فى عهد أبى بكر رضى الله عنه بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ووجه الى السلاح والكراع وسايره عمر بن الخطاب رضى الله عنه من بعده فى التطبيق وكذا عثمان بن عفان رضى الله عنه ٠

---

(١) فتوح مصر واخبارها ، لأبى القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ، تقديم وتحقيق محمد صبيح ، ص ١١٩ ، ١٢٠ ٠

(٢ ، ٣) المرجع السابق ص ١٢٥ ٠

(٤) انظر الفصل الأول من الباب الثانى ــ الأساس السادس ٠

والأربعة أخماس الباقية من الغنائم توزع على الفاتحين بنسبة ٣ للفارس وفرسه ، ١ للراجل ·

فمن الحديثين السابقين يمكن حساب قيمة الخمس الذى آل لبيت المال وكذلك قيمة الغنائم كلها ، فبافتراض أن الفوارس عشر الجيش الذى بلغ عشرين ألفا وأن الباقين من الراجلين يكون الحساب كالآتى :

٢٠٠٠ فارس × ٣٠٠٠ دينار = ٦٠٠٠ر٠٠٠ر٦ دينار ·

١٨٠٠٠راجل × ١٠٠٠ دينار = ١٨٠٠٠ر٠٠٠ر١٨ دينار ·

مجموع ما خص المحاربين = ٢٤ مليون دينار وهو ما يمثل أربعة أخماس قيمة الغنائم ·

ويكون نصيب بيت المال خمس الغنائم أى = ٦ مليون دينار ·

ويكون مجموع ما غنمه المسلمون = ٣٠ مليون دينار ·

ويلاحظ أنه فى هذه الغزوة تم تقسيم نصيب الفاتحين على أساس ثلاثة أسهم للفارس وللراجل سهم واحد وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد جعل فى غزوة بدر للفارس سهمين وللراجل سهما ، وفى غزوة حنين جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهما واحدا ·

ولما كان الرأى فى هذا وذاك يرجع لتقدير الامام وما يراه مناسبا لكل حال ، فان معنى ذلك أن الخليفة عثمان أقر الأساس الثانى ولعل السبب فى ذلك ترغيب الناس فى ارتباط الخيل فى سبيل الله ·

وفى هذا الصدد يرى الامام أبو حنيفة رضى الله عنه أن يكون للرجل سهم وللفرس سهم أى سهمان للفارس وسهم للراجل ، ويقول لا أفضل بهيمة على رجل ، غير أن أبا يوسف يفضل الرأى الثانى أى للفرس سهمان وللرجل سهم ويناقش رأى أبو حنيفة فيقول بأنه ان كانت لا تفضل بهيمة رجل ، فلا يجوز أن تتساوى بهيمة مع رجل ويستبعد أساس المقارنة ويرى أن التميز فى العطاء أساسه الترغيب فى التطوع بالخيل فى سبيل الله ·

هذا ويبين كذلك من الحديثين السابقين أنه اذا مات المحارب قبل توزيع الغنائم آل نصيبه من الغنائم الى أهله ·

نموذج آخر على غنائم افريقية فى عهد عثمان بن عفان :

كان يوضع بين يدى عبد الله بن سعد عند فتحه لافريقية الكوم من الورق (١) ·

---

(١) الورق : الفضة مضروبة كانت أم غير مضروبة جمعها أوراق ووراق ·

فيقال للأفارقة : من أين لكم هذا ؟ .

فيقوم انسان منهم يدور كالذى يلتمس الشيء حتى وجد زيتونه • فجاء بها الى عبد الله بن سعد •

فقال : من هذا نصيب الورق •

قال : وكيف ؟

قال : ان الروم ليس عندهم زيتون . فكانوا يأتونا فيشترون منا الزيت فنأخذ هذا الورق منهم (١) •

القائد المسلم يرفض هدايا من ذهب وفضة :

أهدى أهل بلخ أسيد بن المتشمس وهو بن عم الأحنف بن قيس قائد الجند وكان قد تركه عليها يجمع الخراج — هدايا من آنية الذهب والفضة ودنانير ودراهم ومتاع وثياب •

فقال ابن عم الأحنف : هذا ما صالحناكم عليه ؟

قالوا : لا ولكن هذا شيء نصنعه فى هذا اليوم بمن ولينا نستعطفه به

قال : وما هذا اليوم ؟

قالوا : المهرجان •

قال : ما أدرى ما هذا وانى لأكره أن أرده ولعله من حقى ولكن أقبضه وأعزله حتى أنظر فيه •

فقبضه وقدم الأحنف فأخبره •

فسألهم عنه فقالوا له مثل ما قالوا لابن عمه •

فقال : آتى به الأمير •

فحمله الى عبد الله بن عامر فأخبره عنه •

فقال : أقبضه يا أبا بحر فهو لك •

قال : لا حاجة لى فيه •

فقال ابن عامر : ضمه اليك يا مسمار •

فضمه القرشى وكان مضما (٢) •

فانظر كيف كان المسلمون الأوائل يرفضون أن يأخذوا ما يقدمه

---

(١) فتوح مصر واخبارها — مرجع سابق — ص ٣٦ •

(٢) الطبرى — جزء ٤ — مرجع سابق — ص ٣٤٤ •

الشعب من هدايا ، ولو كان ذلك عادة اعتادها ، ولو كانت الهدايا آنية من ذهب وفضة وغيرها من أنواع الأموال الثمينة ٠

وأنظر الى مدى شيوع صفة الأمانة بين قيادة الجيش ، وكبار العاملين بالدولة فابن عم الأحنف عزل الهدايا عن أموال الخراج وأبلغ الأحنف عنها وهذا بدوره أبلغها للوالى وهو عبد الله بن عامر فلما عرض عليه أن يأخذها أبى ، ولعله في رفضه هذا كان متذكرا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أحد رجال الازد وكان صلى الله عليه وسلم قد استعمله على الصدقة فلما قدم لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« هذا لكم وهذا أهدى لى » ٠

فقال النبى صلى الله عليه وسلم ٠

« ما بال الرجل نستعمله على العمل مما ولانا الله فيقول هذا لكم وهذا أهدى لى ، فهلا جلس فى بيت أبيه أو بيت أمه فينظر أيهدى اليه أم لا » (١) ٠

الانفاق العام من خمس الغنائم :

أوضحنا أن خمس الغنائم ينفق منها طبقا لنص الآية للرسول صلى الله عليه وسلم ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل بحق الخمس لكل منهم وأنه بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم آل نصيبه ونصيب ذى القربى الى بيت المال لينفق منها على الكراع والسلاح ٠

ولا شك أن الخليفة عثمان رضى الله عنه قد استنفذ نصيب الرسول وذى القربى والذى آل بعد وفاته صلى الله عليه وسلم الى بيت المال فى الانفاق على الكراع والسلاح لكثرة الفتوحات التى تمت فى عهده وما استلزمته من أسلحة وخيول خصوصا وأن ثمن الفرس اللازم المفتوح ارتفع ارتفاعا كبيرا فى زمن عثمان ، فقد كثر المال فى زمن عثمان فبيعت جارية بوزنها وفرس بمائة ألف درهم ونخلة بألف درهم (٢) ٠

خمس الغنائم لعبد الله بن سعد وما أثير بشأنه :

أثيرت قضية هامة فى عهد عثمان ، فتقول بعض الروايات أن عثمان بن عفان جعل لعبد الله بن سعد حين ولاه فتح أفريقية خمس ما يستحقه

---

(١) روى فى الصحيحين عن أبى سعيد الساعدى ٠

(٢) عثمان بن عفان ــ ذو النورين ــ ص ١٠٠ ٠

بيت المـال من الفيء وبيت المـال يستحق الخمس من مجمـوع ما غنم المسلمون • فلما تم الفتح قسم ابن سعد أربعة أخماس الغنائم على المحاربين وأخذ من الخمس الباقى خمسة وأرسل أربعـة أخماسه الى بيت مـال المسلمين بالمدينة . وفى ذلك مخالفة لنص فى القرآن (١) ، فسار وفد من الجند الذين فتحوا أفريقية الى عثمان وشكوا ما احتجزه عبد الله لنفسه •

فقال لهم : أنا نفلته وأمرت له به وذلك اليكم الآن فان رضيتم فقد جاز وان سخطتم فهو رد •

قالوا : فانا نسخطه •

قال عثمان : فهو رد •

قالوا : وأعزله عنا فانا لا نريد أن يتأمر علينا وقد وقع ما وقع •

فكتب اليه عثمان أن استخلف على افريقية رجلا ممن ترضون وأقسم الخمس الذى كنت نفلتك فى سبيل الله فانهم قد سخطوا النفل (٢) •

تعليق عثمان بن عفان على ما أثير بشأن منحه الخمس لعبد الله بن سعد فى مجمع من الصحابة :

قال عفان فى مجمع من الصحابة كان يناقش معهم المسائل العامة التى أثيرت هذه :

وقالوا : انى أعطيت ابن أبى سرح ما أفاء الله عليه ، وانى انما نفلته خمس ما أفاء الله عليه من الخمس • فكان مائة ألف ، وقد أنفذ مثل ذلك أبو بكر وعمر رضى الله عنهما . فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك فرددته عليهم وليس ذلك لهم (٣) •

دفاع أحد الكتاب عن عثمان فيما يتعلق بالخمس (٤) :

يدافع أحد الكتاب عن واقعة منح الخمس لعبد الله بن سعد فيقول :

« وأما طعنهم على عثمان أنه وهب خمس أفريقية لمروان بن الحكم فهو غلط منهم وانما المشهور فى القضية أن عثمان كان جهز ابن أبى

---

(١) سبق ذكر آية الخمس فى الصفحات السابقة •

(٢) الطبرى — جزء ٤ — مرجع سابق ، ص ٢٥٤ •

(٣) الطبرى — جزء ٤ — مرجع سابق ، ص ٣٤٧ •

(٤) الكاتب هو أبو جعفر الشهير بالمحب الطبرى صاحب كتاب الرياض النضرة فى مناقب العشرة ورد دفاعه فى كتاب عثمان بن عفان ذو النورين ، تاليف محمد رضا ، طبعة ثانية ، ص ٣٢٣ وما بعدها ،

سرح أميرا على آلاف من الجند وحضر القتال بافريقية . فلما غنم المسلمون أخرج ابن أبى سرح الخمس من الذهب وهو خمسمائة ألف دينار فأنفذها الى عثمان ، وبقى من الخمس أصناف من الأنات والمواسى مما يشق حمله الى المدينة ، فاشتراها مروان منه بمائة ألف درهم نفذ أكثرها وبقيت منها بقية ووصل عثمان مبشرا بفتح افريقية ، وكانت قلوب المسلمين مشغولة خائفة أن يصيب المسلمين من أمر افريقية نكبة فوهب له عثمان ما بقى جزاء بشارته ، وللامام أن يصل المبشرين من بيت المال بما رأى على قدر مراتب البشارة » .

نجاح السياسة المالية فى تمويل فتوحات الاسلام ورد البلاد المنتكسة فى عهد عثمان :

ذكرنا أنه من ضمن التحديات التى سبقت عهد عثمان بن عفان انتكاس بعض البلاد المفتوحة فى عهد عمر وذكرنا أنه من واجب المالية العامة أن تساهم فى رد هذه الانتكاسات وتمويل فتوحات جديدة لنشر الدعوة الاسلامية . وفى ضوء ما تم فى عهد عثمان بن عفان من اجبار البلاد التى نقضت العهد على الالتزام بعهودهم مع الدولة الاســـلامية والانصياع لحكمها وفى ضوء ما تم من فتوحات جديدة فانه يمكن القول أن تنفيذ السياسة المالية فيما يتعلق بهذه الفتوح قد أسفر عن قيام المالية العامة فى عهد عثمان بن عفان بالمطلوب منها سواء من ناحية تمويلها لهذه الفتوح أو بما حققته الانتصارات من غنائم كثيرة حصل بيت المال على نصيبه منها أو من موارد أخرى وهى زكاة من أسلم من أهل الأمصار وجزية من أبى الاسلام من أهل الكتاب وخراج أراضيهم .

الباب الثالث

تصوير وتنفيذ الموازنة العامة للجزية والخراج وعشور التجارة في عهد عثمان بن عفان ومناقشة مسائلها

الفصل الأول

ايرادات الجزية والخراج وعشور التجارة
فى عهد عثمان بن عفـــان

تصوير موازنة الجزية والخراج وعشور التجارة فى عهد عثمان :

الموازنة التالية هى موازنه الجزية والخراج وعشور التجارة ، وتتكون ايراداتها من الجزية والخراج وعشور التجارة وينفق منها على النفقات العامة التى تحقق المصلحة العامة للدولة كرواتب العاملين فى الدولة وسائر نفقات ادارة أجهزتها ، وما تدفعه الدولة الاسلامية من عطـــاء على هيئة معونات أو معاشات للمسلمين وكذا نفقات المشروعات العامة التى تقوم بها الدولة وهى كما قلنا تقابل الموازنة العامة للدولة فى النظم المالية الحديثة .

وفى ظل التبويب السابق ايضاحه يمكن تصـــوير موازنة الجزية والخراج وعشور التجارة على النحو التالى :

الموازنة العامة للجزية والخراج وعشور التجارة
فى عهد الخليفة عثمان بن عفان
عن الســـنة المالية ....
أو (الموازنة العـــامة)

المبلغ	الايرادات العامة	المبلغ	النفقات العامة
دينار		دينار	
...	باب ٣ ايرادات الجزية	...	باب ١ رواتب العاملين بالدولة
...	باب ٤ ايرادات الخراج	...	باب ٢ نفقات جارية مصاريف ادارة الدولة
...	باب ٥ ايرادات عشهور التجارة	...	باب ٣ مشروعات عامة : ـ توسعة المسجد الحرام ـ توسعة مسجد الرسول ـ حفر الآبار ـ الخ الخ .
...	اجمالى	...	اجمالى

الخصائص العامة لموازنة الجزية والخراج وعشور التجارة فى عهد عثمان :

موازنة الجزية والخراج وعشور التجارة ، أهم الموازنات فى المالية العامة الاسلامية لأنها تحوى جزءا هاما من ايرادات بيت المال ولأنهـا ينفق منها على المصالح العامة للرعية • وهى موازنة غير مخصصة مواردها لانفاق عام محدد بالذات كموازنات الزكاة وخمس الغنائم والضوائع فيحق لولى الأمر أن ينفق منها على أى وجه من الوجوه يحقق المنفعة العـامة للرعية ، هذا ويجوز الانفاق من هذه الموازنة على وجوه الانفاق المحددة للزكاة أو خمس الغنائم ، فاذا كانت حصيلة الزكاة لا تكفى لتغطية حاجة الفقراء ، والمساكين واذا كانت الموارد من خمس الغنائم لا تكفى لاشباع ضرورات اليتامى والمساكين جاز لولى الأمر أن ينفق عليهم من ايرادات الجزية والخراج وعشورة التجارة . وبالعكس لا يجوز النقل نهائيا من ايرادات الزكاة وخمس الغنائم للانفاق منها على المصالح العامة لأن فى ذلك انتقاص لحقوق الفقراء والمساكين ، الا اذا أخذنا بالرأى الذى يرى أن الانفاق على المصالح العامة يعتبر انفاقا فى سبيل الله وهو أحد وجوه انفاق الزكاة •

ونناقش فيما يلى الايرادات العامة لهذه الموازنة ونفقاتهـا العامة بادئين بالايرادات العامة وهى الجزية والخراج وعشور التجارة فى هذا الفصل ثم نتبعها بالنفقات العامة فى الفصل الثانى •

الايرادات العامة من الجزية فى عهد عثمان بن عفان

استقرار المسائل الفنية للجزية حينما آلت الخلافة لعثمان بن عفان :

استقرت أحكام الجزية وقواعدها ونظام تطبيقها وتحصيلها فى عهد عمر بن الخطاب ، ولذلك كان دور بيت المال فى عهد عثمان بن عفان أن يتلقى ما يتم تحصيله من جزية بعد الاتفاق على قيمتها وأن تقر الدولة ما تم عقده من صلح فى عهود سابقة أو اقرار صلح جديد وأن تتكفل الدولة لمن أدوا الجزية بالحقوق التى تترتب على هذا الأداء ، وفى ضوء ذلك نوضح فيما يلى بعض نواحى تطبيق الجزية فى عهد عثمان (١) ٠

نماذج مما آل لبيت المال من ايرادات الجزية فى عهد عثمان :

ــ غزا الوليد بن عقبة فى امارته على الكوفة فى عهد عثمان أذربيجان وصالح أهلها على ثمانمائة ألف درهم حبسوها عند وفاة عمر فوطئهم بالجيش فانقادوا له وقبض منهم المال (٢) ٠

ــ لما وجه عثمان عبد الله بن سعد الى افريقية كان الذى صالحهم عليه بطريق افريقية جرجير ألفى ألف دينار وخمسمائة ألف دينار وعشرين ألف دينار ، وكان الذى صالحهم عليه عبد الله ثلثمائة قنطار ذهب (ولعل ذلك يعادل المبلغ الأول) (٣) ٠

ــ صلح قبرص وقع على جزية سبعة آلاف دينار يؤدونها الى المسلمين (٤) ٠

ــ صالح سعيد بن صالح أهل جرجان وكان يجبون أحيانا مائة ألف ويقولون هذا صلحنا وأحيانا مائتى ألف وأحيانا ثلاثمائة ألف (٥) ٠

ــ غلب عبد الله بن عامر على نيسابور وخرج الى سرخس فأرسل اليه أهل مرو يطلبون الصلح فبعث اليهم ابن حاتم الباهلى فصالح مرزبان مرو على ألفى ألف وقال آخر صالحهم على ستين ألف درهم (٦) .

---

(١) الطبرى ــ الجزء الرابع ــ مرجع سابق ، ص ٢٤٧ ٠
(٢) الطبرى ــ الجزء الرابع ــ مرجع سابق ، ص ٢٥٦ ٠
(٣) الطبرى ــ الجزء الرابع ــ مرجع سابق ، ص ٢٦٢ ٠
(٤) الطبرى ــ الجزء الرابع ــ مرجع سابق ، ص ٣٠٣ ٠
(٥) المرزبان : الرئيس المقدم فى العجم ٠
(٦) الطبرى ــ الجزء الرابع ــ مرجع سابق ، ص ٣١٠ ، ٣١١ ٠

ـ سار الأحنف بن قيس الى بلخ فحاصرهم فصـــالحه أهلها على أربعمائة ألف ، فرضى منهم بذلك واستعمل ابن عمه وهو أســـيد بن المتشمس ليأخذ منهم ما صالحوه عليه (١) .

وفى ضوء ما سبق يمكن ايضاح ما آل لبيت المال من الجزية رقميا بالجدول التالى :

جدول يوضح مقدار الجزية التى آلت لبيت المال نتيجة بعض الفتوح أو الصلح فى عهد عثمان بن عفان

غزو أذربيجان وصلح أهلها	٨٠٠٠٠٠ درهم
صلح أفريقية مع جرجير	٢٥٢٠٠٠٠ دينار
	أو ٣٠٠ قنطار ذهب
صلح قبرص	٧٠٠٠ دينار
صلح أهل جرجان	١٠٠٠٠٠ درهم
	أو ٢٠٠٠٠٠ درهم
	أو ٣٠٠٠٠٠ درهم
صلح مرو	٢٠٠٠٠٠٠ درهم
	أو ٦٠٠٠٠ درهم
صلح بلخ	٤٠٠٠٠٠ درهم

عثمان بن عفان ينفذ كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم لأهل نجران :

كان النبى صلى الله عليه وســلم قد أقــر أهــل نجران على شروط اشترطها عليهم واشترطوها هم وكتب لهم بذلك كتابا يوضـــح هذه الشروط ومنها دفعهم الجزية ومقدارها ، ثم جاءوا بعد الرسول صلى الله عليه وسلم فكتب لهم أبو بكر رضى الله عنه كتابا بهـــذه الشروط ، ثم جاءوا من بعد أن استخلف عمر رضى الله عنه اليه وكان عمر قد أجلاهم عن نجران اليمن وأسكنهم بنجران العراق لأنه خافهم على المسلمين وكتب لهم كتابا (٢) .

فلما قبض عمر رضى الله عنه واستخلف عثمان بن عفان أتوه الى المدينة فكتب لهم الى الوليد بن عقبة وهو عامله الكتاب التالى :

(١) المرجع السابق ، ص ٣١٣ .

(٢) كتاب الخراج للقاضى أبى يوسف يعقوب بن ابراهيم ، ص ٧٤ .

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عثمان أمير المؤمنين الى الوليد بن عقبة سلام الله عليك ، فانى أحمد الله الذى لا اله الا هو ، (أما بعد) فان الأسقف والعاقب وسراة أهل نجران الذين بالعراق ، أتونى فشكوا الى وأرونى شرط عمر لهم ، وقد علمت ما أصابهم من المسلمين ، وانى قد خففت عنهم ثلاثين حلة من جزيتهم تركتها لوجه الله تعالى جل ثناؤه ، وانى وفيت لهم بكل أرضهم التى تصدق عليهم عمر عقبى مكان أرضهم باليمن ، فاستوص بهم خيرا . فانهم أقوام لهم ذمة . وكانت بينى وبينهم معرفة ، وانظر صحيفة كان عمر كتبها لهم فأوفهم ما فيها ، واذا قرأت صحيفتهم فارددها عليهم والسلام .

كتبه حمران بن أبان للنصف من شعبان سنة سبع وعشرين » .

ومما سبق يتضح :

ـ أن عثمان أوفى بعهد الرسول صلى الله عليه وسلم وعهد صاحبيه رضى الله عنهما من بعده وأن ذلك ينبع من مبدأ عام فى الاسلام وهو أن من عقد عقدا أو عهد عهدا أو وعد وعدا أوفى به .

ـ خفف عثمان عنهم الجزية ووفى لهم بكل أرضهم وطلب من عامله الوليد بن عقبة أن يوفى لهم بما ورد فى كتاب عمر رضى الله عنه وأن يستوصى بهم خيرا لأنهم أقوام لهم ذمة .

ويوضح أبو يوسف طريقة معاملة أهل الذمة عموما فيقول :

ويوفى لهم بذمتهم ولا يحملوا فوق طاقتهم ولا يظلموا ولا يعسروا ولا يخسروا ولايكلفوا مؤونة ولا نائبة وأن يبعث اليهم من يجبيهم فى بلادهم ولا يلزم نساءهم ولا صبيانهم فى رؤوسهم جزية من الحلل ولا من غيرها » (١) .

اهل الكتاب فى ذمة المسلمين فى عهد عثمان ماداموا يؤدون الجزية :

بعد انتصار عمرو بن العاص فى الاسكندرية وكان قد جمع من القرى أثناء الحرب ما أصاب أهل القرى فجاءه أهل تلك القرى ممن لم يكن نقض ،

فقالوا : قد كنا على صلحنا وقد مر علينا هؤلاء اللصوص (أى الروم) وأخذوا متاعنا ودوابنا .

وهو قائم بين يديك .

---

(١) كتاب الخراج ، للقاضى أبى يوسف بن ابراهيم ، ص ٧٤ .

فرد عليهم عمرو ما كان لهم من متاع عرفوه وأقاموا عليه البينة ٠

وقال بعضهم لعمرو : ما حل لك ما صنعت بنا ، كان لنا أن تقاتل عنا لأنا فى ذمتك ٠ ولم ننقض فأما من نقض فأبعده الله ٠

فندم عمرو وقال : ياليتنى كنت لقيهم حين خرجوا من الاسكندرية٠

فانظر كيف أن نظام الجزية يرتب لمن يدفعونها من أهل الكتاب حقوقا تمسكوا بها وهى حمايتهم نظير ما يدفعون ، بالرغم من أنهم لا يشتركون فى الدفاع عن البلاد مع المسلمين ، فلم تكن الجزية فى الاسلام عقوبة على أهل الكتاب كما يدعى بعض الكتاب وانما يدفعونها نظير حقوق يحصلون عليها من الدولة الاسلامية ومن هذه الحقوق حق الحماية وحق الرعاية ، وقد أقرهم عمرو بن العاص على هذه الحقوق وندم على ما فعل ورد اليهم أموالهم ولم يعتبرها غنيمة يؤول منها لبيت المال الخمس وتوزع الأربع أخماس الباقية على المسلمين الذين اشتركوا فى القتال ٠

مشاركة أهل الذمة فى الأعباء العامة فى عهد عثمان :

ومما يذكر بشأن فتح الاسكندرية الثانى فى خلافة عثمان بن عفان مما يتصل بالجزية أن صاحب اخنا وكان اسمه طلما قدم على عمرو ابن العاص ٠

فقال : أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فيصبر لها ؟

فقال عمرو وهو يشير الى ركن كنيسة : انما أنتم خزانة لنا ان كثر علينا كثرنا عليكم ، وان خفف عنا خففنا عنكم ٠

فغضب صاحب اخنا فخرج الى الروم فقدم بهم فهزمهم الله واسر فأتى به الى عمرو ،

فقال له الناس : أقتله ٠

فقال : لا ٠

وقيل ان عمرا لما أتى به سوره وتوجه وكساه برنس أرجوان ،

وقال له : ائتنا بمثل هؤلاء ٠

فرضى بأداء الجزية ٠

فقيل لطلما : لو أتيت ملك الروم ٠

فقال : لو أتيته لقتلنى وقال قتلت أصحابى (١) ٠

---

(١) فتوح مصر واخبارها ـ مرجع سابق ـ ص ١٢٠ ٠

ومما يسترعى النظر فى هذه المناقشة من ناحية السياسة المالية قول عمرو بن العاص ، « انما أنتم خزانة لنا ان كثر علينا كثرنا عليكم وان خفف عنا خففنا عنكم » •

وبتحليل قول عمرو يمكن استنتاج المبادىء التالية لسياسة المالية العامة بالنسبة لغير المسلمين فى مصر فى عهد عثمان بن عفان :

ـ أهل الذمة يساهمون فى بيت مال المسلمين بما يؤدونه من جزية ، فهم خزانة لبيت المال يحصل منها بيت المال على نصيبه فى أموالهم على هيئة جزية •

ـ أن هذا النصيب فى أموال أهل الذمة يتحدد فى ظل الأعباء الملقاة على الدولة فان كبر هذا العبء ارتفعت قيمة الجزية وان خف هذا العبء خفت قيمة الجزية •

ـ هذا التحول فى قيمة الجزية ارتفاعا وانخفاضا مع أعباء الحكم ينبثق من مبدأ المشاركة المالية من الشعب فى الأعباء بحيث يساهم كل على قدر طاقته وبما يحقق العدالة فى توزيع الأعباء وفى ظل الوصايا التى أوصى بها الرسول الكريم بحسن معاملة أهل الذمة عامة وأهل مصر خاصة واتبعها الخلفاء الراشدون من بعده رضى الله عنهم •

فبالنسبة لأهل الذمة عامة سبق أن أوضحنا وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم • وأما بالنسبة لأهل مصر خاصة فيروى عن سعيد بن ميسرة عن اسحاق بن الفرات عن ابن لهيعة عن الأسود بن مالك الحميرى عن بحير بن ذاخر المعفارى ، عن عمرو بن العاص عن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« ان الله عز وجل سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا ، فان لكم منهم صهرا وذمة » (١) ••

وهذا يدعونا الى بحث النظام الذى كان مطبقا فى مصر فى عهد عثمان بن عفان لتقرير هذه المشاركة المالية فى الأعباء العامة •

نظام تحديد اعباء الجزية والخراج فى مصر فى عهد عثمان بن عفان :

كان عمرو بن العاص لما استوثق له الأمر فى مصر أقر قبطها على جباية الروم ، وكانت جبايتهم بالتعديل اذا عمرت القرية وكثر أهلها زيد

---

(١) فتوح مصر وأخبارها ـ مرجع سابق ـ ص ١٤ •

عليهم وان قل أهلهـا وخربت تفصـوا ، فيجتمع عرفاء (١) كل قرية ومارونها (٢) ورؤساء أهلها فيتناظرون فى العمارة والخراب ٠

اذا أقروا من القسمة بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة الى الكور (٣) ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسـعة المزارع ٠

ترجع كل قرية بقسمهم فيجمعون قسمهم وخراج كل قرية وما فيها من الأرض العامرة فيخرجون من الأرض فدادين لكنائسـهم وحماماتهم ومعداتهم من جملة الأرض ثم يخرج منها عدد لضيافة للمسلمين ونزول السلطان ٠

ـ اذا فرغوا نظروا الى ما فى كل قرية من الصناع والاجراء فقسموا عليهم بقدر احتمالهم فان كان فيها جالية قسموا عليها بقدر احتمالها ٠

ـ ينظرون ما بقى من الخراج فيقسمونه بينهم على عدد الأرض ثم يقسمون ذلك بين من يريد الزرع منهم على قدر طاقتهم ٠

ـ ان عجز أحد وشكا ضعفا عن زرع أرضه وزعوا ما عجز عنه على الاحتمال (أى على من يحتمل العبء) ٠

ـ ان كان منهم من يريد الزيادة أعطى ما عجز عنه أهل الضعف (أى غير القادرين) ٠

ـ فان تشاحوا (أى اختلفوا) قسم ذلك على عدتهم (أى جماعتهم) ٠

ـ كانت قسـمتهم على قراريط ، الدينار أربعـة وعشرين قيراطا يقسمون الأرض على ذلك ٠

الجزية فى عهد عثمان كانت أحيانا غير نقدية كما كان فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم :ـ

فقد صالح عبد الله بن سعد بن أبى سرح عامل عثمان بن عفان الأساود وهم بلاد النوبة فى سنة احدى وثلاثين ، وعقد هدنة أمان جاء فيها من جانب المسلمين « انا عاهدناكم وعاقدناكم أن توفونا فى كل سنة ثلاثمائة وستين رأسـا وتدخلون بلادنا مجتازين غير مقيمـين ، وكذلك ندخل بلادكم ، على أنكم ان قتلتم من المسلمين قتيلا فقد برئت

---

(١) عرفاء : من يديرون أمور الناس ٠

(٢) مارونها : نوع من الرؤساء ٠

(٣) الكور : مصدرها كوره وهى الأصقاع ومفردها الصقع ٠

منكم الهدنة وعلى أنكم ان أويتم مسلمين عبدا فقد برئت منكم الهدنة وعليكم رد أباق (١) المسلمين ومن لجأ اليكم من أهل الذمة » (٢) ٠

مناقشة ما قيل أن عثمان أخذ الجزية من البربر :

عن سعيد بن عفير قال : حدثنى يحيى بن أيوب عن يونس بن يزيد الأيلى عن الأيلى عن ابن شهاب « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ الجزية من مجوس هجر ، وأن عمر أخذ الجزية من مجوس فارس وأن عثمان أخذ الجزية من البربر » (٣) ٠

وقد ورد فى هامش كتاب الأموال لأبى عبيد « ولكن البربر لم يكونوا مجوسا بل كانوا وثنيين » ٠

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم كتب الى مجوس هجر يدعوهم الى الاسلام فمن أسلم قبل منه ومن قال لا ضربت عليه الجزية فى أن لا تؤكل له ذبيحة ولا تنكح له امرأة وقال عمر : ما أدرى ما أصنع بالمجوس وليسوا أهل كتاب ٠

فقال عبد الرحمن بن عوف رحمه الله : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« سنوا بهم سنة أهل الكتاب » ٠

واذا كانت الجزية مأخوذة من أهل الكتاب استنادا لقول الله تعالى :

« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » (النوبة/٢٩) ٠

وكان المجوس ليسوا أهل كتاب فقد أخذت منهم بعد الرسول صلى الله عليه وسلم بالسنة وقد كره بعض العلماء هذا التطبيق ٠

فعن أبى موسى الأشعرى قال : « لولا أنى رأيت أصحابى يأخذون الجزية ما أخذتها — يعنى المجوس — » ٠

فالجزية مخصوصة بأهل الكتاب بنص القرآن والمجوس لا يظهر أنهم أهل كتاب فلا وجه لأخذ الجزية منهم ولكن صح منهم الحديث بأخذ الجزية

---

(١) الآبق : العبد الهارب من سيده وجمعها آباق ٠

(٢) فتوح مصر واخبارها — مرجع سابق — ص ١٢٨ — ١٢٩ ٠

(٣) المعروف أن الفرس كان لهم كتاب وضعه لهم زرادشت ويزعم بعض الناس أن زرادشت كان نبيا ، كتاب الأموال ، لأبي عبيد ، ص ٤٠ ٠

منهم فوجب تطبيق السنة وان كان البعض يرى أن للمجوس شبهة كتاب. فقد اختلف البعض فى هذا الأمر فقد حدث أن فروة بن نوفل الأشجعى قال :

« ان هذا الأمر عظيم يؤخذ من المجوس الجزية وليســـوا بأهل كتاب ؟ »

فقام اليه المستورد بن الأحنف فقال :

« طعنت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتب والا قتلتك والله »

فارتفعا الى على بن أبى طالب كرم الله وجهه فقال :

سأحدثكما بحديث ترضيانه جميعا عن المجوس ،

ان المجوس كانوا أمة لهم كتاب يقرأونه وان ملكا لهم شرب حتى سكر ، فأخذ بيد أخته فأخرجها من القرية واتبعه أربعة رهط ، فوقع عليها وهم ينظرون اليه ، فلما أفاق من سكره قالت له أخته أنك صنعت كذا وكذا وفلان وفلان ينظرون اليك ،

فقال : ما علمت بذلك .

فقالت : فانك مقتول ولا نجاة لك الا أن تطيعنى .

قال : فانى أطيعك .

قالت : فاجعل هذا دينا وقل هذا دين آدم وحواء من آدم وأدع الناس اليه وأعرضهم على السيف فمن تابعك فدعه ومن أبى فاقتله .

ففعل فلم يبايعه أحد فقتلهم يؤمئذ حتى الليل .

فقالت له : انى أرى الناس قد اجترءوا على السيف وهم على النار لكع ، فأوقد لهم نارا ثم أعرضهم عليها ففعل فهاب الناس النار فتابعوه .

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : فأخذ منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لأجل كتابهم وحرم مناكحتهم وذبائحهم لشركهم (١) .

وعلى ضوء ذلك يكون الرأى فى البربر الذين أخذ عثمان منهم الجزية ان صح ذلك :

ــ أن البربر من المجوس فيكون عثمان بن عفان رضى الله عنه طبق سنة الرسول صلى الله عليه وسلم .

---

(١) كتاب الخراج للقاضى أبى يوسف يعقوب ، ص ١٣٠ .

ـ أن البربر ليسوا من المجوس وهم أهل كتاب فيكون عثمان قد طبق حكم آية الجزية .

ـ أن البربر من الوثنيين فما كان له أن يأخذ منهم الجزية لأنهم ليسوا أهل كتاب وانما يتبع بشأنهم ما يتبع مع الوثنيين عبدة الأوثان حكمهم القتل أو الاسلام ولا تقبل منهم الجزية (١) .

ـ أن عثمان بن عفان رضى الله عنه لم يأخذ الجزية من البربر أصلا وانما أخذها من المجوس وهو ما نرجحه لأن أحد المصادر فى الخراج أشارت الى أخذ عثمان الجزية من المجوس ولم تشر الى أنه أخذها من البربر ولأن عثمان صحابى جليل عاصر عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وعهد أبى بكر وعمر من بعده فلا يحتمل معه أن يخالف ما اتبعه الرسول صلى الله عليه وسلم وخليفتاه .

نموذج من صلح يتضمن الجزية فى عهد عثمان :

بعث مرزبان (٢) مروروذ فى سنة اثنتين وثلاثين هجرية الى الأحنف ابن قيس الذى بعثه عبد الله بن عامر اليها لفتحها الكتاب التالى طالبا الصلح .

الى أمير الجيش ،

« انا نحمد الله الذى بيده الدول يغير ما شاء من الملك ويرفع ما شاء بعد الذلة ويضع من شاء بعد الرفعة .

انه دعانى الى مصالحتك وموادعتك ما كان من اسلام جدى ، وما كان رأى من صاحبكم من الكرامة والمنزلة ، فمرحبا بكم وأبشروا ، وأنا أدعوكم الى الصلح فيما بينكم وبيننا على أن أؤدى اليكم خراجا ستين ألف درهم وأن تقروا بيدى ما كان ملك الملوك كسرى أقطع جد أبى حيث قتل الحية التى أكلت الناس وقطعت السبل من الأرضين والقرى بما فيها من الرجال ، ولا تأخذوا من أحد من أهل بيتى شيئا من الخراج ولا تخرج

---

(١) الخراج ، لأبى يوسف ، ص ١٣١ .
(٢) المرزبان : الرئيس المقدم منهم .

المرزبة (١) من أهل بيتى الى غيركم ، فان جعلت ذلك لى خرجت اليك ، وقد بعثت اليك ابن أخى ماهك ليستوثق منك بما سألت » .

فكتب اليه الأحنف :

بسم الله الرحمن الرحيم

من صخر بن قيس أمير الجيش الى باذان مرزبان مرورود ومن معه من الأساور والعجم سلام على من اتبع الهدى وآمن واتقى .

أما بعـــد

فان ابن أخيك ماهك قدم على ، فنصح لك جهده ، وأبلغ عنك ، وقد عرضت ذلك على من معى من المسلمين ، وأنا وهم فيما عليك سواء ، وقد أجبناك الى ما سألت وعرضت ، على أن تؤدى عن آكرتك وفلاحيك والأرضين ستين ألف درهم الى الوالى من بعدى من أمراء المســـلمين ، الا ما كان من الأرضين التى ذكرت أن كسرى الظالم لنفسه أقطع جد أبيك لما كان من قتله الحية التى أفسدت الأرض وقطعت السبل . والأرض لله ورسوله يورثها من يشاء من عباده ، وان عليك نصرة المسلمين وقتال عدوهم بمن معك من الأساورة ان أحب المسلمون ذلك وأرادوه ، وان لك على ذلك نصرة المسلمين على من يقاتل من أهل ملتك ، جار لك بذلك منى كتاب يكون لك بعدى ، ولا خراج عليك ولا على أحد من أهل بينك من ذوى الأرحام ، وان أنت أسلمت واتبعت الرسول كان لك من المسلمين العطاء والمنزلة والرزق ، وأنت أخوهم ، ولك بذلك ذمتى وذمة أبى وذمم المسلمين وذمم آبائهم .

شهد على هذا الكتاب

جزء بن معاوية ـ أو معاوية بن جزء السعدى

وحمزة بن الهرماس

وحميد بن الخيار المازنيان

وعياض بن ورقاء الأسيدى

وكتب كيسان مولى ثعلبة يوم الأحد من شهر الله المحرم

وختم أمير الجيش الأحنف بن قيس

ونقش خاتم الأحنف : نعبد الله (٢) .

---

(١) المرزبة : الرياسة فى العجم .

(٢) الطبرى ـ جزء ٤ ـ مرجع سابق ، ص ٣١٠ ، ٣١١

الايرادات العامة من الخراج فى عهد عثمان بن عفان

كثرة الفتـوحات الاسلامية فى عهـد عثمان أدت الى زيادة خراج الأرض :

امتدت فتوحات الاسلام فى عهد عثمان بن عفان على النحو الذى أوضحناه ، ونتج عن هذه الفتوحات أن دخلت الأرض الزراعية للبلاد المفتوحة في حوزة الدولة الاسلامية وكان عمر رضى الله عنه كما أوضحنا يعتبرها فيئا للمسلمين ويبقى عليها أهلها من أهل الكتاب الذين آثروا الابقـــاء على دينهم يزرعونها ويؤدون عنهـــا خـراج الأرض لبيت مال المسلمين • فيمكن القول أن خراج هذه الأراضى ساهم فى زيادة ايرادات بيت المال فى عهد عثمان بن عفان بسبب امتداد الفتوحات الاسلامية فى عهده ، خصوصا وأن عثمان كان يتابع الخراج الذى يرد لبيت المال من الأمصار كما يبين من الواقعة التالية :

متابعة مالية ونقاش عن خراج مصر فى عهد عثمان :

نزع عثمان بن عفان عمرو بن العاص عن خراج مصر واستعمل عبد الله بن سعد عليه ، فاختلفا •

فكتب عبد الله بن سعد الى عثمان يقول : ان عمرا كسر الخراج

وكتب عمرو : ان عبد الله كسر على حيلة الحرب

فعزل عثمان عمرو وولى عبد الله بن سعد الخراج والجند •

فقدم عمرو مغضبا فدخل على عثمان وعليه جبة يمانية محشوة قطنا

فقال له عثمان : ما حشو جبتك ؟

قال : عمرو

قال عثمان : قد علمت أن حشوها عمرو ولم أرد هذا انما سألت أقطن هو أم غيره •

وقد دخل عمرو على عثمان بعد ذلك وكان عبد الله بن سعد قد بعث الى عثمان بمال كثير من مصر •

فقال عثمان : يا عمرو هل تعلم أن تلك اللقاح درت بعدك •

فقال عمرو : ان فصالها هلكت (١) •

أراد عثمان أن عمرا كان يمنع الايرادات العامة عنه وأراد عمرو أن ابن أبى سرح يكلف أهل مصر فوق ما يطيقون •

---

(١) الطبرى ـ جزء ٤ ـ دار المعارف ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ •

وهذا النقاش يدل على أن عثمان بن عفان كان يتابع ما يؤول لبيت المال من خراج الأمصار ويستقصى أسباب هبوطه ، ويكون هذا الهبوط أحيانا سببا فى نوم الولاة بل وعزلهم · هذا ومتابعة الخليفـــة لأموال الخراج شبيه حاليا بنظم المتابعة المالية التى تضعها المصالح العامة للايراد للتحقق من تدفق الموارد ·

مسألتان متعلقتان بالخراج فى عهد عثمان :

نشأت فى عهد عثمان بن عفان مسألتان كان للرأى العام فيهمـا وجهة نظر وهما :

الأولى : بشأن سياسة عثمان فى اقطاع الأرض ·

الثانية : بشأن سياسة عثمان فى حمى الأرض ·

ونناقش فيما يلى كل مسألة ونوضح ما أثير بشأنها من نقاش ونبين وجهة نظر الخليفة بشأنها عندما ووجه بكل منها ·

سياسة عثمان بن عفان فى اقطاع الأرض :

أقطع عثمان بعض أراضى الدولة لبعض الصحابة يزرعونها ويؤدون ما عليها من فرائض دينية لبيت مال المسلمين وقد تعرضت هذه السياسة الى نقد من بعض المعارضـين فى أيام عثمـــان بن عفان وساندهم بعض الكتاب فيما بعد ، والنقد الذى وجه الى هذه السياسة يستند الى أن هذه الأرض من أرض السواد أى أرض خصبة وأنه ما كان لعثمان أن يؤثر بها البعض وهى أرض الدولة وان ذلك زاد من غنى هؤلاء الذين منحوا هذه الأرض ، والغنى الزائد للصحابة الذين كانوا تعودوا الزهـد أيام الرسول صلى الله عليه وسلم أمر غير مستحب قد يميـــل بهم عن القمة الدينية التى وصلوا اليها أيام الرسول ، وحاول صاحباه من بعده أن يبقوهم فى هذه القمة ، ونناقش الموضوع فيما يلى :

— من الذين أقطعهم عثمان الأرض ؟

يعدد أبو عبيد صحابة رسول الله صلى الله عليـــه وسلم الذين اقطعهم عثمان بن عفان ،

فقال : وحدثنى قبيصة عن سفيان عن ابراهيم بن مهاجر عن موسى ابن طلحة أن عثمان بن عفان أقطع خمسة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : الزبير وسعدا وابن مسعود وأسامة بن زيد وخباب بن الأرت — قال فكان جارى منهم ابن مسعود وخباب (١) ·

---

(١) الأموال ، لأبى عبيد ، ص ٣٥٣ ·

ـ نوع الأرض التى أقطعها عثمــان ، هل هى أرض بور أم أرض خصبة ؟ ٠

ويقول أبو عبيد : وأما اقطاع من أقطع من الصحابة وقبولهم اياه فان قوما قد تأولوا أن هذا من السواد ، وقد سألت قبيصة هل كان فيه ذكر السواد ؟ فقال : لا ٠

فان يكن كما تأولوا فانه عندى من الأصناف التى كان عمر أصفاها من أرض السواد (١) وقد أصفى عمر من السواد عشرة أصناف منها أرض من قتل فى الحرب (٢) وأرض من هرب من المسلمين وكل أرض لكسرى وكل أرض لأهل بيته وكل مغيض ماء (٣) وكل دير بريد (٤) ٠

ويقول أبو عبيد :

« فهذه كلها أرضون قد جلا عنها أهلها ، فلم يبق بهــا ساكن لها ولا عامر ، فكان حكمها الى الامام كما ذكرنا فى عادى الأرض ، فلما قام عثمان رأى أن عمارتها أرد على المسلمين وأوفر لخراجهم من تعطيلها فأعطاها من رأى اعطاءه على أن يعمروها كما يعمر غيرها غيرهم ويؤدوا عنها ما يجب للمسلمين عليهم (أى من فرائض مالية) ٠ فاما أن يكون وجه هذا عندى على ما يحمله عليه ناس من الناس فلا ٠ وقد روى عن عمر التغليظ فى مثل ذلك (٥) » ٠

ويؤيد أبو عبيد قوله :

« بأن أسماء القرى التى كان عثمان أقطعها هى صعنبا والنهرين وقرية هرمز وكان هرمز أحد الأكاسرة ، فهذا مفسر لما قلنا انه انما أقطع من تلك الأرضين التى لم يبق لها رب (٦) وأما اقطاع عثمان بن أبى العاص بالبصرة الأرض التى تعرف بشط عثمان فان أرض البصرة كانت يومئذ كلها سباخا وآجاما (٧) فأقطع عثمان بن أبى العــاص الثقفى بعضــها فاستخرجها وأحياها السباخ ، بعد أن كانت موات كما قلنا (٨) ٠

ومما سبق يبين أن الأرض التى أقطعها عثمان بن عفان للصحابة

---

(١) الأموال ، لأبى عبيد ، ص ٣٥٩ ٠

(٢) من قتل فى الحرب أى من الكفار ٠

(٣) مغيض ماء : الأرض المنخفضة التى يتجمع فيها الماء ٠

(٤ ، ٥) الأموال ، لأبى عبيد ، ص ٣٦٠ ٠

(٦) رب : أى مالك ٠

(٧) سباخا وآجاما : أى غير صالحة للزراعة ٠

(٨) الأموال ، لأبى عبيد ، ص ٣٦١ ٠

ليست من الأراضى الخصبة المنزرعة فعلا وانما هى أرض كانت تحتاج الى الاصلاح .

مناقشة سياسة عثمان فى اقطاع الأرض من الناحية الدينية :

ـ ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم والخليفة الصديق والفاروق عمر قد طبقوا مبدأ اقطاع الأرض للغير ، وبذلك لم يخالف عثمان بن عفان سنة الرسول صلى الله عليه وسلم وما اتبعه خليفتاه من بعده .

ـ فقد أقطع رسول صلى الله عليه وسلم رجلا من الأنصار يقال له سليط فكان يخرج الى أرضه التى أقطعها اياه الرسول صلى الله عليه وسلم فيقيم بها الأيام ثم يرجع الى المدينة فيقال له :

« لقد نزل من بعدك من القرآن كذا وكذا وقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كذا وكذا .. »

فانطلق الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

« يا رسول الله ان هذه الأرض التى أقطعتنيها قد شغلتنى عنك ، فاقبلها منى ، فلا حاجة لى فى شىء يشغلنى عنك » .

فقبلها النبى صلى الله عليه وسلم منه .

فقال الزبير : يا رسول الله اقطعنيها .

فأقطعها اياه (١) .

وقال أبو ثعلبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يارسول الله أكتب الى بأرض كذا وكذا .. أرض هى يومئذ بأيدى الروم .

فكان أعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى قال ثعلبة فقال عليه الصلاة والسلام .

« ألا تسمعون ما يقول »

قال ثعلبة : والذى بعثك بالحق لتفتحن عليك .

فكتب الرسول عليه السلام له بها (٢) .

ومما يلاحظ أن ثعلبة أقسم على أمر مستقبل وهو غيب لا يعلمه

---

(١) الأموال ، لأبى عبيد ، ص ٣٤٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٤٩ .

الا الله وانما كان ذلك استنادا الى ما في القرآن من مثـل قوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » (التوبة/٣٣) « والله متم نوره » (الصف/٨) وقوله عليه الصلاة والسلام « والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت لا يخشى الا الله والذئب على غنمه » ٠

لما أسلم تميم الدارى قال :

« يارسول الله ان الله مظهرك على الأرض كلها فهب لى قريتى من بيت لحم » ٠

قال : هى لك وكتب له بها ٠

فلما استخلف عمر وظهر على الشام جاء تميم الدارى بكتاب النبى صلى الله عليه وسلم ،

فقال عمر : أنا شاهد ذلك ـ فأعطاها اياه ٠

ـ وثبت كذلك أن أبابكر رضى الله عنه وافق على اقطاع طلحة بن عبيد الله أرضا ولعيينة بن حصن وكتب لكل منهما كتابا وأرادا أن يختم عمر على هذين الكتابين ولكن عمر رضى الله عنه لم يوافق وأقر أبو بكر رأى عمر ٠

ـ وثبت كذلك أن عمر بن الخطاب أتاه رجل من أهل البصرة من ثقيف يقال له نافع أبو عبد الله فقال لعمر بن الخطاب ٠

« ان قبلنا أرضا بالبصرة ليست من أرض الخراج ولا تضر بأحد من المسلمين ، فان رأيت أن تقطعنيها اتخذ فيها قصبا لخيلى فافعل ٠ »

فكتب عمر الى أبى موسى الأشعرى ان كانت كما يقـــول فاقطعها اياه ٠

مناقشة سياسة عثمان فى اقطاع الأرض من الناحية الاقتصادية :

أثبت أبو عبيدة أن الأرض التى أقطعها عثمان رضى الله عنه أرض موات ، فاذا أقطعها الخليفة للبعض فعمروها فهى لهم ، استنادا لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذى روته عائشة رضى الله عنها وهو :

« من عمر أرضا ليست لأحد فهو أحق بها » ٠

والتعمير اما أن يكون تعميرا زراعيا فتؤتى الأرض غلتها باذن ربها فيزيد الانتاج ويوظف العمال وينقل التجار المحصـــولات من مكانها الى الأسواق لتشبع حاجات المستهلكين وتساهم زيادة الانتاج فى زيادة الدخل القومى ٠

واما أن يكون تعمير الأرض بتقسيمها وبيعها واقامة المبانى عليها فتحرك حركة البناء الأنشطة الاقتصادية الأخرى وتكون هذه المبانى مساكن للمسلمين أو محال للمتجرين أو أرباب الحرف وأصحاب الصناعات .

ويساهم ذلك كله فى زيادة موارد بيت مال المسلمين بما يؤديه الجميع من زكاة على أموالهم اذا توفرت شروطها ، وما كان عثمان بمستطيع أن يجعل الدولة فى عهده تقوم بعملية التعمير لأن فلسفة تدخل الدولة فى الحياة الاقتصادية لم تكن مألوفة وقتئذ ولم تظهر الا بعد خلافته بمئات السنين فضلا عما يعترى قيام الدولة حاليا باستصلاح البور من أراضيها من عيوب منها ارتفاع تكلفة الاستصلاح وبطء خطواته وطول اجراءاته -

ويعلق أحد الكتاب على اقطاع عثمان من الناحية الاقتصادية فيقول :

« وقد نجح مشروع عثمان بدليل زيادة ايراد الدولة من أملاكها الخاصة فى العراق اذ بلغت خمسين ألف ألف درهم بعد أن كانت ٩٠٠٠ر٠٠٠ درهم فى عصر الخليفة عمر » (١) .

مناقشة سياسة عثمان فى اقطاع الأرض من الناحية الاجتماعية :

على أن لموضوع سياسة عثمان بشأن اقطاع الأرض آثارا اجتماعية ، فقد أدى تملك الصحابة لهذه الأرض الى زيادة ثروات بعضهم وكان منهم من يملكون أصلا ثروات كبيرة تكونت من التجارة فساهم تملك الأرض فى زيادة ما يملكون .

وقد كان بجانب هؤلاء الأغنياء فقراء واجتمع الغنى والفقر فنشأ ما ينشأ عادة بينهما من مقارنات وتحرك أفكار وتولد مشاعر ، فالفقراء يقارنون حالهم بحال الأغنياء فمنهم من يصبر راجيا الدار الآخرة ومنهم من تتحرك وتتوالى أفكاره ، فيتذكرون كيف كان بعض الصحابة أيام الرسول صلى الله عليه وسلم يبيتون جائعين تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا وكيف صاروا الآن الى النعيم والغنى ، وقد أثر ذلك فى الفقراء فجعل بعضهم يتحمس للدعاوى التى تحركت فيما بعد موجهة النقد لسياسة عثمان فى اقطاع الأرض .

تنقل الصحابة فى الامصار زاد من حدة النقد لسياسة عثمان فى اقطاع الأرض :

ومما زاد فى الأثر الاجتماعى لاقطاع الأرض سماح عثمان بن عفان للصحابة بالتنقل الى الأمصار بعد ان كان عمر قد أبقاهم بجانبه وقد نقل

(١) النظام المالى الاسلامى ، للدكتور بدوى عبد اللطيف عوض ، ص ٦١ .

عثمان اليهم فيئهم حيث يقيمون ، وقدمهم على غيرهم من سكان هذه الأمصار تكريما لهم واعترافا بفضلهم في الاسلام .

فقد جاء بكتابه الى واليه سعيد بن العاص على الكوفة ما يلى :

« أما بعد ففضل أهل السابقة والقدم ومن فتح الله عليه تلك البلادَ ، وليكن من نزلها من غيرهم تبعا لهم الا أن يكونوا تناقلوا عن الحق وتركوه وقام به هؤلاء ، واحفظ لكل منزلته ولهم جميعا قسطهم من الحق ، فان المعرفة بالناس يصاب بها العدل » .

وحينما استقر بعض الصحابة فى البلاد التى سافروا اليها التف حولهم معجبون كثيرون شوقا الى أحاديث الرسول صلى الله عليه وأعماله وأصبحوا مراكز ثقل فى هذه البلاد تبعهم أناس كثيرون .

وجهة نظر عثمان فى اقطاع الأرض :

يقول عثمان بن عفان رضى الله عنه للصحابة مناقشا ما وجه الى سياسته من نقد بشأن اقطاع الأرض ،

قالوا : أعطيت الأرض رجالا ، وأن هذه الأرض شاركهم فيها المهاجرون والأنصار أيام افتتحت ، فمن أقام بمكان من هذه الفتوح فهو أسوة أهله ، ومن رجع الى أهله لم يذهب ذلك ما حوى الله له ، فنظرت فى الذى يصيبهم مما أفاء الله عليهم فبعته لهم بأمرهم من رجال أهل عقار ببلاد العرب فنقلت اليهم نصيبهم فهو فى أيديهم دونى (١) .

موقف السياسة المالية بشأن اقطاع عثمان الأرض للصحابة :

ذكرنا أنه لمقابلة التحديات التى سبقت عهد عثمان لا ينبغى على السياسة المالية أن تعمل على زيادة ثروات الصحابة حتى لا تكون زيادة الأموال سببا فى تعرض بعض الصحابة لفتنة الأموال ، وهو ما خشاه الرسول صلى الله عليه وسلم وما احتاط له صاحباه أبو بكر وعمر ، فعلى ذلك تكون السياسة المالية بتوزيع الأرض قد تعارضت مع هدف من الأهداف العامة وهو المحافظة على القمة الايمانية التى وصل اليها الصحابة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وباعتبار أن زيادة المال قد تكون من عوامل تقليل درجة الزهد التى بلغها الصحابة ، والاتجاه نحو التنعم بزينة الحياة الدنيا ، والطيبات من الرزق ، وهى غير محرمة ، ولكن التنعم أقل درجة من الزهد فى ميزان التقوى ، ومن ناحية أخرى فقد

---

(١) الطبرى ، جزء ٤ ، مرجع سابق ، ص ٣٤٨ .

ذكرنا أن موارد الدولة زادت نتيجة سياسة اقطاع الأرض فى عهد عثمان رضى الله عنه ، ويعتبر ذلك نجاح فى السياسة المالية العامة غير الاسلامية ، ولكن فى السياسة المالية العامة الاسلامية التى تطبقها الدولة الاسلامية اذا تعارض العامل المالى مع العامل الدينى فيرجح العامل الدينى الاسلامى ٠

سياسة عثمان فى حمى(١) الأرض :

ــ ومن المسائل التى أثيرت بشأن الأرض فى عهد عثمان سياسته فى حمى الأرض ، ففى حمى الأرض قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا حمى الا لله ولرسوله » رواه البخارى وأبو داوود ، وقال الشافعى معنى الحديث شيئين :

أحدهما : ليس لأحد أن يحمى للمسلمين الا ما حماه النبى صلى الله عليه وسلم ٠

والآخر : الا على ما حماه عليه النبى صلى الله عليه وسلم ٠

فعلى الأول ليس لأحد من الولاة أن يحمى بعد الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى الثانى يختص الحمى بمن قام مقام النبى صلى الله عليه وسلم وهو الخليفة خاصة ٠ وقال الرسول صلى الله علبه وسلم الناس شركاء فى الماء والكلأ والنار ٠

ــ ويقول أبو عبيد للحمى مواضع متفرقة وأحكام مختلفة ٠

فأول ما أباحه رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس كافة وجعلهم فيه أسوة وهو الماء والكلأ والنار ، وذلك أن ينزل القوم فى أسفارهم ، وبواديهم بالأرض فيها النبات الذى أخرجه الله للأنعام مما لم ينصب فيه أحد بحرث ولا غرس ولا سقى ، فهو لمن سبق اليه ليس لأحد أن ينتظر منه شيئا دون غيره ، ولكن ترعاه أنعامهم ومواشيهم ودوابهم معا ، وترد الماء الذى فيه كذلك أيضا ٠ فهذا الناس شركاء فى الماء والكلأ » ٠

« ومذهب الحمى لله ولرسوله يكون فى وجهين :

أحدهما : أن تحمى الأرض للخيل الغازية فى سبيل الله وقد عمل بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

والوجه الآخر : أن تحمى الأرض لنعم الصدقة الى أن توضح

---

(١) حمى الأرض : معناها منعها عن الناس ويقصد بها هنا تخصيص أرض نبت بها الكلأ نبتا طبيعيا من غير أن تزرع للخيل الغازية فى سبيل الله كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم والأنعام والزكاة الى أن تفرق على مستحقيها كما فعل عمر ٠

مواضعها وتفرق فى أهلها وقد عمل بذلك عمر ٠ » (١) ٠

ـ وكان هـذا الحمى يضـايق رعاة العرب لأنه يمنعهم من رعى مواشيهم فى الأرض التى حميت فقد أتى أعرابى عمر فقال :

« يا أمير المؤمنين بلادنا قاتلنا عليها فى الجاهلية وأسلمنا عليها فى الاسلام علام تحميها ؟ » ٠

قال عمر :

« المال مال الله والعباد عباد الله والله لولا ما أحمل عليه فى سبيل الله ما حميت من الأرض فى شبر » ٠

وقد حمى عمر لابل الصدقة ولابن السبيل جميعا (٢) ٠

ذلك هو مذهب الحمى كما أوضحه الرسول صلى الله عليه وسلم وطبقه عمر رضى الله عنه ، فلما آلت الخلافة لعثمان كان للناس شكوى بشأن الحمى ٠

فقد عارضوه فى أنه حدد أرضا ترعى فيها ابل الصدقة ولم يكن ذلك فى عهد النبى وصاحبيه ٠

وجهة نظر عثمان فى أرض الحمى :

وقد رد عليهم عثمان بن عفان رضى الله عنه قائلا :

« وقالوا حميت حمى وانى والله ما حميت حمى قبلى ، والله ما حموا شيئا لأحد ما حموا الا غلب عليه أهل المدينة ثم لم يمنعوا من رعيتـه أحدا واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها لئلا يكون بين من يليها وبين أحد تنازع ، ثم ما منعوا ولا نحوا منها أحدا الا من ساق درهما وما لى من بعير غير راحلتين ، ٠٠٠ وانى قد وليت وانى أكثر العرب بعيرا أو شاة ، فما لى اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجى ، أكذلك ؟ » فقال له الحاضرون: « اللهم نعم » ٠

وبذلك أوضح عثمان رضى الله عنه أنه لم يحم شيئا لأحد ، وانما حمى أنعام الصدقة لئلا يكون هناك تنازع بين الناس ، وأنه ليس له ولا لغيره من المسلمين فى أرض الحمى شاه ولا بعير ، وأنه حينما تولى كان أكثر العرب أنعاما وليس له وقتئذ الا بعيرين لحجه ٠ ونضيف الى ذلك

---

(١) الأموال ، لأبى عبيد ، ص ٣٧٢ ومابعدها ٠
(٢) المرجع السابق ، ص ٣٧٨ ٠

أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد حمى الأرض وحماها عمر من بعده كما أوضحنا فلا تثريب على عثمان بن عفان رضى الله عنه فى هذا الشأن ٠

المالية العامة الرشيدة تؤيد حمى عثمان لأنعام الصدقة :

الأنعام التى حمى عثمان لها الأرض هى أنعام الصدقة أى حصل عليها بيت المال من زكاة أرباب الأنعام . والأرض التى حفظت الدولة فيها هذه الأنعام حتى توزع على مستحقى الزكاة هى أرض فيها نباتات أخرجها الله دون حرب ولا غرس ولا سقى من أحد ، فاجراء عثمان بن عفان اجراء يتسم بترشيد الانفاق العام ، لأنه ان لم يحم هذه الأرض لأنعام الصدقة كان على الدولة أن نبحث على أرض أخرى مزروعة بمعرفة الناس فتستأجرها منهم ، مما يلقى أعباء على بيت مال المسلمين ، فما فعله عثمان فيه اقتصاد لنفقات الزكاة حتى لا تبتلع نفقة تحصيل الزكاة جزءا هاما من ايراداتها ويقل بذلك ما يؤول الى الفقراء والمساكين ولسائر أوجه مصارف الزكاة ، ومن سمات الفريضة المالية أو الضريبة الجيدة أن تكون نفقات الدولة لتحصيلها أقل ما يمكن وبذلك تتسم بسمة الاقتصاد وهذا ما فعله عثمان فى أنعام الزكاة ٠

زيادة الايرادات من عشور التجارة فى عهد عثمان بن عفان :

أوضحنا القواعد العامة لعشور التجارة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب وفى عهد عثمان بن عفان يبدو بصفة عامة أن ايرادات بيت المال زادت من عشور التجارة نتيجة لزيادة رقعة الدولة الاسلامية بسبب الفتوحات التى تمت فى عهده ونتيجة لزيادة الثروات لدى البعض مما زاد القوة الشرائية بصفة عامة خصوصا فى السنوات الأولى من عهد عثمان بن عفان التى اتسمت بالاستقرار وزيادة القوة الشرائية تزيد الطلب على السلع وزيادة الطلب على السلع تدعو الى تنشيط استيرادها وخضوعها لعشور التجارة متى توفرت شروط الاخضاع ٠

ومن العوامل التى أدت الى زيادة حصيلة عشور التجارة فى عهد عثمان بن عفان ارتفاع الأسعار ، وقد سبق أن أوضحنا نماذج لذلك (١) ، وارتفاع أسعار السلع يؤدى بالتالى الى زيادة حصيلة عشور التجارة منها لأنها ضريبة قيمية تؤخذ بنسبة معينة على قيمة السلعة ، وليست نوعية تؤخذ على نوع السلعة ٠

---

(١) ورد ذلك فيما سبق تحت عنوان « الاتفاق العام من خمس الغنائم » ٠

الفصل الثانى

نفقات المصالح العـــامة
فى عهد عثمان بن عفـان

سمات الانفاق العام فى المالية العامة الاسلامية :

من المهم أن نهتدى الى بعض المبادىء العـامة للانفاق العـام التى تضمنتها الشريعة الاسلامية لأن البعض قد وجه النقد الى بعض وجوه الانفاق العام فى عهد الخليفة عتمان بن عفان رضى الله عنه ، وذلك حتى نسترشد بها فى مناقشة هذا النقد ، وفيما يلى بعض هذه المبادىء مدعمة بالآيات القرآنية :

ـ ترشيد الانفاق العـام

والترشيد هو جعل الانفاق العام رشيدا أى يتسم بالصلاح وكى يتسم الانفاق العام بالصلاح ينبغى أن يحقق فى أمور الدنيا أقصى منفعة ممكنه من انفاقه وأن تعود المنفعة على الأمة جمعاء أو شريحة منها فلا يوجه الانفاق العام لمصلحة فرد دون غيره ، وأن يكون خاليا من الاسراف والتقتير لأن فى الاسراف ضياع للأموال ، ولأن التقتير يقصر بالنفقة العامة عن أن تحقق أهدافها ، فاذا كانت تلك النفقة للصرف على خدمة عامة للرعية هبطت جودة أداء الخدمة بسبب التقتير أو ضاق نطاقها فيحصل أفراد الرعية على خدمات عامة غير جيدة أو لا يحصل بعضهم عليها أصلا ·

ويصف القرآن المجيد انفاق الراشدين من المؤمنين فيقول :

« والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » (الفرقان /٦٧) ·

ـ حسن اختيار القائمين على الانفاق العام

وكى يكون الانفاق العام مرشدا ، يجب أن يتولاه من يحسن ادارته فتتوفر فيه المواصفات اللازمة من خبرة وأمانة وحسن تصرف وفى ذلك يقول الله تعالى :

« ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما » (النساء/٥)·

- ملائمة الانفاق العام للحالة العامة

يؤثر الانفاق العام فى حالة المجتمع ، فاذا كان بعض أفراد المجتمع فى حالة غنى والبعض الآخر فى حالة فقر أخذت الدولة من الأغنياء فى هيئة زكوات وضرائب وقامت بالانفاق العام على الفقراء سواء على هيئة اعانات أو خدمات عامة تؤدى لهم كالتعليم المجانى أو العلاج بدون أجر أو تدعيم السلع التى تستهلكها الشريحة الفقيرة فى المجتمع وبيعها لهم بأسعار مخفضة ، وان كان المجتمع فى حالة تخلف عام بأن كان متوسط الدخل القومى منخفضا انفقت الدولة على مشروعات عامة تزيد الدخل القومى وترفع مستوى معيشة الشعب وبذلك يكون الانفاق العام فى هاتين الحالتين انفاقا ملائما ويتحقق بذلك الاحسان فى توجيه الانفاق العام الوارد فى قوله جل وعلا :

« الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » (آل عمران / ١٣٤) .

هذا وتنطبق هذه المبادىء على كافة أنواع الانفاق العام العلنى منها والسرى الذى ينفق على الحروب لأن الله جل وعلا كما أباح الانفاق العلنى ، أباح الانفاق السرى مادام يتصف بالمواصفات الطيبة التى تضمنتها أحكام الشريعة الاسلامية ، فيقول الله جل وعلا :

« قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال » (ابراهيم / ٣١) .

أنواع النفقات العامة للموازنة العامة فى عهد عثمان :

يمكن تقسيم أنواع الانفاق العام من حيث طبيعتها أو الأغراض التى تنفق عليها الى نوعين رئيسيين :

- نفقات عامة لادارة الدولة كمرتب الخليفة ومرتبات الولاة ، والعمال ونفقات بعثة الحج التى كان يقوم بها خليفة المسلمين سنويا ونفقات اضاءة المساجد وكسوة الكعبة .

- نفقات المشروعات العامة كأقامة المساجد أو توسعتها وحفر الآبار .

وهناك نوع آخر من الأموال العامة يخرجها بيت المال تشابه فى طبيعتها النفقة العامة وهى الأعطيات التى يخرجها بيت المال وكانت

تعطى للمسلمين فى ظل نظـام الأعطيات الذى نوهنـا عنه فى عهـــد أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما والفرق بين الأعطيات والنفقات العامة أن الاعطيات لا تمنح الا اذا زادت الايرادات العامة وتحقق فائض تصرف منه ، بينما أن النفقـات العامة تكون فى حـدود الموارد العـامة المتاحة ٠

وفى ضوء ماسبق نناقش فيما يلى بعض النفقـات العـامة فى عهد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه ٠

مرتب الخليفة عثمان وتقشف الخليفتين قبله :

ـ تتحمل موازنات الدول الحديثة أعباء قيام رئيس الدولة بمهام عمله سواء أكانت هذه الأعباء تتمثل فى مرتبه الذى يتقاضاه من الدولة أو نفقات اقامته أو تنقلاته الداخلية والخارجية أو نفقات الأمن اللازمة لحراسته أونفقات الضيـافة المرتبطة بعملـه وأية نفقـات عامة أخرى يتطلبها القيام بمنصبه ٠

ـ وقد طبق عمر بن الخطاب ومن قبله أبو بكر رضى الله عنهما المبدأ فى حدود ضـيقة وذلك بأن الصـحابة طلبوا منهما أن يتوقفا عن التجارة ليتفرغا لمهام الدولة وشئونها وحددوا لكل منهما مرتبا يتقاضاه من بيت المال علاوة على ما كان يتقاضاه من عطاء بيت المال كأحد أفراد الأمة الاسلامية وعاش كل منهما عيشة الزهد والتقشف ، مانعا أفراد أسرته وذوى قرباه من أن ينال أحدهم أية مزية مالية من بيت المال ٠

ولما حضرت أبو بكر رضى الله عنه الوفاة قال لابنته عائشة وهى تمرضه :

« أما والله لقد كنت حريصا على أن أوفر فىء المسلمين ، على أنى قد أصبت من اللحم واللبن ، فانظرى ما كان عندنا فأبلغيه عمر » ٠

وما كان عنده دينار ولا درهم ، ما كان الا خادما ولقحة (١) ومحلبا، فلما رجعوا من جنازته أمرت به عائشة الى عمر (٢) ٠

فقال : رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده (٣) ٠

وأيام خلافة عمر بن الخطاب أوضح ما يحل له من بيت المال فقال : الا أخبركم بما أستحل من مال الله ، حلتين حلة الشـتاء والقيظ

---

(١) اللقحة : هى الناقة القريبه العهد باللقاح ٠

(٢) الأموال ، لأبى عبيد ، ص ٣٤ ٠

(٣) اى أن ما طبقه من الزهد والحرص على أموال المسلمين سيتعب من بعـده لأنه من الصعب أن يقتدى به ٠

(شدة الحر) وما أحج عليه وأعتمر من الظهر وقوت أهلي كرجل من قريش ، ليس بأغناهم ولا بأفقرهم ثم أنا رجل من المسلمين يصيبني ما أصابهم ·

ـ فلما ولي عثمان وكان شيخا كبيرا لم يستطع أن يجاري تقشف الخليفتين من قبله وكان قد اعتاد قبل الخلافة حياة التنعم ورغد العيش ·

فقد روى عن عمر بن أمية الصخرى أنه قال :

وانى كنت أتعشى مع عثمان خزيرة (شبه عصيدة باللحم) من طبخ من أجود ما رأيت قط فيها بطون الغنم وأدمها اللبن والسمن ·

فقال عثمان : كيف ترى هذا الطعام ·

فقلت : هذا أطيب ما أكلت قط ·

فقال عثمان : يرحم الله ابن الخطاب ما أكلت معه هذه الخزيرة قط ·

قلت : نعم فكادت اللقمة تفرث في يدى حين أهوى بها الى فمى وليس فيها لحم وكان أدمها السمن ولا لبن فيها ·

فقال عثمان : ان عمر رضى الله عنه أتعب والله من تبع أثره ، وانه كان يطلب بثنية عن هذه الأمور ظلفا (غلظا فى المشية) · أما والله ما آكله من مال المسلمين ولكن آكله من مالى ، أنت تعلم أنى كنت أكثر قريش مالا وأجدهم فى التجارة ولم أزل آكل من الطعام ما لابد منه وقد بلغت سنا فأحب الطعام الى ألينه ولا أعلم لاحد على فى ذلك تبعة (١) ·

وعن عبيد الله بن عامر قال :

« كنت أفطر مع عثمان في شهر رمضان فكان يأتينا بطعام هو الين من طعام عمر ، فقد رأيت على مائدة عثمان الدرمك (نوع من الدقيق الجيد) وصغار الضأن كل ليلة . وما رأيت عمر قط أكل الدقيق منخولا ، ولا أكل من الغنم الا مسانها وقيل لعثمان فى ذلك ·

فقال : يرحم الله عمر ومن يطيق ما كان عمر يطيق (١) ·

هاتان مائدتان من موائد عثمان بن عفان ·

ونورد فيما يلي مائدة من موائد عمر بن الخطاب ·

---

(١) مع الخلفاء الراشدين ، عبد الخالق أبو رابية ، ص ٧٧ ·

(١) مع الخلفاء الراشدين ، عبد الخالق أبو رابية ، ص ٧٧ ·

وصل رسول سلمة بن قيس الاشجعى أحد قواد عمر على الأكراد ومعه حلية طابت نفوس الجند أن يرسلوها الى أمير المؤمنين من الغنيمة فلما وصل الرسول استأذن وسلم ، فأذن له بالدخول فدخل على أمير المؤمنين فاذا هو جالس على مسح (١) متكىء على وسادتين من أدم محشوتين ليفا ، فنبذ اليه بأحدهما ، فجلست عليها ، واذا بهو فى صفة فيها بيت عليها ستير ٠

فقال عمر : يا أم كلثوم ، غداءنا ٠

فأخرجت اليه خبزه بزيت فى عرضها ملح لم يدق ٠

فقال عمر : يا أم كلثوم ، ألا تخرجين الينا تأكلين معنا من هذا ؟

قالت : انى أسمع عندك حس رجل ٠

قال : نعم ولا أراه من أهل البلد ٠

قالت : لو أردت أن أخرج لكسوتنى كما كسا ابن جعفر امرأته وكما كسا الزبير امرأته وكما كسا طلحة امرأته ٠

قال : أو ما يكفيك أن يقال : أم كلثوم بنت على بن أبى طالب وامرأة أمير المؤمنين عمر ٠

فقال عمر لرسوله مسلمة : كل فلو كانت راضية لأطعمتك أطيب من هذا ٠

ويقول رسول سلمة : وأكلت قليلا وطعامى الذى معى أطيب منه ٠

ثم قال عمر : اسقونا ٠

فجاءوا بعس من سلت (٢) ٠

ثم قال عمر : اعط الرجل ٠

ويقول رسول سلمة : فشربت قليلا ، سويقى الذى معى أطيب منه ٠

وقال عمر بعد أن شرب : الحمد لله الذى أطعمنا فاشبعنا وسقانا فأروانا ٠

وعرض رسول سلمه بعد ذلك على عمر ما جاء به فرد الحلية وأمره أن يبلغ قائده بتقسيمها بين الجند (٣) ٠

---

(١) المسح : نسيج من الشعر يتخذ بساطا يجلس عليه ٠
(٢) السلت : شراب من سويق الشعير ٠
(٣) مقتبسة من الطبرى ــ جزء ٤ ــ ص ١٨٧ ، ١٨٨

مقارنات بين مرتب عثمان من بيت المال ومخصصات الملوك فى عصره ورؤساء الدول حديثا :

مما سبق يمكن استخلاص ما يلى :

ـ أن عثمان كان متنعما وكان كل من أبى بكر وعمر متقشفا ، ولا ضير على عثمان فى ذلك فقد كان عندما ولى الخلافة شيخا لا يحتمل خشونة التقشف ، ولا تثريب عليه فى التنعم والله جل وعلا يقول :

« يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم وأشكروا لله ان كنتم أياه تعبدون » (البقرة / ١٧٢) ٠

ويقول سبحانه وتعالى أيضا :

« قل من حرم زينة الله التى اخرج لعبـــاده والطيبـــات من الرزق » (الاعراف / ٣٢) ٠

ـ أن عثمان يقرر أنه لا يأكل هذه الطيبات من مال المسلمين ولكنه أكلها من ماله الخاص ، فقد كان أكثر قريش مالا وأجدهم فى التجارة ٠

ـ يبدو من ذلك أن مرتب عثمان الذى كان يأخذه من بيت المال ونصيبه من الاعطيات التى كان ينالها كسائر المسلمين لم تكن تكفيه للانفاق منها على معيشته مادام يأكل من ماله الخاص ٠

ـ ولا يقاس تنعم عثمان بما كان يتنعم به الملوك فى عصره فقد كانوا يفرضون الضرائب والأتاوات على شعوبهم المستكنة لينفقوا معظمها على شئونهم الخاصة وكانوا يمتلكون الاقطاعيات الشاسعة من أموال الشعب كما كانت تخصص الأموال العامة لملذات الملوك واشباع أهوائهم وكانوا لا يفصلون بين أموالهم الخاصة والأموال العامة ، فضلا عن تسخير أفراد الشعوب لخدماتهم وخدمات حاشيتهم من كبار الاقطاعيين ٠

ـ وقد ذكرنا أنه فى المالية العامة الحديثة تخصص موازنات عامة لرئاسة الدول تدرج بها الاعتمادات اللازمة لمرتبات ومخصصات رئيس الدولة وكذلك مرتبات العاملين معه واعتمادات أخرى لادارة أنشطة الرئاسة واعتمادات أخرى لقصور الرئاسة سواء لسكنى رئيس الدولة أو لتنقلاته من سيارات وطائرات وشراء قطع الغيار اللازمة لها ، وقد تدرج بالموازنات العامة بعض الاعتمـــادات الاجمالية والسرية لينفق منها رئيس الدولة ، وتتسم هذه النفقات العامة عادة بعدم الترشيد بسبب توجيه بعضها الى أغراض مظهرية ، وقد يتم هذا فى بعض الدول بالرغم من

أن هذه الدول قد تكون فقيرة متخلفة اقتصاديا شحيحة الموارد تعتمد في سد عجزها المالى على القروض والمعونات الخارجية ٠

وبذلك يتضاءل ما قيل عن تنعم عثمان الذى كان تنعمه من ماله الخاص فى عصره بالمقارنة بما كان ينفقه الملوك فى عصره من أموال الشعوب ــ ويتضاءل كذلك ما قيل عن تنعم عثمان اذا قيس بما تتضمنه الموازنات العامة حديثا من مرتبات واعتمادات ومخصصات لرؤساء الدول٠ ويتضاءل كذلك ما قيل عن تنعم عثمان اذا عرف أنه كان شيخا كبيرا لا يحتمل خشونة العيش ٠

تعيين عثمان بن عفان الولاة وصرف مرتباتهم من بيت المال :

ــ فى عهد عثمان بن عفان كانت الدولة الاسلامية مقسمة الى ولايات وكان على كل ولاية وال يعينه الخليفة يأخذ مرتبه من بيت المال ويدير شئون الولاية طبقا لاحكام دستور الدولة الاسلامية وهو القرآن ويلتزم بتطبيق سنن الرسول صلى الله عليه وسلم واذا لم يعين الخليفة ممثــل له على بيت مال الولاية ، فانه يدخل فى اختصاص الوالى الاشراف على جباية موارد الولاية وهى الجزية والخراج وعشور التجارة ينفق منها على شئون الولاية ، والفائض يرسله الى بيت مال المسلمين فى المدينة ، أما الزكاة التى تحصل من أغنياء الولاية فكانت تصرف على فقرائهم ٠

ــ فمن ذلك يبين أهمية اختيار الولاة فهم ينوبون عن الخليفة فى ادارة الولاية ولذلك كان الرســـول صلى الله عليه وسلم يدقق فى اختيارهم ، فقد طلب منه الصحابى أبو ذر الامارة فلم يوافق على ذلك موضحا له ثقل عبئها وثقل حسابها فى الآخرة ولم يعين الرسول صلى الله عليه وسلم أحدا من أقاربه لما قد ينتج عن ذلك من اغترار الولاة من أقاربه بأنفسهم أو افتتان المسلمين بهم ، ما عدا على بن أبى طالب وقد سبق أن ذكرنا مناقبه ٠

واتبع عمر بن الخطاب سنة الرسول فكان كما سبق أن ذكرنا يدقق فى اختيار الولاة ، يطلب من الصحابة أن يدلوه على من تتوفر فيه المواصفات التى يريدها مطبقا فى ذلك مبدأ المشورة فاذا استقر رأيه على اختيار شخص معين للولاية أحصى أمواله قبل ولايته وفى نهاية ولايته يرد ما زاد مما تحيطه الشكوك الى بيت مال المسلمين ، وضمانا لاستقرار الحكم أوصى الخليفة بعده بعدم تغيير من ولاهم الا بعد سنة حتى يضمن للدولة الاسلامية الاستقرار وعدم زعزعة الحكم نتيجة تغيير الخليفة وتغيير الولايات فى وقت واحد ٠

ــ عمل عثمان بن عفان بوصية عمر فقد أقر الولاة فى ولاياتهم

ولم يعزل أحدا منهم ولكن بمرور الوقت بدل وغير فيهم . وكان بعض من ولاهم عثمان محل نقد لأنهم من أقاربه ، ونناقش فيما يلي حالات من ولاهم من أقاربه .

عزل عثمان لعمرو بن العاص وتعيين عبد الله بن أبى سرح :

كان عمرو بن العـــاص واليا على مصر منذ أن فتحها في عهد عمر بن الخطاب ولكن عثمان بن عفان أعاد تنظيم اختصاصات الولاية فجعل عمرو بن العاص واليا على الحرب واختار عبد الله بن أبى سرح واليا على الخراج ، وكان عبد الله بن أبى سرح أخا للخليفة من الرضاعة وأبلى بلاءا حسنا فى معركة ذات الســـوارى البحرية التى وقعت بين المسلمين والروم فى الاسكندرية ومن بواعث عثمان بن عفان لتقسيم الاختصاصات هبوط الخراج الذى كان يرسله عمرو بن العاص لبيت المال ، ومما يسانده هذا الرأى أن عمر بن الخطاب نفسه وجه نقدا ابان عهده لعمرو بن العاص بشأن هبوط خراج مصر ، وقد بعث الى مصر محمد بن مسلمة يقاسمه ماله (١) .

ويذكر المؤرخون أن الخلاف قد ثار بين عمرو وابن أبى سرح فاعتبر عمرو بن العاص أن تعيين ابن أبى سرح وتقلده أمور المال العام فى مصر سلبا لاختصاصه فقال :

« أنا اذا كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها ... »

وثار الخلاف بينهما كما سبق أن ذكرنا فعزل عثمان عمرا وجمع لعبد الله بن سعد بن أبى سرح خراج مصر وحربها معا .

واذا كنا نناقش الســياسة المالية لعثمان بن عفان فانه يتصـل بهذه السياسة أن يختار الولاة وهم المشرفون على جباية الخراج اختيارا موفقا ــ فهل وفق عثمان بن عفان رضى الله عنه فى اختيار ابن أبى سرح ؟

نقول ذلك لما يراه المعارضون من أن هذا الاختيار كان باعثه الاخوة فى الرضاعة خصوصا وأن لابن أبى سرح موقفا أيام الرســول صلى الله عليه وسلم . فبعد أن فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عفا عن قريش كافة الا جماعة عينهم بأسمائهم ارتكبوا جرائم عظمى فلم يكن لهم فى العفو العام متسع ، وهؤلاء أمر بقتلهم ، وان وجدوا تحت ستار الكعبة . وكان من هؤلاء عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، فقد كان أسلم وكان

---

(١) عثمان بن عفان ــ ، محمد حسين هيكل ، ص ٦٤ .

يكتب الوحي لرسول الله ثم ارتد مشركا الى قريش وزعم أنه كان يزيف ما يكتب من الوحي وعرف ابن أبي سرح أمر رسول الله بقتله ، ففر الى عثمان فطيبه حتى اطمأن الناس بمكة ثم ذهب به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأمن له ٠

ويقول ابن هشام في السيرة : « فزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صمت طويلا ثم قال : نعم »

فلما انصرف عنه عثمان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن حوله من أصحابه : لقد صمت ليتقدم اليه بعضكم فيضرب عنقه فقال رجل من الأنصار : « هلا أومأت الى يارسول الله ؟ »

قال : « ان النبي لا يقتل بالاشارة » (١) ٠

ونحن نقول ومن يدرى لعل الله قد تاب على ابن أبي سرح ، فقد استجاب الرسول صلى الله عليه وسلم لاستئمان عثمان وجاهد ابن أبي سرح فيما بعد الروم وأبلى في سبيل الله بلاء حسنا ، ثم الذى ذكرناه فيما سبق من أن خراج مصر قد نما وزاد في عهده ، مما جعل الخليفة عثمان رضى الله عنه يعير عمرو بن العـــاص بذلك على النحو الذى ذكرناه ٠

والله تعالى يقول :

« قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم » (الزمر / ٥٣) ٠

كل ذلك يضعف نقد الناقدين لعثمان بن عفـان بســبب تعيينه ابن أبي سرح على ولاية مصر ٠

تعيين عثمان بن عفان سعد بن أبي وقاص على الكوفة ثم عزله وولى الوليد بن عقبة :

ـ ولى عثمان سعد بن أبي وقاص على الكوفة عن وصية من عمر ابن الخطاب ولكنه عزله بعد عام وبعض عام وقد اضطر الى عزله بسبب خلاف نشأ بينه وبين عبد الله بن مسعود وكان على بيت المال ٠

ـ استقرض سعد بن أبي وقاص وكان والى الكوفة مالا من بيت المال من عبد الله بن مسعود فأقرضه ، فلما طلب منه رد الدين حينما حل أجله لم يتيسر له ذلك ، فاستعان عبد الله بأناس على استخراج

(١) عثمان بن عفان ، محمد حسين هيكل ، ص ٤٦ ٠

المال واستعان سعد بن أبى وقاص بأناس على انتظاره ، فدارت بينهما المناقشة التالية وكان معهما هاشم بن عتبة ابن أخى سعد .

ابن مسعود : أد المال الذى قبلك .

سعد بن أبى وقاص : ما أراك الا ستلقى شرا ، هل أنت الا ابن مسعود ، عبد من هذيل .

ابن مسعود : أجل والله انى لابن مسعود وانك لابن حمينة .

هاشم : أجل والله انكما لصاحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر اليكما .

فرفع سعد يديه وقال : اللهم رب السموات والأرض ..

ابن مسعود : ويلك ، قل خيرا ولا تلعن .

سعد : أما والله لولا اتقاء الله لدعوت عليك دعوة لا تخطئك .

فولى عبد الله بن مسعود سريعا حتى خرج .

ولما بلغ عثمان بن عفان ما كان بينهما غضب عليهما ثم عزل سعد وأخذ ما عليه لبيت المال وأقر عبد الله بن مسعود وعين بدل سعد الوليد ابن عقبة (١) .

ـ والوليد بن عقبة الذى خلف سعدا أموى وهو أخو عثمان لأمه ، أسلم يوم الفتح ولا خلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن أن قوله عز وجل :

« ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » (الحجرات ـ ٦) .

أنزلت فى الوليد بن عقبة وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الوليد مصدقا الى بنى المصطلق فعاد وأخبر عنهم أنهم ارتدوا ومنعوا الصدقة وذلك أنهم خرجوا اليه يتلقونه فهابهم فانصرف عنهم ، فبعث الرسول صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فأخبروه انهم متمسكون بالاسلام فنزلت الآية السابقة (١) .

ويذكر التاريخ أنه فى عهد الوليد بن عقبة عم الرخاء الكوفة ، ولكن بعض أهل الكوفة كادوا له لانه أقام الحد على واحد منهم قتل آخر ، واتهموه لدى الخليفة بأنه يشرب الخمر فأقام الخليفة عليه الحد وعزله

---

(١) عثمان بن عفان ، ذو النورين ، محمد رضا ، ص ٣٩ .

(٢) الخلفاء الراشدون ، عبد المقصود نصار وآخرين ، ص ١١٦ .

وعثمان بن عفان ذو النورين ، محمد رضا ـ طبعة ثانية ـ ص ٦٩ .

وولى بدله سعيد بن العاص ، فأسف الناس على عزل الوليد لشجاعته وكثرة فتوحه وحسن سياسته الاقتصادية حتى لبست الأماء عليه الحداد وقلن :

يا ويلتا قد عــزل الوليد وجاء مجــوعا سـعيد
ينقص فى الصاع ولا يزيد مجــوع الأماء والعبيـد

وبعد ذلك عزل الخليفة سعيد بن العاص واختار بدله أبا موسى الأشعرى أميرا على الكوفة بناء على طلب أهلها .

— ومما سبق يبين أن الخليفة عثمان بن عفان عين سعد بن أبى وقاص بنــاء على وصية عمر وعزله بسبب خلاف على قرض اقترضه من بيت المال وأن الوليد بن عقبة وان كان أخو عثمان الا أنه نجح فى تحسين الأحوال الاقتصادية فى الكوفة حتى أسف الناس عليه أشد الأسف وأن الخليفة أقام عليه الحد بالرغم من أنه أخوه فى الرضاعة وكان ما اتهم به صادرا عن كيد بعض الناس له .

عزل عثمان ابى موسى الأشعرى وتولية عبد الله بن عامر :

تولى أبو موسى الأشعرى البصرة زمن عمر بن الخطاب والشطر الأول من خلافة عثمان وولى بعده عبد الله بن عامر .

والأشعرى هذا يمنى وعرب البصرة من مضر ، لذلك كان عزله عن البصرة نزولا على العصبية القبلية وولى عثمان بن عفان رضى الله عنه عبد الله بن عامر وهو من قرابته ولكنه فى نفس الوقت كان قد انطلق فى غزو بلاد خراسان حتى بلغ قريبا من الهند ولذلك لما حدثه أصحابه بنعمة الله عليه قال لأجعلن شكرى لله على ذلك أن أحرم بالعمرة حيث انتهيت ، فلما بلغ ذلك عثمان رضى الله عنه عنفه على صنيعه هذا حيث أنه لم يلتزم ميقــات أهــل العــراق الذى يحرمون منه بالحج والعمرة (١) .

فللوالى الذى عينه عثمان بن عفان أمجاد فى نشر راية الاسلام وامتداد دعوته واعلاء كلمة الله ، فلا تذهبن قرابته من عثمان بن عفان بهذه الأمجاد اذا سنحت فرصة لقيامه بمهام الولاية ، خصــوصا وأنه كان بفتوحاته من العاملين على نماء الموارد العامة لبيت المال من خمس الغنائم ومن الزكاة التى استحقت على من أسلم فى البلاد المفتوحة ومن الجزية

(١) الطبرى — الجزء الرابع — طبعة رابعة — ص ٣١٤ — طبعة دار المعارف .

والخراج ممن آثر الاحتفاظ بدينه من أهل الكتاب ومن عشور التجارة التى تنمو وتزيد عادة كلما اتسعت رقعة الدولة الاسلامية ٠

ولاية معاوية ابن أبى سفيان بالشام فى عهد عمر وعثمان :

وكان بالشام أيضا قريب لعثمان بن عفان وهو معاوية بن أبى سفيان وهو من بنى العمومة للخليفة ، ولكنه كان منذ عهد عمر أميرا عليها بولايتها كلها ، وكان ذا دهاء وحزم يستخلص السياسة مع أهل الشام وكانت الشام نصفين بينه وبين أخيه يزيد ، فلما مات يزيد أفرده عثمان فكان معاوية يقول :

« أنى لأضع سيفى حيث يكفينى سوطى ، ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت » ٠

فقيل له : كيف ذلك ؟

قال : كنت اذا مدوها أرخيتها واذا أرخوها مددتها ٠٠٠

ولهذا لم يشارك أهل الشام فيما شارك فيه أهل الأمصار الأخرى فى الفتنة (١) ٠

نجاح بعض ذوى القربى من ولاة عثمان فى ادارة السياسة المالية بالولايات:

ومن ناحية السياسة المالية فان تعيينات عثمان السابقة تساند كفاءة ادارة السياسة المالية وذلك للأسباب التالية :

ـ من أسباب عزل عثمان عمرو بن العاص نقص خراج مصر فى عهده ٠

ـ أثبت ابن أبى سرح كفاءته فى ادارة المالية العامة بدليل زيادة موارد الدولة من ايرادات خمس الغنائم والجزية والخراج من البلاد المفتوحة ٠

ـ عزل عثمان سعد بن أبى وقاص من ولاية الكوفة بسبب قرض اقترضه من بيت المال المسلمين وكان استرداده محل خلاف بينه وبين عبد الله بن مسعود القائم وقتئذ على بيت المسلمين ورد القروض من بيت المال اليه أمر تستوجبه الادارة المالية الرشيدة ٠

ـ عين عثمان على الكوفة الوليد بن عقبة وقد حقق الرخاء

---

(١) مع الخلفاء الراشدين ، عبد الخالق أبو رابية ، ص ٩٢ ٠

والاستقررا المالى والاقتصادى حتى أن شعب الكوفة ليس عليه الحداد لعزله ، فضلا عما درته فتوحاته على بيت مال المسلمين من موارد ٠

ـ ولى على البصرة عبد الله بن عامر وهو كعبد الله ابن أبي سرح والوليد بن عقبة ساهمت فتوحاته فى تنمية موارد بيت المال ٠

ـ لاشك أن استقرار الأحوال بالشام فى عهد عثمان كان له أثره فى استقرار أوضاع المالية العامة بالشام وازدهارها ٠

ـ بصفة عامة فان ادارة الفتوحات وتحقيق النصر فيها أكسب القيادات التى عينها عثمان خبرات فى الادارة تساند ادارة المالية العامة ٠

الرأى فى تعيينات عثمان لذوى قرباه على بعض الولايات :

ومن هذا يتبين بصفة عامة أن تعيين عثمان بعض الولاة من أقربائه لم يكن يبرر شدة النقد الذى وجه اليه فى هذا الشأن غير أننا نشترط لاقرار مثل هذا المبدأ أن يكون الأقرباء من ذوى الكفايات وأن تكون الفرصة متاحة للجميع ليتم اختيار الأكفأ والأصلح ، وأن لا يكون ذلك مؤديا الى ازدياد أجورهم من بيت المال دون مبرر ولا يحملون أنفسهم على رقاب الناس ، خصوصا وأنه كان بالمجتمع تنافس قبلى بين الهاشميين والأمويين كما ذكرنا يجعل استعلاء الحكام والولاة من بنى أمية يثير الكثير من المعارضة والسخط بين الهاشميين وغيرهم من أعضاء المجتمع ٠

ولعل مما حدا بعثمان بن عفان أيضا الى ايثار ذوى قرباه ببعض المناصب كبر سنه وشيخوخته وثقته فى أولى قرباه ليساندوه فيستقر حكمه ويزدهر عهده ٠

وجهة نظر عثمان بن عفان فى تعيين بعض ذوى قرباه :

قال عثمان فى اجتماعه مع الصحابة :

وقالوا : استعملت الأحداث (وكان أحد ولاته وهو أسامة من أقربائه صغير السن) ولم استعمل الا مجتمعا محتملا مرضيا وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنه وهؤلاء أهل بلده ، ولقد ولى من قبلى أحدث منهم ٠

وقيل فى ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أشد مما قيل فى استعمال أسامة أكذاك ؟

قالوا : اللهم نعم(١) ·

وجهة نظر احد المؤرخين مؤيدة لعثمان فى تعيين الولاة من اقاربه :

يناقش أحد المؤرخين عزل عثمان لبعض الصحابة وتعيينه أقاربه ويبدى وجهة نظره مؤيدة بما أورده من وقائع وذلك على النحو التالى :

- أما عمرو بن العاص فانما عزله (أى عثمان) لأن أهل مصر أكثروا شكايته وكان عمر قبل ذلك عزله لشىء بلغه عنه ثم لما ظهرت توبته رده ، كذلك عزله عثمان لشكاية رعيته ·

وأما تولية عبد الله فمن حسن النظر عنده لأنه تاب وأصلح عمله ، وكانت له فيما ولاه آثار محمودة ، فانه فتح من تلك النواحى طائفة كبيرة حتى انتهى فى أغارته الى الجزائر التى فى بحر الغرب وحصل فى فتوحه ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار سوى ما غنمه من صنوف الأموال وبعث الخمس منها الى عثمان وفرق الباقى فى جنده وكان فى جنده جماعة من الصحابة ومن أولادهم ، كعقبة بن عامر الجهنى وعبد الرحمن ابن أبى بكر وعبد الله بن عمرو بن العاص قاتلوا تحت رايته وأدوا طاعته ووجدوه أقدر على سياسة الامر من عمرو بن العاص ثم أبان عن حسن رأى فى نفسه عند وقوع الفتنة ، فانه حين قتل عثمان اعتزل الفريقين ولم يشهد مشهدا يقاتل أحدا بعد قتال المشركين ·

- أما عزل عثمان لأبى موسى عن البصرة فكان عذره فى عزله أوضح من أن يذكر فانه لو لم يعزله اضطربت البصرة والكوفة وأعمالهما للاختلاف الواقع بين جند البلدين ·

وقصته أنه كتب الى عمر فى أيامه يسأله المدد فأمده بجند الكوفة ، فأمرهم أبو موسى قبل قدومهم عليه برامهر مز فذهبوا اليها وفتحوها وسبوا نساءها وذراريها فحمدهم على ذلك ·

وكره نسبة الفتح الى جند الكوفة دون جند البصرة فقال لهم أنى كنت أعطيتهم الأمان وأجلتهم سنة أكثر فردوا عليهم (٢) ، وكتبوا الى عمر فكتب عمر الى صلحاء جند أبى موسى مثل البراء وحذيفة وعمران بن حصين وأنس بن مالك وسعيد بن عمرو الانصارى وأمثالهم وأمرهم أن يستحلفوا أبا موسى فان حلف أنه أعطاهم الأمان وأجلهم ردوا عليهم ·

---

(١) الطبرى - جزء ٤ - ص ٣٤٧ ·
(٢) أى ردوا السبى والغنائم ·

فاستحلفوه فحلف ورد السبى عليهم وانتظر لهم أجلهم وبقى الجند حانقين على أبى موسى ٠

ثم رفع أمر أبى موسى الى عمر وقيل له لو أعطاهم الأمان لعلم ذلك فأشخصه عمر وسأله عن يمينه فقال ما حلفت الا على حق ٠

قال عمر : فلما أمرت الجند حتى فعلوا مافعلوا وقد كلنا أمرك فى يمينك الى الله تعالى ، فارجع الى عملك فليس نجد الان من يقوم مقامك ولعلنا ان وجدنا من يكفينا عملك وليناه ٠

فلما مضى عمر لسبيلة وولى عثمان شكا جند البصرة شح أبى موسى وشكا جند الكوفة ما نقموا عليه ، فخشى عثمان ممالأة الفريقين على أبى موسى فعزله عن البصرة ٠

وولاها أكرم الفتيان عبد الله بن عامر بن كريز وكان من سادات قريش وهو الذى سقاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ريقة حين حمل اليه طفلا فى مهده ٠

وهكذا يمضى المؤرخ (١) فى تفنيد الانتقادات الموجهة الى عزل عثمان للصحابة وتولية ذوى قرباه ويناقش الموضوع بصفة عامة فيقول :

« على أننا نقول ما زال ولاة الأمر قبل عثمان وبعده يعزلون من أعمالهم من رأوا عزله ويولون من رأوا توليته بحسب ما تقتضيه أنظارهم ٠ عزل عمر خالد بن الوليد عن الشام وولى أبا عبيدة ، وعزل عمارا عن الكوفة وولاها المغير بن شعبة ، وعزل على قيس بن سعد عن مصر وولاها الأشتر النخعى » ٠

وجهة نظر أخرى لكاتب من الكتاب(٢) المؤيدين لعثمان فى تعيين الولاة من اقاربه :

« وكلّ ما نقموه عليه (يعنى على عثمان) أمور لا حرج على الامام فعلها منها تولية أقاربة وليس فى هذا أدنى عيب لأن رسول الله عليه صلى الله عليه وسلم ولى عليا وهو ابن عمه ٠ ولو كانت تولية القريب عيبا لنهى عنها عليه السلام ولم يفعلها ومع ذلك فالاسلام سوى بين الناس لا قريب عنده ولا بعيد ، فالأمر موكول لرأى الامام الذى القيت

---

(١) المؤرخ هو أبو جعفر احمد الشهير بالمحب الطبرى ـ صاحب كتاب النصره فى مناقب العشرة ـ ور تالاشارة اليه فى كتاب عثمان بن عفان ذو النــورين ، ص ٢٢٣ وما بعدها ٠

(٢) كتاب « اتمام الوفاء فى سيرة الخلفاء » ، محمد الخضرى ـ ورد فى كتاب عثمان ابن عفان ذو النورين ـ ص ٢٣٤ ٠

اليه مقاليد الأمة ، فان ولى من حاد عن الدين شـكونا اليه فان لم يقبل صبرنا كما أمر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لان شق عصا الطاعة من مصائب الأمم التى تسرع اليها الخراب وليس فى الشرع ما يبيح خلع الامام الا كفره الصراح » •

أسماء عمال عثمان رضى الله عنه على البلدان فى نهاية حكمه (١) :

ومما يجدر التنويه عنه أن عثمان لم يعين أقرباءه على كل الولايات بل على البعض منها •

وفيما يلى أسماء عمال عثمان على الأمصار فى نهاية حكمه :

عبد الله بن الحضرمى	على مكة
القاسم بن ربيعة الثقفى	على الطائف
يعلى بن منيه	على صنعاء
عبد الله بن أبى ربيعة	على الجند
عبد الله بن عامر بن كريز	على البصرة (٢)
سعيد بن العاص	على الكوفة (٣)
عبد الله بن سعد بن أبى سرح	على مصر (٤)
معاوية بن أبى سفيان	على الشام
عبد الرحمن بن خالد بن الوليد	عامل معاوية على حمص
حبيب بن مسلمة	عامل معاوية على قنسرين
أبو الأعور بن سفيان	عامل معاوية على الأردن
علقمة بن حكيم الكنانى	عامل معاوية على فلسطين
عبد الله بن قيس الفزارى	عامل معاوية على البحر
أبو الدرداء	على القضاء
أبو موسى	على صلاة الكوفة

---

(١) الطبرى — مرجع سابق — ص ٤٢١ ، ٤٢٢ •

(٢) خرج منها فلم يول عليها عثمان أحدا •

(٣) اخرج منها فلم يترك يدخلها •

(٤) قدم على عثمان وغلب محمد بن أبى حذيفة عليها وكان عبد الله بن سعد استخلف على مصر السائب بن هشام بن عمرو العامرى فأخرجه محمد بن أبى حذيفة •

جابر بن عمرو المزنى وسماك الأنصارى	على خراج سواد الكوفة
القعقاع بن عمرو	على حرب الكوفة
جرير بن عبد الله	على قرقيساء
الأشعث بن قيس	على أذربيجان
عتيبة بن النهاس	على حلوان
مالك بن حبيب	على ماه
النسير	على همذان
سعيد بن قيس	على الرى
السائب بن الأقرع	على أصبهان
حبيش	على ماسبذان
عقبة بن عمرو	على بيت المال
زيد بن ثابت	على قضاء عثمان

الانفاق من بيت المال على مرتبات الجند :

وكان بيت المال يدفع مرتبات للجند علاوة على ما يحصلون عليه من نصيب فى الغنائم على النحو الذى سبق أن أوضحناه وكان جند كل ولاية يحصلون على مرتباتهم من بيت مال الولاية فمثلا بالنسبة لجند مصر كتب عثمان بن عفان الى عبد الله بن سعد والى مصر الكتاب التالى لصرف مرتبات الجند المرابطين فى الاسكندرية :

« قد علمت كيف كان هم أمير المؤمنين بالاسكندرية وقد نقضت الروم مرتين ، فالزم الاسكندرية رابطتها ثم أجر عليهم أرزاقهم وأعقب بينهم فى كل ستة أشهر » (١) .

عثمان بن عفان أول من رزق المؤذنين من بيت المال :

كان الأذان فى المساجد تطوعا منذ أيام الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم بلال وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم لم يؤذن بلال الا فى عهد عمر بن الخطاب وكان فى

---

(١) فتوح مصر وأخبارها ، ص ١٢٤ .

بيت المقدس يوقع الصلح مع أهل ايلياء ، فلما حضرت الصلاة قال الناس : لو أمرت بلالا فأذن ، فأمره فأذن (١) فأبكى الناس ، وظل الأذان فى عهد أبي بكر وعمر تطوعا وكان عثمان أول من رزق المؤذنين من بيت المال .

ومما يذكر فى هذا الصدد أن عبد الله بن زيد بن عبد ربه الذى أرى الأذان توفى فى عهد عثمان بن عفان سنة ٣٢ وكانت رؤياه الأذان فى السنة الأولى من الهجرة بعدما بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجده .

فقد قال عبد الله وقتئذ :

« لما أصبحنا أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بالرؤيا » .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذه رؤيا حق . فقم مع بلال فانه أندى صوتا منك ، فالق عليه ما قيل لك وليناد بذلك .

فلما سمع عمر بن الخطاب نداء بلال بالصلاة خرج الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يجر رداءه .

وهو يقول : يا رسول الله والذى بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذى قال .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلله الحمد فذاك أثبت (٢) .

نواة مرفق الشرطة بدأت فى عهد عثمان بن عفان (٣) :

وأول من اتخذ صاحب شرطة فى الاسلام عثمان بن عفان وكان الانفاق على مرفق الشرطة من بيت المال .

الانفاق العام على الحج من بيت المال :

حج عثمان بالناس سنواته كلها الا آخر حجة فقد كان محصورا فى بيته فاشرف عثمان على الناس .

فقال : يا عبد الله بن عباس ، اذهب فانت على الموسم .

فقال : والله يا أمير المؤمنين لجهاد هؤلاء أحب الى من الحج . (أى جهاد المحاصرين لعثمان) فأقسم عثمان عليه لينطلقن .

فانطلق ابن عباس على الموسم تلك السنة .

---

(١) الطبرى – جزء ٤ – طبعة رابعة ، ص ٦٦ .
(٢) عثمان بن عفان ذو النورين ، محمد رضا ، ص ٢٦ ، ص ١١٤ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٢٦ .

وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه يحج بأزواج الرسول صلى الله عليه وسلم كما كان يصنع عمر ، وكتب فى الأمصار أن يوافيه العمال فى كل موسم ومن يشكونهم وكتب الى الناس بالأمصار أن ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ولا يذل المؤمن نفسه فانه مع الضعيف على القوى ما دام مظلوما ان شاء الله (١) ٠

وكان الانفاق العام على الحج من بيت المال ٠

كسوة الكعبة فى عهد عثمان بن عفان من بيت المال :

كان العرب يكسون الكعبة فى الجاهلية الانطاع وهى بسط من الأديم أى الجلد وكساها رسول الله صلى الله عليه وسلم الثياب اليمانية ثم كساها عمر ومن بعده عثمان بن عفان القباطى وهو ثياب من كتان من نسيج مصر (٢) ٠

النفقات العامة الانشائية :

ذكرنا أنواعا من النفقات العامة الادارية التى تنفقها عادة الدول على ادارة الدولة غير أن الدول تنفق أيضا على أعمال طويلة الأجل أو لها طبيعة انشائية وفيما يلى أمثلة منها فى عهد عثمان ٠

ـ تجميع القرآن الكريم (٣) :

كان يحفظ القرآن فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم نفر من القراء وكان يكتبه بعض الناس مفرقا فى بعض الرقاع والحجارة والعظام ٠

وقد جمع أبو بكر القرآن من هذه الصحف وأودعها عند أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب ، وفى عهد عثمان كان حذيفة بن اليمان يقوم على تثقيف المجاهدين فى الفتوح الاسلامية وكان يقرأ آيات الجهاد والغزوات كما سمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغة قريش ، لكن المجاهدين وهم من قبائل مختلفة كانوا يقرأونه بلهجات قبائلهم وكان لكل قبيلة لهجة خاصة ٠

وفى الكوفة التى كانت تضم كثيرا من الأعراب اختلفت بينهم القراءات فالأعراب من أهل حمص والشام تعصبوا لقراءة المقداد بن الأسود٠

---

(١) الطبرى ، ص ٣٨٣ ، ٣٩٧ ٠

(٢) عثمان ذو النورين ، محمد رضا ، ص ٢٣ ٠

(٣) يفضل البعض استخدام اصطلاح « توحيد رسم المصحف » بدلا من « تجميع القرآن الكريم » والاصطلاح الأول أكثر دقة والثانى أكثر شيوعا ٠

والأعراب من أهل البصرة تعصبوا لقراءة عبد الله بن مسعود .

وأهل الكوفة تعصبوا لقراءة أبى موسى الأشعرى .

وبالغ كل فريق فى تفضيل قراءته ودب الخلاف بينهم وبلغ حدا كاد يكون فتنة .

رجع حذيفة الى المدينة وذهب توا الى عثمان .

فقال له : أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك .

قال عثمان : فى ماذا ؟

قال حذيفة : فى كتاب الله انى حضرت الغزوة وقد صحبت ناسا من العراق والشام والحجاز ــ ووصف له ما تقدم من خلاف ــ ثم أردف : وانى أخشى عليهم أن يختلفوا فى كتاباتهم كما اختلف اليهود والنصارى .

جمع عثمان الناس يشاورهم فى الأمر فسالوه رأيه .

فقال : الرأى عندى أن يجتمع الناس على قراءة واحده ، فانكم اذا اختلفتم اليوم كان من بعدكم أشد اختلافا .

وأقره على ذلك أهل الرأى .

أرسل عثمان الى أم المؤمنين حفصة لترسل اليه بهذه الصحف التى جمع فيها القرآن ثم استدعى اليه كاتب الوحى زيد بن ثابت ومعه عبد الله ابن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومى وأمر عثمان زيد ابن ثابت الأنصارى أن يكتب المصحف ويملى عليه سعيد بن العاص الأموى وأمرهم اذا اختلفوا فى شىء أن يكتبوه بلغة قريش التى نزل القرآن بلسانهم ، فلما أتموا كتابته على قراءة واحدة من عدة نسخ أمر عثمان باعادة المصحف الى أم المؤمنين حفصة ثم أرسل الى كل جهة نسخة من هذه النسخ ثم أمر بأن يحرق كل ما سوى ذلك من المصاحف .

اعترض عبد الله بن مسعود وآخرون على حمل الناس على مصحف واحد وقد كان ابن مسعود من أحفظ الناس للقرآن وهو كما كان يقول قد أخذ من فم النبى سبعين سورة من القرآن ولم يكن زيد بن ثابت قد بلغ الحلم بعد ، كما قال المعترضون : أن النبى صلى الله عليه وسلم أوضح أن القرآن نزل على سبعة أحرف كلها كاف شاف ، واحتجوا بأن عثمان حينما حرق ما حرق من المصاحف الأخرى انما حرق صحفا كانت تشتمل على قرآن أخذه المسلمون عن رسول الله وما ينبغى للامام أن يلغى من القرآن حرفا أو يحرق من نصوصه نصا .

ولا شك أن جمع القرآن من الأعمال العظيمة التى تسبت لعثمان ولولا هذا الجمع لاختلفت القراءات ، ولكن الله حافظ له فيقول جل وعلا :

« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (الحجر /٩) .

أما قول الرسول صلى الله عليه وسلم بنزول القرآن على سبعة أحرف فهى ما يعرف بالقراءات السبع .

ويكفى أن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال حينما سأله الناس فى ذلك « لو لم يصنعه هو لصنعته » ووقف على الناس فقال :

« أيها الناس ، اياكم والغلو فى عثمان تقولون حرق المصاحف والله ما حرقها الا عن ملأ من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، ولو وليت مثل ما ولى لفعلت مثل ما فعل » (١) .

ويرد عثمان بن عفان على منتقديه فى هذا الشأن فيقول فى اجتماعه مع الصحابة ، وقالوا : كان القرآن كتبا فتركتها الا واحدا ، ألا وان القرآن واحد وجاء من عند واحد ، وانما أنا فى ذلك تابع لهؤلاء .

وقال مخاطبا الصحابة : أكذلك .

قالوا : نعم .

ويعلق أحد الكتاب المحدثين (٢) على هذا العمل العظيم فيقول :

« عمل من أخلق الأعمال أن يوصف بأنه « عمل عثمان » فى الاقدام عليه وفى أثره وهذا العمل فى اختلاف تقديره وأثره ، مثال من أعمال عثمان كافة ، اذ كان معدودا من أكبر السيئات ، ولم يبق لعثمان حسنة أعظم منه فى تاريخ الاسلام » .

ويعلق آخر (٣) على هذا العمل فيقول :

« وهكذا أعطى « عثمان » عزمه الرشيد لمسئولياته الجسام ، وملأ بصدقه وباقتداره فراغا كان يمكن أن يتحول الى هوة فاغرة تشد الى قيعانها الغائرة البعيدة كثيرا من مقدرات الدين ومصائر المسلمين » .

وقد تم جمع القرآن بمعرفة الصحابة تطوعا لله تعالى وابتغاء ثوابه جل وعلا ومثل هذا العمل العظيم فى الماليات العامة الحديثة يتقاضى عنه من يؤدونه أجرا كبيرا من الدولة .

---

(١) مقتبس من المراجع التالية :
عثمان بن عفان ، محمد حسين هيكل ، ص ١٠٩ ، ١١٠ .
الخلفاء الراشدون ، عبد المقصود نصار وآخرون ، ص ١٠٨ ، ١١١١ .
مع الخلفاء الراشدين ، عبد الخالق أبو رابية ، ص ٦٣ ، ٦٤ .
(٢) عثمان بن عفان ذو النورين ، عباس العقاد ، ص ١٥٩ .
(٣) وداعا عثمان ، خالد محمد خالد ، ص ٨٦ .

تمويل اعادة بناء المسجد النبوى من بيت المال :

كلم الناس عثمان بن عفان أول ما تولى الخلافة أن يزيد فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم اذ كان يضيق بالناس فى صلاة الجمعة بسبب امتداد الفتح وزيادة سكان المدينة زيادة عظيمة ۰

استشـــار عثمان أهل الرأى فأجمعوا على هدم المسجد وبنـائه وتوسيعه فصلى عثمان الظهر بالناس ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس انى قد أردت أن أهدم مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وازيد فيه وأشهد انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من بنى مسجدا بنى الله له بيتا فى الجنة » وقد كان لى فيه سلف وامام سبقنى وتقدمنى عمر بن الخطاب كان قد زاد فيه وبناه وقد شاورت أهل الرأى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجمعوا على هدمه وبنائه وتوسيعه » ۰

فحسن الناس يومئذ ذلك ودعوا له ، فأصبح فدعا العمال وباشر ذلك بنفسه (١) ۰

وقد بنى الرسول صلى الله عليه وسلم المسجد يوم أن وصل الى المدينة بعد هجرته من مكة وكانت أرضا لغلامين يتيمين من بنى النجار وهما سهل وسهيل وقد سألهما الرسول عن ثمن أرضهما ليبنى عليها مسجده فعرضا على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يهبا الأرض للمسلمين ابتغاء ثواب الله عز وجل ولكن الرسول حدد ثمن الأرض بعشرة دنانير دفعها أبو بكر الصديق رضى الله عنه من ماله ۰

وبدأ بناء المسجد ، وعند وضع الأساس حمل الرسول عليه الصلاة والسلام حجرا كبيرا والتصق الغبار بصدره الشريف وأراد أصحابه أن يمنعوه ولكن الرسول وضع الحجر فى موضعه ، وأمر أبا بكر أن يضع حجرا آخر الى جانبه وأن يضع عمر بن الخطاب حجرا ثالثا الى جانب حجر أبى بكر ، وتوالى المسلمون حتى تم بناء المسجد وكانت جدرة من اللبن وسقفه من الجريد وعمده من خشب النخل ، ولما فتح المسلمون خيبر وخلصت المدينة للمسلمين وزاد عددهم زاد النبى صلى الله عليه وسلم فى رقعة المسجد مائة متر مربع أو أكثر ۰ لكنه لم يغير من عمارته باللبن والجريد وجذوع النخل شيئا ۰

---

(١) عثمان ذو النورين ، محمد رضا ، ص ٣٢ ۰

وفى عهد أبي بكر نخرت سواري المسجد فبناها .

ولما زاد المسلمون في عهد عمر بن الخطاب زاد عمر في رقعة المسجد ولكنه لم يغير من عمارته فقد بنى الجدر كما بناها رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل الأساس من الحجارة وما فوقه من اللبن وجعل عمده من الخشب والسقف من الجريد واتخذ الى جانبه مكانا سمى البطحاء ، وأمر من أراد أن يلغط أو يرفع صوتا أن يخرج اليه حتى يكون المسجد خالصا للعبادة منزها عن لغو الحديث ومناقشات أمور الدنيا .

فلما بنى عثمان المسجد زاد فى رقعته زيادة كبيرة وطور عمارته فبنى جدره كلها بالحجارة المنقوشة وجعل عمده من حجارة منقورة أدخل فيها بعض الحديد وصب فيها الرصاص ونقشها من خارجها وجعل سقفه من الساج ، فخلع ذلك على المسجد بعض البهاء وفرغ منه حين دخلت السنة لهلال المحرم سنة ٣٠ هـ وكان عمله عشرة أشهر .

انتقد بعض أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم عثمان ما فعل واعتبروا أنه قد خالف سنة الرسول وسنة الخليفتين من بعده لأنه طور عمارة المسجد وزينه .

ومن رأينا أن عثمان بن عفان رضى الله عنه لم يخالف سنة الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه ان كان قد أضفى بعض الرواء على المسجد فما خالف بذلك نصا أو حكما ، فالله جل وعلا أباح الزينة الحلال وقد سبق أن أوردنا آيتها .

والحجارة والحديد والرصاص والساج التى استخدمها عثمان فى عمارة المسجد مما أخرجه الله لعباده ، ولا يعتبر ما لجأ اليه عثمان اسرافا فى الأموال العامة فلهذا المسجد رسالتان ، أنه مكان للعبادة يؤمه المسلمون للصلاة والعبادة وفى نفس الوقت كان المسجد مقرا للحكم يجتمع فيه الخليفة مع الولاة ويصدر اليهم قراراته وتعقد فيه مجالس المشورة ويستقبل فيه ممثلو الأمصار التى فتحت ، وقد اعتاد هؤلاء أن يروا مقار الحكم فى بلادهم على درجة عالية من الفخامة والبهاء ، فضلا عن أن التطور مستمر بمرور الأزمان والعصور ، والاسلام لا يعارض التطور الصالح ولا التقدم الذى لا يتنافى مع مبادئه وأحكامه ، ومن ناحية أخرى كانت المالية العامة أيام الرسول صلى الله عليه وسلم والخليفة أبو بكر من بعده قليلة الموارد ، أما وقد زادت هذه الموارد أيام عمر وعثمان فلا بأس من أن يصاحب ذلك زيادة فى الانفاق العام على مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم وهو مسجد للعبادة ومقر للحكم كما أوضحنا ، وخير الانفاق العام

كما ذكرنا ما كان وسطا لاتغل فيه الأيدى الى الأعناق ولاتبسط كل البسط وهذا هو ما فعله عثمان رضى الله عنه ٠

تمويل توسعة المسجد الحرام من بيت المال :

كانت الكعبة أيام الرسول صلى الله عليه وسلم قائمة وليس حولها الا فناء ضيق يصلى الناس فيه وظل المسجد كذلك فى خلافة أبى بكر وفى عهد عمر وسع المسجد فاشترى دورا حول الكعبة وهدمها وأدخلها فى بيت الله الحرام وأحاطها بجدار قصير وأدخل انارة المسجد ليلا ، وذلك لأن المسجد كان قد ضاق بالحجاج الذين يأتون لأداء فريضة الحج بعد أن أمتلت فتوحات الاسلام ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، فلما ضاق المسجد ثانية فى عهد عثمان بن عفان احتذى بمثل عمر وأضاف الى الكعبة دورا اشتراها وأحاطها بجدار قصير لا يرتفع الى قامة الرجل كما فعل عمر من قبل ٠ ولعل ما دعا عثمان الى الالتزام بعمارة المسجد كما كانت من قبل هو أن المسجد الحرام قاصر على العبادة فقط ولم يكن مقرا للحكم كالمسجد النبوى ولعله رأى أن ذلك أدعى للزهد والتقشف ليتناسب المكان مع ما يفرضه الحج من مناسك تجرد الحاج من الزينة وزخارف الحياة الدنيا ٠

وفى سبيل توسعته ابتاع الأرض من قوم وأبى أخرون فهدم عليهم ووضع الأثمان فى بيت المال فصيحوا بعثمان فأمر بهم بالحبس وقال :

« أتدرون ما جرأكم على ! ما أجرأكم على الا حلمى ، قد فعل هذا بكم عمر فلم تصيحوا به » ثم كلمه فيهم عبد الله بن خالد بن أسيد فأخرجوا (١) ٠

انشاء مسجد الرحمة بالاسكندرية :

أوضحنا أنه كان من أسس النظام المالى للأمصار أن تجمع الجزية والخراج وعشور التجارة من أهل الاقليم ثم ينفق منها على الاقليم والفائض يؤول لبيت المال فمما كان ينفق من الخراج فى مصر مثلا « حفر خلجها واقامة جسورها وبناء قناطرها » (٢) ٠

وفى عهد عثمان بن عفان أقام عمرو بن العاص مسجدا فى الاسكندرية يقال له مسجد الرحمة وسمى بذلك لرفع عمرو السيف مكانه بعد أن انتصر على الروم :

---

(١) تاريخ الطبرى ، لأبى جعفر محمد الطبرى ـ جزء ٤ ـ طبعة رابعة ، ص ٢٥١ ٠

(٢) فتوح مصر وأخبارها ، ص ١٢٤ ٠

بناء مسجد في اصطخر :

فتح عبد الله بن عامر فارس ورجع الى البصرة واستعمل على اصطخر شريك بن الأعور الحارثي ، فبنى شريك مسجد أصطخر (١) ٠

الانفاق العام على انشاء أول أسطول بحرى فى الاسلام ونبوءة الرسول صلى الله عليه وسلم بشأنه :.

ساهم بيت مال المسلمين في انشاء أول أسطول بحرى فى الاسلام فى عهد الخليفة عثمان بن عفان وقد سبق أن أوضحنا مدى مساهمة هذا الأسطول فى الفتوحات الاسلامية ٠

وبانشاء هذا الأسطول تحققت نبوءة قديمة للرسول صلى الله عليه وسلم ، ذلك أنه كان عليه السلام يقيل يوما فى دار « عبادة بن الصامت » رضى الله عنه ، ونهض من نومه وهو يضحك ٠

فسألته زوجة عبادة وهى « أم حرام بنت ملحان » عما أضحكه ٠

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : ناس من أمتى عرضوا على يركبون ثبج هذا البحر مثل الملوك على الأسرة ٠

فقالت : يا رسول الله أدع الله أن يجعلنى منهم ٠

فقال لها الرسول عليه الصلاة والسلام : أنت منهم ٠

ونام الرسول ثانية ثم استيقظ وهو يضحك ٠

ويقول : ناس آخرون من أمتى عرضوا على يركبون ثبج هذا البحر مثل الملوك على الأسرة ٠

فقالت أم حرام : يا رسول الله أدع أن يجعلنى منهم ٠

فأجابها الرسول : أنت من الأولين ٠

كانت هذه الواقعة ذائعة بين الصحابة أيام كان الرسول صلى الله عليه وسلم معهم وكانوا ينتظرون تأويلها ويعجبون كيف يركبون البحر مثل الملوك على الأسرة — حتى جاءت غزوة قبرص التى نوهنا عنها وانتصر المسلمون فكانوا فوق سفنهم الكبيرة الظافرة كالملوك فوق أسرتهم وعروشهم ، وفى هذه الغزوة خرج مع الجيش « عبادة بن الصامت » ومعه زوجة « أم حرام بنت ملحان » رضى الله عنها فركبت البحر غير أنها ماتت

---

(١) الطبرى — الجزء الرابع — ص ٣٠١ ٠

بعد معركة قبرص ودفنت هناك فلم تعش حتى تركب البحر مع الآخرين فكانت فقط مع الأولين كما تنبأ بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم (١)٠

الانفاق على تحويل الساحل من الشعيبة الى جدة :

فى سنة ست وعشرين هجرية كلم أهل مكة عثمان رضى الله عنه أن يحول الساحل من الشعيبة وهى ساحل مكة قديما فى الجاهلية الى ساحلها اليوم وهى جدة لقربها من مكة ٠ فخرج عثمان الى جدة ورأى موضعها وأمر بتحويل الساحل اليها ودخل البحر واغتسل فيه وقال انه مبارك ، وقال لمن معه أدخلوا البحر للاغتسال ولا يدخل أحد بمئزر ثم خرج من جدة من طريق عسفان الى المدينة وترك الناس ساحل الشعيبة فى ذلك الزمان واستمرت جدة بندرا الى الآن لمكة المشرفة (٢) ٠

بيت مال المسلمين يمول حفر الآبار لتشرب منها الرعية :

ومن الأعمال العامة التى مولها بيت مال المسلمين فى عهد عثمان حفر بئر للشرب بالمدينة ويسمى بئر أريس وهو على ميلين من المدينة وكان ذلك فى سنة ثلاثين هجريا ، وحدث أن قعد عثمان على رأس البئر وكان بأصبعه خاتم رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل عثمان يعبث بالخاتم ويديره بأصبعه ، فانسل الخاتم من أصبعه فوقع فى البئر فطلبوه فى البئر ونزحوا ما فيها من الماء فلم يقدروا عليه فجعل فيه مالا عظيما لمن جاء به واغتم لذلك غما شديدا فلما يئس من العثور على الخاتم صنع خاتما آخر مثله من فضة على مثاله وشبهه ونقش عليه « محمد رسول الله » فجعله فى أصبعه حتى قتل فلما قتل ذهب الخاتم من يده فلم يدر من أخذه ٠

وقد صنع خاتم الرسول صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يكتب الى الأعاجم كتابا يدعوهم الى الله عز وجل فقال له رجل : يا رسول الله انهم لا يقبلون كتابا الا مختوما فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعمل له خاتم من حديد فجعله فى أصبعه ، فأتاه جبريل فقال له « أنبذه من أصبعك » فنبذه رسول الله صلى الله عليه وسم من أصبعه ، وأمر بخاتم آخر يصنع له فعمل له خاتم من نحاس فجعله فى أصبعه فقال له جبريل عليه السلام : انبذه من أصبعك فنبذه رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصبعه ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بخاتم من

(١) وداعا عثمان ، خالد محمد خالد ، ص ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ٠
(٢) عثمان بن عفان ذو النورين ، محمد رضا ، ص ٣٤ ٠

ورق (١) فجعله فى أصبعه فأقره جبريل ، وأمر أن ينقش عليه « محمد رسول الله » وكان نقش الخاتم ثلاثة أسطر ، وقد ختم رسول الله به كتابا الى كسرى بن هرمز يدعوه للاسلام وبعثه مع عمر بن الخطاب وكتب كتابا آخر وبعثه مع دريحة بن خليفة الكلبى الى هرقل ملك الروم يدعوه للاسلام وظل الخاتم فى أصبع رسول الله صلى الله عليه وسلم يختم به حتى قبضه الله عز وجل ٠

وانتقل بعده الى الخليفة أبى بكر الصديق حتى قبضه الله عز وجل ٠ ثم ولى عمر بن الخطاب فجعل يختم به حتى قبضه الله عز وجل ٠ ثم ولى من بعده عثمان بن عفان فختم به ست سنين ثم وقع فى البئر (٢) ٠

الانفاق العام فى عهد عثمان مول أهداف الاسلام العليا :

يتضح من دراسة النفقات العامة السابقة للموازنة العامة أنهـــا ساهمت فى تمويل الأهداف العليا للدولة الاسلامية ففضلا عن الانفاق العام على ادارة الدولة ومصالح الرعية تم الانفاق العام على نشر الاسلام كى تكون كلمة الله هى العليا وتم تمويل انشاء أول أسطول بحرى للدولة الاسلامية كما تم تعمير بيوت الله بالانفاق على اقامة المساجد وتجديدها ورزق المؤذنين كما تم الصرف على رحلة مباركة يقودها الخليفة نفســه ويشترك فيها الكثير من المسلمين وهى رحلة الحج الى بيت الله الحرام وكسوة الكعبة وهى قبلة الاسلام والمسلمين ولاها الله جل وعلا رسوله محمد عليه الصلاة والسلام فارتضاها ، كما أن بيت مال المسلمين قدم أمواله لحفر الآبار ليشرب منهـــا الغـادى والرائح من مواطنى الدولة الاسلامية ٠

وبجانب نفقات الموازنة العامة ساهم الانفاق العام من موازنات الزكاة والضوائع وخمس الغنائم فى تمويل شرائح المجتمع الضعيفة فى الدولة الاسلامية وهم الفقراء والمساكين واليتامى وفى تكريم الغرباء أبناء السبيل وفى فك الرقاب ٠

---

(١) الورق : الفضة مضروبة كانت أم غير مضروبة جمعها أوراق ووراق ـ قد سبق أن أوضحنا ذلك ٠

(٢) الطبرى ـــ ٠ ص ٢٨١ ، ٢٨٢ ٠

الباب الرابع

توازن مالى واهتزاز التوازن الاجتماعى
فى عهد عثمان بن عفان

الفصل الأول

تحقيق فائض للمالية العامة الاسلامية
واستمرار نظام الأعطيات فى عهد عثمان

استمرار نظام الأعطيات فى عهد عثمان بن عفان :

استمر نظام الأعطيات فى عهد عثمان بن عفان كما كان فى عهد عمر بن الخطاب وهذا يدل على أن المالية العامة فى عهده قد توازنت وحققت فائضا ماليا مكن الدولة الاسلامية من توزيع الأعطيات ، وقد ساهم فى تحقيق هذا الفائض نصر المسلمين فى الفتوحات الاسلامية التى استمرت فى عهد الخليفة عثمان وأسفر النصر عن غنائم كثيرة آل خمسها الى بيت مال المسلمين وعن استحقاق الزكاة على من أسلم والجزية على من لم يسلم من أهل الكتاب من مواطنى البلاد المفتوحة ، خصوصا وأن هذه الفتوحات فى النظام المالى الاسلامى لا تلقى على بيت المال أعباءا جساما كما هو الشأن فى الحروب الحديثة لأن الفتوحات الاسلامية تعتمد أساسا فى تمويلها على مبدأ الجهاد فى الاسلام وتطوع المسلمين بأنفسهم وأموالهم فى سبيل الله مما يخفف العبء عن كاهل بيت مال المسلمين فى تمويل هذه الفتوح ٠

ومما يؤكد تحقيق الفائض أن الخليفة عثمان بن عفان ذكر فى احدى كلماته أن ببيت مال المسلمين فضلة من الأموال والفضلة تقابل الفائض من مصطلحات المالية العامة الحديثة ٠

ولا يتناقض مع هـذا الرأى ما تم فى عهد عثمان بن عفان من اقتراضه من موازنة الزكاة لينفق على الحرب وعلى المصالح العامة ، لأن ذلك ان حدث فى سـنة ما لم يتكرر فى باقى سنوات حـكمه ، ولأن الايرادات العامة التى تحققت نتيجة الفتوح كفيلة بتغطية هذا القرض ولأن الفائض يتحقق من زيادة ايرادات جميع الموازنات العامة فى سنة مالية على جميع نفقاتها العامة ، فاذا كان فى احدى هذه الموازنات عجز عوضـه وغطاه فائض الموازنات الأخرى ويتحقق فى النهاية الفائض الصـافى ٠

الاتجاه السياسي للعطاء :

وان كان نظام الأعطيات استمر في عهد عثمان كما كان في عهد عمر من حيث أساس توزيعه ، الا أنه اتجه في بعض حالاته وجهة سياسية وذلك كما يبين مما يلي ٠

زيادة العطاء في عهد عثمان بن عفان :

يذكر الطبرى أن أول خليفة زاد الناس في أعطياتهم مائة عثمان ولعل مبعث هـذا الاجراء من الخليفة عثمان رضى الله عنه هو استمالة الرعية نحو عهده غداة ولى الخلافة وحتى يستبشر الناس بذلك العهد ٠

ولا غضاضة على الحاكم أن يفعل ذلك اذا كان ذلك مما تحتمله مالية الدولة ، وكان نظام العطاء نفسه رشيدا في غير حاجة لتعديل أسسه ولكن قبيل عهد عثمان وفي حياة عمر بن الخطاب نوى كما سبق أن أوضحنا أن يجعل الناس في العطاء بيانا واحدا لما لاحظه من زيادة الغنى لدى أصحاب العطاء الأعلى وبعد الشقة بينهم وبين أصحاب العطاء الأقل فزيادته في عهد عثمان بن عفان في ظل أسس النظام السـابق أرضى الأغنياء من الرعية وقد يكون أرضى الفقراء بعض الشيء لما نالوه من زيادة في عطائهم ولكنه وسع ما بين الطبقتين من فروق مالية ٠

كاتب يذكر أن زيادة العطاء لم يكن لغرض سياسى :

وهناك رأى يرى أن زيادة عثمان العطاء لم يكن لغرض سياسى وانما فعلها لأنه كان يعتقد صواب هذه الزيادة فيقول :

« فأما الرزق الحلال فقد فرض لأصحابه ضعف ما كانوا يأخذونه من الأعطيـة يوم تولى الخلافة ، ولم يفعلهـا سياسـة بل فعلها ايمانا بالصواب في هذه الزيادة وقد كان هو في عهد الفاروق أول من قال بكثرة المال وأشار عليه برصد الأسماء وتوفية كل ذى حق حقه من العطاء خشية النسيان والتكرار » (١) ٠

اشاعة نقصان انفاق العطاء كانت من أسباب الاثارة في الكوفة :

ومن أمثلة الاتجاه السياسي للعطاء ما أشاعه أحد الناقمين على حكم عثمان من أن واليه على الكوفة سعيد بن العاص يعمل لدى عثمان على

(١) عثمان بن عفان ذو النورين ، عباس العقاد ، ص ١٥٢ ٠

نقصان العطاء ، فوقف أحد هؤلاء الناقمين في يوم جمعة على باب المسجد يقول :

أيها الناس ، انى قد جئتكم من عند أمير المؤمنين عثمان وتركت سعيدا يريده على نقصان نسائكم الى مائة درهم ، ورد أهل البلاء منكم الى ألفين ويزعم أن فيئكم بستان قريش ، وقد سايرته مرحلة ، فما زال يرجز بذلك حتى فارقته يقول :

« ويل لأشراف النساء منى صمحمح (١) كأننى من جن » فاستخف الناس وكانت نفجة (٢) وجعل أهل الحجى ينهونه فلا يسمع منهم (٣) .

عثمان عزم على تحريم انفاق الأعطيات للعصاة ليؤدبهم :

ومن أمثلة الاتجاه السياسى للعطاء أيضا اتخاذ الحرمان من العطاء كوسيلة لتاديب العصاة .

فبعد اجتماع عثمان مع ولاته لبحث أمر الناقمين على حكمه ردهم الى أعمالهم وأمرهم بالتضييق على من قبلهم وأمرهم بتجمير (٤) الناس فى البعوث وعزم على تحريم أعطياتهم ليطيعوه ويحتاجوا اليه (٥) .

غضب أم المؤمنين عائشة على عثمان لأنه أنقص عطاءها :

ومن أمثلة الاتجاه السياسى للعطاء كذلك ما ذكره بعض المؤرخين أن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها غضبت على « عثمان » يوما لانه أنقص عطاءها ، فتربصت به حتى رأته يخطب فى الناس ، فدلت قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم ونادت « يامعشر المسلمين . هذا جلباب رسول الله لم يبل ، وقد أبلى عثمان سنته » (٦) .

الاستجابة لنصرة عثمان بسبب عطائه :

ومن أمثلة أثر العطاء فى الاتجاه السياسى ما يذكره الطبرى من أن عثمان بن عفان ولى زيد بن ثابت الديوان وبيت المال فلما حضر عثمان ،

---

(١) الصمحمح من الرجال : الشديد المجتمع .
(٢) النفجة : الضجة .
(٣) الطبرى ، ص ٣٣١ .
(٤) تجمير : تجميع .
(٥) الطبرى ، ص ٣٣٥ .
(٦) بطلة كربلاء ــ زينب بنت الزهراء ــ بنت الشاطىء ــ طبعة دار الهــلال ، ص ٥٩ .

قال : « يا معشر الأنصار كونوا أنصار الله مرتين » (١) ٠

فقال أبو أيوب : « ما تنصره الا أنه آكثر لك من العضدان » (٢)

هذا ولم يبايع زيد بن ثابت على بن أبى طالب(٣) بعد خلافة عثمان ٠

عدم مبايعة أحد العاملين على الصدقة على بن أبى طالب بسبب عطاء عثمان له :

وما يذكره الطبرى كذلك أنه لما قتل عثمان رضى الله عنه بايعت الأنصار عليا الا نفرا يسيرا منهم كعب بن مالك وكان عثمان قد استعمله على صدقة مزينة وترك ما أخذ منهم له (٤) ٠

انواع اخرى من العطاء فى عهد عثمان :

توضح الوقائع التاريخية التالية اقرار عثمان لعطاء اضافى كان الخليفة عمر يعطيه فى رمضان وتوضح كذلك تمتع بعض أهل الذمة بالعطاء فى عهد عثمان وتعفف أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عطاء أراد عثمان منحه اياه ٠

عثمان يقر عطاء اضافيا لعمر فى رمضان :

كان عمر يجعل لكل نفس منفوسة من أهل الفيء فى رمضان درهما فى كل يوم وفرض لازواج الرسول صلى الله عليه وسلم درهمين درهمين فقيل له لو صنعت لهم طعاما فجمعتهم عليه ٠

فقال أشبع الناس فى بيوتهم ٠

فاقر عثمان الذى كان صنع عمر فى العطاء وصنع لهم طعاما فى المسجد كما نوهنا سابقا (٥) ٠

أهل الذمة يحصلون على اعانات شبيهة بالأعطيات من بيت مال المسلمين :

كان الوليد بن عقبة أحد ولاة عثمان على العراق يدخل النصارى المساجد ويجرى عليهم كل شهر وضمن لهم أرزاقهم شهريا (٦) ٠

---

(١) أى مرة أيام الرسول صلى الله عليه وسلم ومرة ثانية بنصرة عثمان بن عفان ٠

(٢) العضدان : جمع عضيد وهى النخلة لها الجذع يتناول منها المتناول ٠

(٣ ، ٤) الطبرى — الجزء الرابع — ص ٤٣٠ ٠

(٥) انظر موازنة الزكاة ٠

(٦) الاسلام وأهل الذمة ، حسن الخربوطلى ، ص ١٢٨ ، نقلا من البلاذرى انساب الأشراف جزء ٥ ، ص ٢١ ٠

ويغلب الظن أن هذه الاعانات لم تكن من موازنة الزكاة لأن الزكاة تؤخذ من المسلمين وتعطى لهم وانما كانت من موازنة الجزية والخراج وعشور التجارة أى الموازنة العامة وأهل الذمة يساهمون فى تمويلها بما يدفعونه من جزية فيحق للوالى أن يقرر للفقراء والمساكين منهم اعانات شهرية باعتبارهم ذميين فى ذمة الدولة الاسلامية ولعل فى ذلك البرهان الكافى على عدالة الاسلام فى رعاية أهل الذمة . وهذه الاعانات شبيهة بالأعطيات .

عبد الله بن مسعود يؤثر سورة الواقعة على عطاء بيت المال :

توفى عبد الله بن مسعود فى سنة ٣٢ هـ فى عهد عثمان بن عفان ، ولما مرض عاده الخليفة عثمان .

فقال : ما تشتكى ؟

قال : ذنوبى .

قال : فما تشتهى ؟

قال : رحمة ربى .

قال : ألا آمر لك بطبيب ؟

قال : الطبيب أمرضنى .

قال : ألا آمر لك بعطاء ؟

قال : لا حاجة لى فيه .

قال : يكون لبناتك .

قال : أتخشى على بناتى الفقر ؟ انى أمرت بناتى أن يقرأن كل ليلة سورة الواقعة ، انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا » .

وليس هذا الاستعفاف عن المال العام بعجيب على ابن مسعود فقد أسلم قديما قبل عمر بن الخطاب وقد قال يذكر سبب اسلامه :

« كنت غلاما يافعا فى غنم لعقبة بن أبى معيط أرعاها فأتى النبى صلى الله عيله وسلم ومعه أبو بكر .

فقال : يا غلام هل معك لبن ؟

فقلت : نعم ولكنى مؤتمن .

فقال : ائتنى بشاه لم ينزل عليها الفحل .

فأتيته بعناق أو جذعة فاعتقلها رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يمسح الضرع ويدعو حتى أنزلت ، فأتاه أبو بكر بصحفة فاحتلب فيهـا .

ثم قال لأبى بكر : اشرب .

فشرب أبو بكر ثم شرب النبى صلى الله عليه وسلم بعده ثم قال للضرع أقلص فقلص فعاد كما كان ثم آتيته .

فقلت : يا رسول الله علمنى من هذا الكلام أو من هذا القرآن .

فمسح رأسى وقال : انك غلام معلم .

قال (ابن مسعود) : فلقد أخـذت منه سبعين سورة ما نازعنى فيها أحد .

وهو أول من جهر بالقرآن بمكة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يخدم الرسول وهاجر الهجرتين جميعا الى الحبشة والمدينة وشهد بدرا وأحدا والخندق وبيعة الرضوان وسائر المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهد اليرموك بعده وقد شهد له رسول الله بالجنة (١) .

عطاء مزعوم فى عهد عثمان كان محل نقد :

أشاع البعض أن عثمان رضى الله عنه منح عددا من اقربائه مبالغ من بيت مال المسلمين بدون مبرر الا صلة الرحم .

وفيما يلى بيان بالمبالغ التى يقال أنهم حصلوا عليها وبأسمائهم وصلتهم بالخليفة .

---

(١) عثمان ذو النورين ، محمد رضا ، ص ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ .

بيان بما قيل عن عطاء من بيت المال فى عهد عثمان كان محل نقـد :

اسم من حصل على المال	صلته بالخليفة رضى الله عنه	المبلغ الذى حصـل عليـه	ملاحظات
(١) مروان بن الحكم	ابن عم الخليفة	القيمة التى غنمها المسلمون فى سبيطلة	أمره الخليفة برد ١٥ ألف دينار لبيت المال فتم ذلك بنـاء على طلب الصحابة
(٢) الحارث بن مروان بن الحكم	زوج ابنة الخليفة	ثلاثمائة ألـف	
(٣) عبد الله خالد	زوج ابنة الخليفة	ثلاثمائة ألـف أو ستمائة ألـف	أمره الخليفة برد ١٥ ألف دينـار أو ٥٠ ألف دينار لبيت المال
(٤) كل واحد من الذين وفدوا مع عبد الله بن خالد فى قران ابنة الخليفة	تابعين لزوج ابنته	مائـة ألـف	
(٥) الزبير بن العوام	صحابى	ستمائة ألف	
(٦) طلحة بن عبيد الله	صحابى	مائـة ألـف	
(٧) سعيد بن العـاص	من أقرباء الخليفة	مائـة ألـف	
(٨) كل زوج لبنـات الخليفـة الثـلاث أو الأربع	أزواج بنـات الخليفة	مائـة ألـف	
(٩) أجـاز عثمان أحد أهـل بيته بجـائزة	أهل بيت الخليفة		جعلها الخليفة قرضـا من بيت المال (١)

(١) ١ ، ٢ ، ٣ ، ٩ من ابن الأثير جزء ٣ ص ١٥٧ واليعقوبى جزء ٢ ص ١٦٨ ، ١٧٤ ووردت بكتاب تاريخ الدول العربية للدكتور سيد عبد الرحمن سالم ص ٢٧١ ، ٢٨٠ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ وردت بكتاب مع الخلفاء الراشدين ، عبد الخالق أبو رابية ص ٧٩ .

واقعة مالية عن العطاء أبكت زيادا في عهد عثمان :

ومما يروى فى هذا الشأن أيضا أنه قد حدث فى خلافة عمر أن كتب الى أبى موسى الأشعرى : اذا جاءك كتابى هذا فاعط الناس أعطياتهم واحمل الى ما بقى مع زياد ففعل فلما كانت خلافة عثمان كتب الى أبى موسى بمثل ذلك ففعل •

فجاء زياد بما معه فوضعه بين يدى عثمان • فجاء ابن لعثمان فأخذ شيئا من فضة فمضى به فبكى زياد •

قال له عثمان : ما يبكيك •

قال زياد : أتيت أمير المؤمنين عمر بمثل ما أتيتك به ، فجاء ابن له فأخذ درهما فأمر فانتزع منه حتى بكى الغلام • وان ابنك هذا جاء فأخذ هذه فلم أر أحدا قال له شيئا •

فقال له عثمان : ان عمر كان يمنع أهله وقرابته ابتغاء وجه الله وانى أعطى أهلى وأقربائى ابتغاء وجه الله • ولن تلقى مثل عمر ، ولن تلقى مثل عمر ، ولن تلقى مثل عمر (١) •

رواية أخرى عن واقعة عطاء عثمان لأهله :

وروى أبو موسى الأشعرى •

قال : كنت اذا أتيت عمر بالمال والحلية من الذهب والفضة لم يلبث أن يقسم بين المسلمين حتى لا يبقى منه شىء • فلما ولى عثمان أتيت به فكان يبعث الى نسائه وبناته ، فلما رأيت ذلك أرسلت دمعى وبكيت •

فقال عثمان : ما يبكيك ؟ فذكرت له صنيعه وصنيع عمر

فقال : رحم الله عمر كان حسنة وأنا حسنة ولكل ما اكتسب

قال أبو موسى : ان عمر كان ينزع الدرهم الفرد من الصبى من أولاده فيرده فى مال الله ويقسمه بين المسلمين ، فأراك قد أعطيت احدى

---

(١) مع الخلفاء الراشدين ، ص ٥٩ نقلا عن ابن الجوزى •

بناتك مجمرا من الذهب مكللا باللؤلؤ والياقوت وأعطيت الأخرى درتين لا يعرف كم قيمتها ·

فقال : ان عمر عمل برأيه ولا يألو عن الخير وأنا أعمل برأيي ولا آلو عن الخير وقد أوصاني وأنا مستوص بهم وأبر بهم (١) ·

عثمان بن عفان رضى الله عنه يكذب عطاء أهله من بيت المال :

وفي شأن عطاء عثمان لأهل بيته من بيت المال قال في اجتماع له مع الصحابة :

وقالوا : اني أحب أهل بيتي وأعطيهم ، فأما حبى فانه لم يميل معهم على جود ، بل أحمل الحقوق عليهم ، وأما أعطاؤهم فان ما أعطيهم من مالى ، ولا أستحل أموال المسلمين لنفسي ، ولا لأحد من الناس ، ولقد كنت أعطى العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالى أزمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وأنا يومئذ شحيح حريص · أفحين ، أتيت على أسنان أهل بيتي ، وفنى عمرى ، وودعت الذى لى فى أهلى ، قال الملحدون ما قالوا ! وانى والله ما حملت على مصر من الأمصار فضلا فيجوز ذلك لمن قاله ، ولقد رددته عليهم ، وما قدم على الا الأخماس ، ولا يحل لى منها شىء ؟ فولى المسلمين وضعها فى أهلها دونى ، ولا يتلفت من مال الله بفلس فما فوقه ، وما أتبلغ منه ما آكل الا مالى (٢) ·

قرائن قوية تفند المزاعم باخذ عثمان الأموال من بيت المال له ولأهله :

ـ علاوة على ما قاله عثمان فى الفقرة السابقة بانه يعطى أهل بيته من ماله الخاص فان وقائع التاريخ فى عهد عثمان تتضمن قرائن تنفى حصول عثمان بن عفان وأهله على عطاء من بيت مال المسلمين وهـذه الوقائع هى :

ـ أنه جاد بأمواله الخاصة تطوعا فى نشر الدعوة الاسلامية وتثبيتها ، حينما كان بيت المـال شحيح الموارد غـير قادر على التمويل والوفاء بالمتطلبات المالية للدولة ·

ـ أنه جاد بأمواله الخاصة في سبيل اشباع ضرورات الأمة فسقاها

---

(١) عثمان بن عفان ذو النورين ، محمد رضا ـ طبعة ثانية ـ ص ٢٢٨ ·

(٢) الطبرى ـ جزء ٤ ـ طبعة رابعة ، دار المعارف ، ص ٣٤٧ ، ٣٤٨ ·

من بئر اشتراها وقدم لها الطعام حينما حلت المجاعة على النحو الذى سبق أن أوضحناه .

ـ عندما نوقش الخليفة فى موضوع حمى الأرض قال فى مجمع من الصحابة :

« ومالى من بعير غير راحلتين ... وانى قد وليت وأنى أكثر العرب بعيرا أو شاه فمالى اليوم شاه ولا بعير غير بعيرين لحجى » وقد صدق الصحابة على قوله على أن تقواه وصلته بالرسول صلى الله عليه وسلم وقراءته القرآن ، قرائن قوية بأنه لا يقول الا صدقا .

ـ أقسم عثمان بأن طعامه من ماله وليس من مال المسلمين كما سبق أن أوضحنا فقال :

« أما والله ما آكله (أى طعام) من مال المسلمين ولكن آكله من مالى ، أنت تعلم أنى كنت أكثر قريش مالا وأجدهم فى التجارة » .

ـ سنوضح فيما بعد أن عثمان رضى الله عنه رفض اقتراحا لمعاوية لحمايته من قتله بمعرفة الثوار بأن يرتب له أربعة آلاف من جند أهل الشام لحمايته .

وقال عثمان :

« أرزق أربعة آلاف من الجند من بيت مال المسلمين لحرزدمى ، لا فعلت هذا » .

ـ قدم بعض الكتاب أدلة وقرائن ووقائع أخرى تؤيد سلامة موقف عثمان على النحو التالى :

وجهة نظر أحد المؤرخين (١) فى عطاء عثمان لأهله :

يناقش أحد المؤرخين وقائع عطاء عثمان لأهله فيفند ذلك تحت العناوين التالية :

ـ اعطاء عثمان الحكم مائة ألف .

« أما صلة الحكم من بيت المال بمائة ألف فلم تصح وانما الذى صح أنه زوج ابنه من ابنة الحارث بن الحكم وبذل لها من مال نفسه مائة

(١) المؤرخ هو أبو جعفر أحمد الشهير بالمحب الطبرى فى كتابه « الرياض النضرة فى مناقب العشرة » ورد فى كتاب عثمان بن عفان ذو النورين ، محمد رضا ـ الطبعة الثانية ، ص ٣٢٣ وما بعدها .

ألف درهم وكان رضى الله عنه ذا ثروة فى الجاهلية والاسلام ، وكذلك زوج ابنته أم أبان من ابن مروان ابن الحكم وجهزها من خاص ماله بمائة ألف وهذه صلة رحم يحمد عليها » ٠

ـ اعطاء عثمان عبد الله بن خالد بن أسد مبالغ من بيت المال ٠

« وأما ما ذكر من صلته (أى عثمان) عبد الله بن خالد بن أسد بثلثمائة ألف درهم فان أهل مصر عاتبوه على ذلك لما حصروه ، فأجابهم بأنه استقرض له ذلك من بيت المال وكان يحتسب لبيت المال ذلك من نفسه حتى وفاه » ٠

ـ صرف عثمان بن عفان مال من بيت المال فى عمارة ودوره وضياعه٠

« وما نسبوه اليه من صرف مال بيت المال فى عمار دوره وضياعه المختصة ، فبهتان أفترى عليه ٠ وكيف وهو من أكثر الصحابة مالا ، وكيف يمكن ذلك بين أظهر الصحابة مع أنه الموصوف بكثرة الحياء وان الملائكة تستحى منه لفرط حيائه ٠ أعاذنا الله من فرط الجهل وموبقات الهوى أمين أمين » ٠

ـ الرأى فى قصة أبى موسى الأشعرى عن عطاء عثمان لأهله ٠

« وأما قصة أبى موسى فلا يصح منها ٠ فانه رواه ابن اسحاق عمن حدثه عن أبى موسى ولا يصح الاستدلال برواية المجهول ٠ وكيف يصح ذلك وأبو موسى ما ولى لعثمان عملا الا فى آخر السنة التى قتل فيها ولم يرجع اليه ٠

فانه لما عزله عن البصرة بعبد الله بن عامر لم يتول شيئا من أعماله الا ارسال أهل الكوفة اليه فى السنة التى قتل فيها أن يوليه الكوفة فولاه اياها ولم يرجع اليه » ٠

زعم بعزل عثمان القائم على بيت المال لاعتراضه على أعطياته ورأى أحد الكتاب فيه :

كان عبد الله بن الأرقم القائم على بيت المال أيام عمر ، فلما رأى أن عثمان يأمره أن يعطى من بيت المال لمن لا يستحقه استقال من عمله ، فأعطاه عثمان ثلثمائة ألف بعد استقالته فلم يقبلها تورعا وزهدا (١) ٠

ويرد على ذلك أحد المؤرخين (٢) فيقول :

---

(١) راجع ــ الخلفاء الراشدين ــ مرجع سابق ص ٧٩ ٠

(٢) نفس المؤلف السابق ٠

« وأما عزل ابن الأرقم ومعيقب عن ولاية بيت المال فانهما أسنا وضعفا عن القيام بحفظ بيت المال » .

وقد روى أن عثمان لما عزلهما خطب الناس وقال :

« ألا ان عبد الله بن أرقم لم يزل على جراياتكم زمن أبي بكر وعمر الى اليوم وأنه كبر وضعف وقد ولينا عمله زيد بن ثابت » .

الفصل الثانى

اهتزاز اجتماعى ودعوة أبى ذر الغفارى وتعديلات كانت لازمة للسياسة المالية فى عهـد عثمان

اهتزاز التوازن الاجتماعى فى عهد عثمان :

أوضحنا أنه من الناحية المالية حقق تنفيذ المالية العامة فى عهد عثمان ابن عفان فائضا مكن بيت المال من الاستمرار فى تنفيذ نظام الأعطيات طبقا للأسس التى وضعها عمر بن الخطاب لهذا النظام ، غير أن هذا التنفيذ الذى حقق فائضا فى الأموال العامة لم يصاحبه توازن اجتماعى للمجتمع فى عهد عثمان بن عفان ، فقد ذكرنا أنه حينما آلت الخلافة الى عثمان ، كان عمر قد لاحظ قبله ان الفروق بين الأغنياء والفقراء بدأت تميل نحو الاتساع ، فنوى وأعلن نواياه بأنه لو عاش سيأخذ فضول الأغنياء ويوزعها على الفقراء وأنه سيجعل الناس فى العطاء بيانا واحدا ٠

ولم توضع نواياه فى عهد عثمان بن عفان موضع التنفيذ ، بل استجدت فى عهده عوامل عملت على زيادة هذه الفروق واتساعها وهذه العوامل هى :

ـ اتساع الفتوحات الاسلامية فى عهد عثمان بن عفان وتحقيق نصر المسلمين فيها وكثرة الغنائم التى غنمها الفاتحون وتوزيع أربعة أخماسها عليهم مما زاد من غنى الأغنياء منهم ٠

ـ كان العرب أهل تجارة من أيام الجاهلية وكان بعضهم مفرط فى الغنى ، فلما امتدت الفتوح واتسعت الدولة الاسلامية ، واستقر الأمن ، ساهمت هذه العوامل فى نشاط التجارة وازدياد معاملاتهـا واتسـاع أسواقها فعظمت أرباحها وازداد غنى تجار مكة والمدينة وكان منهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والاسلام لا يمنع التجارة ولا يعارض الثروة ولكن يمنع وجود أغنياء مترفين وفقراء معدمين ٠

ـ توزيع عثمـان بعض أراضى الدولة على الصحابة والسماح لهم بالانتقال الى الأمصار ونقل فيئهم اليهم ، ففي أيامه اقتني جمـاعة من

الصحابة الضياع والدور . فمروان بن الحكم بنى القصور بذى خشب (١) والزبير بن العوام بنى داره بالبصرة ينزلها التجار وأرباب الاموال كما ابتنى دورا بمصر والكوفة والاسكندرية ، وابتنى طلحة بن عبيد الله التيتمى داره بالكوفة المعروفة بالكناسة بدار الطلحيين وشيد دارا بالمدينة بناها بالأجر والجص والساج كذلك ابتنى عبد الرحمن بن عوف الزخرى داره ووسعها ، وابتنى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق فرفع سمكها ووسع فضاءها وجعل أعلاها شرفات . وذكروا أن زيد بن ثابت حين توفى حلف من ذهب وفضة ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الأموال والضياع بما قيمته مائة ألف دينار ، كذلك ذكروا أن المقداد بن الأسود ابتنى داره بالمدينة فى الموضع المعروف بالجرف على أميال من المدينة وجعل أعلاها شرفات وجصصها من الظاهر والباطن ، وأحصوا ما خلف يعلى ابن منية بعد وفاته فوجدوه قد ترك خمسمائة ألف دينار وديونا على الناس وعقارات بما قيمته ثلاثمائة ألف دينار (٢) .

- تؤدى كثرة الاموال الى ميل أصحابها الى حياة الترف والاستمتاع والبعد عن التقشف والزهد ولربما ساعد على ذلك أن الخليفة نفسه كان ابن تراء لم يعتد التقشف كما نعوده من قبله أبو بكر وعمر رضى الله عنهما اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نقول انهم كانوا رضى‌الله عنهم يرتكبون ما يخالف أحكام الدين ولا تعاليمه ولا نقول ان ما امتلكله من أموال وما شيدوه من قصور لا يقره الدين ولكن نقول ان بعضهم انتقل من حالة الزهد الى حالة التنعم بالطيبات ولا تثريب عليهم فى ذلك فهم كما ذكرنا يطبقون قول الله جل وعلا ويؤتون رخص الله التى حللها لعباده (٣) .

وهم يؤدون لبيت المال ما يفرضه الدين عليهم من زكاة مفروضة ويتطوعون فوق ذلك بالصدقات ، وقد بلغ هذا التطوع من بعض الصحابة مبلغا عظيما كما سبق أن نوهنا عند الكلام على بعض الصحابة كعبد الرحمن بن عوف وطلحة الجود .

انما لهذا الغنى انعكاسات على شريحة الفقراء كما ذكرنا فهم يقارنون بين ما كان يحدث من زهد أيام الرسول صلى الله عليه وسلم وأيام خليفتيه من بعده وبين التنعم الجديد وتنتهى المقارنة الى عدم ترحيب بالغنى الجديد

---

(١) ذو خشب : واد على مسيره ليلة من المدينة .

(٢) تاريخ الدولة العربية ، السيد عبد العزيز سالم ، ص ٢٧٥ . نقلا عن ابن قتيبه والمسعودى .

(٣) ذكرنا الآيتين القرآنيتين فى الفصل الثانى من الباب الثالث .

أو على الاقل عدم التحمس له خصوصا وأن الغنى قد أدى الى ارتفاع الأسعار ·

فقد سبق أن ذكرنا أن المال كثر في زمن عثمان بن عفان الى حد ان جارية بيعت بوزنها وأن فرسا بيعت بمائة ألف (١) اذ أن كثرة الاموال وزيادة الغنى تؤدى الى زيادة القوة الشرائية لدى الأغنياء وزيادة الطلب الفعال على السلع فترتفع أسعارها وارتفاع الأسعار يضر بالفقراء وبأصحاب الدخول المحدودة الذين لا تزيد عادة دخولهم لأنها تكون ثابتة واذا زادت هذه الدخول زادت زيادة تقل كثيرا عن الزيادة فى الأسعار وازاء عدم التوازن الذى حدث بين دخول الفقراء وعدم كفايتها لاشباع حاجياتهم الضرورية بسبب ارتفاع الأسعار أن أصبحت الزكاة المفروضة ومواردها لا تحقق كامل رسالتها فى تحقيق التكافل الاجتماعى بين أغنياء المسلمين وفقرائهم ·

وكان لزاما أن يرتفع صوت فى المجتمع ينبه الى هذا الذى حدث خصوصا وأن مجتمع الصحابة مازال موجودا ، وانه وان كان بعضهم من الأغنياء ، الا أن منهم من ظل على حاله كما تركه الرسول صلى الله عليه وسلم تقيا نقيا عابدا زاهدا ممن اجتباهم الله وهداهم الى صراط مستقيم ، وهؤلاء الصحابة وسائر المسلمين قد بايعوا الخليفة عثمان بن عفان على كتاب الله وسنة نبيه وفعل أبى بكر وعمر ، وهذا الذى يحدث فى مجتمع المسلمين بين الأغنياء والفقراء لا يطابق مجتمع أبى بكر وعمر . ولذا ارتفع صوت صحابى جليل يدعوه وجهها الى الأغنياء وهو صوت أبى ذر الغفارى رضى الله عنه ·

اسلام أبو ذر فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته فى عهد عثمان :

وأبو ذر الغفارى رجل غفارى من كنانه اسمه جندب بن جنادة كان من قبيلة تدعى غفار وهى قبيلة كانت قبل اسلامها لا يدرك لها شأو فى قطع الطريق وأهلها مضرب الأمثال فى السطو غير المشروع فكانوا حلفاء الليل والظلام والويل لمن كان يسلمه الليل الى واحد من قبيلة غفار ، وبالرغم من ذلك فقد جاء جندب الى مكة متحملا عناء السفر وفيح الصحراء ·

ذهب حيث يوجد الرسول صلى الله عليه وسلم فوجده جالسا وحده فاقترب منه وقال : نعمت صباحا يا أخا العرب ·

---

(١) أوضحنا ذلك عند الكلام على الانفاق العام من خمس الغنائم ·

فأجاب الرسول صلى الله عليه وسلم : وعليك السلام يا أخاه ·

قال أبو ذر : أنشدنى مما تقول ·

فأجاب الرسول صلى الله عليه وسلم : ما هو بشعر فأنشـــدك ولكنه قرآن كريم ·

قال أبو ذر : اقرأ على ·

فقرأ عليه الرســول صلى الله عليه وسلم وأبو ذر يصغى ، ولم يمض من الوقت غير قليل حتى هتف أبو ذر : أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله وسأله النبى صلى الله عليه وسلم : ممن أنت يا أخا العرب ؟ ·

فأجابه أبو ذر : من غفار ·

يقول أبو ذر وهو يروى القصة « ·· فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يرفع بصره ويصوبه تعجبا لما كان من غفار ،

ثم قال : « ان الله يهدى من يشاء » ·

كان الرسول فى ذلك الوقت يهمس بالدعوة همسا ، ومع ذلك دخل أبو ذر المسجد الحرام ونادى بدعوة الحق بأعلى صوته بشهادة أن لا اله الا الله وأن محمـدا رسول الله وبالرغم مما لاقاه من أذى المشركين فانه عاد فى اليوم الثـانى ولقى امرأتين تطوفان بالاصـــنام فسفه الصنمين نسفيها لاذعا ، فتستغيثان فيأتى المشركون ويضربونه حتى يفقـــد وعيه ·

فأكب عليه العباس بن عبد المطلب ،

وقال لكفار قريش : ويلكم ألســتم تعلمون أنه من غفـــار وأنه طريق تجارتكم الى الشـــام ؟ فأنقذه منهم ، حصل ذلك فى ثلاثة أيام متوالية ثم رجع الى قومه وأخبر أخاه أنيسا فأسلم ثم أسلمت أمهمـــا وبعض قومهم ·ولما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة، جاءته قبيلتان أبلغهما أبو ذر دعوته وهما غفار وأسلم ·

فقال لهما صلى الله عليه وسلم : « غفار غفر الله لها » « وأســـلم سالمها الله » ·

وقال لأبى ذر : « ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء أصـــدق لهجة من أبى ذر » ·

صاحب أبو ذر الرسول صلى الله عليه وسلم ونقل عنه الكثير من الأحاديث ويعتبر أحد كبار أئمة الحديث وبعـد أن قبض الله جل وعلا رسوله الكريم الى جواره أقام فى المدينة مدة خلافة أبى بكر وعمر وبعض السنوات من خلافة عثمان ·

ولما لاحظ الفروق الكبيرة بين الأغنياء والفقراء التى زاد اتساعها فى عهد عثمان أخذ يطوف بالمدينة ويطالب الأغنياء بالتنزول عن جزء من أموالهم للفقراء فكان يقول :

« يا معشر الأغنياء واسـوا الفقراء ، بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سـبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ،

ويتلو قول الله جل وعلا :

« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سـبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » ٠

(التوبة / ٣٤ ، ٣٥)

أبو ذر يعلن دعوته فى الشام :

وذهب أبو ذر للشـام يدعـو بدعوته وكانت أكثر البـلاد خصبا ونماءا وأكثرها فيئا ولما ذهب الى الشام ونادى بدعوته كان من الطبيعى أن يلفت أنظار معاوية ويتقابلان فيصطدمان فقد سمع أبو ذر معـاوية ابن سفيان والى الشام يقول : ان المال العام مال الله ٠

فأنكر أبو ذر عليه ذلك وأتاه وقال له : ما يدعوك الى أن تسمى مال المسلمين مال الله ؟

قال معاوية : يرحمك الله يا أبا ذر ألسنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره ٠

قال أبو ذر : لا تقله فانى لا أقول انه ليس لله ولكن سـأقول مال المسلمين ٠

والواقع أن الأموال كلهـا لله وهى فى نفس الوقت الأموال التى جبيت من المسلمين مما أتاهم الله ، ولكن معاوية أراد أن يعمم بأن المال مال الله ولا يذكر أنه مال المسـلمين حتى يكون فى حل من أن يوجـه الأموال العامة كيف يشاء بما له من ولاية على بيت مال الشام ولا يناقشه أو يحاسبه دافعوا هذه الأموال العامة ٠

أبو ذر يواجه عثمان بدعوته :

وقد أراد معاوية أن يسكت صوت الدعوة الجديدة باغراء المال فبعث لأبى ذر بألف دينار وبعث ذلك سرا فى منتصف الليل فلما كان الصبح أرسل اليه يستردها معتذرا بحجة اختلقها فعاد رسول معاوية يخبره بأن أبا ذر تصدق بها فلما ضاق معاوية به ذرعا كتب الى الخليفة يشكو أبا ذر فطلب أن يرسله اليه فلما دخل على الخليفة دارت بينهما المناقشة التالية :

عثمان : ما لأهل الشام يشكون ذربك (لسانك) ٠

أبو ذر : أنه لا ينبغى أن يقال مال الله ولا ينبغى للأغنياء أن يقتنوا مالا ٠

عثمان : على أن أقضى ما على وآخذ ما على الرعيـة ولا أجبرهم على الزهد وأن أدعوهم الى الاجتهاد والاقتصاد ٠

أبو ذر : أفتأذن لى فى الخروج فان المدينة ليست لى بدار ٠

أذن له عثمان أن يخرج فاختار الربذة وهى مكان ناء عن المدينة ، ويقول آخرون ان عثمان نفاه اليها ٠

تأصيل دعوة أبى ذر بأحاديث عن الرسول :

تكاد دعوة أبى ذر تنبع من بعض الأحاديث التى رواها عن الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك على النحو التالى :

ـ كان أبو ذر يرى أن الامارة أمانة وأن الأمير ينبغى أن يأخذها بحقها ويؤدى الذى عليه فيها ولما ظن أن بعض الأمراء لم يؤد للفقراء كل الذى عليهم جاهرهم بدعوته مستندا فى ذلك بما سـمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مسئولية الأمراء ٠

عن الحرث بن يزيد الحضرمى قال : سمعت ابن حجيرة الشـيخ يقول :

« حدثنى من سمع أبى ذر يقول : ناجيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلا ـ أو قال ليلة ـ حتى الصبح ٠

فقلت : يا رسول الله امرنى ٠

فقال : انها أمانة ، وانها حسرة وندامة يوم القيامة الا من أخذها بحقها وأدى الذى فيها (١) ٠

ـ وعن واجبات الأغنياء يروى أبو ذر الحديث التالى عن النبى صلى الله عليه وسلم فعن أبى ذر رضى الله عنه :

قال : انتهيت الى النبى صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى ظـل الكعبة ، فلما رآنى ٠

قال : « هم الأخسرون ورب الكعبة » قال (أبو ذر) فجئت حتى جلست فلم أتقار ان قمت فقلت : يا رسول الله فداك أبى وأمى من هم ؟

قال : « هم الأكثرون أموالا الا من قال : هكذا وهكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شمال وقليل ما هم ، ما من صاحب

---

(١) الأموال ، لأبى عبيد ، ص ١١ ٠

ابل ولا بقر ولا غنم لا يؤدى زكاتها الا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت واسمنه تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها كلما نفدت أخراها عادت عليه أولاها حتى يقضى بين الناس (١) ٠

والرسول بهذا الحديث يقرر أن أكثر الناس خسرانا يوم القيامة هم الأكثرون أموالا لأنهم قد حرموا أنفسهم بما أعطاهم الله من فضله ، فلم يقدموا منه لأنفسهم خيرا يدخرونه عند الله تعالى فيضاعف لهم ثوابه ويجزل لهم العطاء وقد أقسم النبى صلى الله عليه وسلم على ذلك بقوله « ورب الكعبة » وهو الله تعالى تأكيدا للكلام وادخال الرهبة فى قلوب السامعين ، ويستثنى من هؤلاء من يكثر من الانفـــاق للمال فى جميع وجوه الخير والبر المتعددة لا يبالى ان جاءت من جهة اليمين أو من جهة الشمال أو من الخلف أو الأمام ، فلا يخص بالانفاق جهـــة من جهات الخير دون أخرى وأن هؤلاء قليلون لما وقر فى صدور الناس من حب المال وجمعه والحرص عليه ٠

الا ترى أن ما نادى به أبو ذر الغفارى أيام عثمان بن عفان يكاد ينبع من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ٠

ـ وعن أبى ذر رضى الله عنـه قال أن رســول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« فى الابل صدقاتها وفى الغنم صدقاتها وفى البر صدقته ومن رفع دنانير أو دراهم أو تبرا أو فضة لا يعدها لغريم ولا ينفقها فى سبيل الله ، فهو كنز يكوى به يوم القيامة » ٠

يحض هذا الحديث على زكاة الأموال وكذلك زكاة التجارة ويوضح ان من يبقى لديه أموالا ذهبا أو فضة أو نقودا ولا يؤدى زكاتها فانما تعتبر كنزا يكوى به يوم القيامة الا ما كان محتجزا لدين ٠

وما ورد فى دعوة أبى ذر بأن الأغنياء سيكوون بمكاو من نار يوم القيامة يكاد يكون مقتبسا من كى أصحاب الكنز ٠

لماذا لم ينقل أبو ذر دعوته من القول الى العمل :

لم ينقل أبو ذر دعوته من القول الى العمل لأنه قد تلقى توجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذا الشأن أبان حياته ٠

فقد ألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ما هذا السؤال على أبى ذر :

---

(١) المنتخب من السنة ـ المجلد السادس ـ طبعة المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، ص ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ٠

« يا أبا ذر كيف أنت اذا أدركت أمراء يستأثرون بالفيء » ٠

فأجاب أبو ذر : « اذا والذى بعثك بالحق لأضربن بسيفى » ٠

فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : « أفلا أدلك على خير من ذلك ؟ أصبر حتى تلقانى » ٠

وقد التزم أبو ذر بوصية الرسول صلى الله عليه وسلم التزاما كاملا ، فقد جاءه يوما وهو فى الربذة وفد من الكوفة يسألونه أن يرفع راية الثورة ضد الخليفة فزجرهم بكلمات حاسمة وقال :

« والله لو أن عثمان صلبنى على أطول خشبة أو جبل لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ورأيت ذلك خيرا لى » ٠

« ولو سيرنى ما بين الأفق الى الأفق لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ورأيت ذلك خيرا لى » ٠

« ولو ردنى الى منزلى لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ورأيت ذلك خيرا لى »(١) ٠

انعكاس صدق دعوة أبى ذر على علاقته ببعض الصحابة :

ولقد عكس صدق دعوته على علاقته ببعض الصحابة لأنهم ولوا الامارات وصارت لهم أموال حلال ٠

فقد لقيه أبو موسى الأشعرى يوما فلم يكد يراه حتى فتح له ذراعه مرحبا به وهو يقول : مرحبا أبا ذر ٠ مرحبا بأخى ٠

فرد أبو ذر : لست بأخيك انما كنت أخاك قبل أن تكون واليا وأميرا ٠

كذلك لقيه أبو هريرة يوما واحتضنه مرحبا ٠

ولكن أبو ذر نحاه قائلا : اليك عنى ، ألست الذى وليت الامارة ، فتطاولت فى البنيان واتخذت لك ماشية وردءا (٢) ٠

بعض الصحابة كانوا يشاركون أبا ذر الرأى فى عهد عثمان :

وكان بعض الصحابة يذهبون الى ما ذهب اليه أبو ذر ومنهم الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه وعمار وسلمان رضى الله عنهما » (٣) ٠

---

(١) رجال حول الرسول ، خالد محمد خالد ، ص ٧٦ ، ١٠٠ ٠

(٢) رجال حول الرسول ، خالد محمد خالد ، ص ٩٣ ، ٩٤ ٠

(٣) على امام المتقين ، عبد الرحمن الشرقاوى ، مقال بجريدة الأهرام فى ١٩٨٣/٩/٧ ، ص ١٢ ٠

مناقشة رأى عثمان بن عفان فى دعوة أبى ذر :

ـ كانت وجهة نظـــر عثمان بأن الخير عميم وأن الناس جميعا يستمتعون بالمال ويفرض لهم العطاء من بيت المال بما فيهم الأطفـــال عند ما يولدون وأن من أدى زكاته ليس بكانز .

ويؤيد وجهة نظر عثمان رضى الله عنه الأحاديث التالية :

ـ فعن خالد بن أسلم قال : خرجنا مع عبد الله بن عمر رضى الله عنهمـــا .

فقال أعـرابى : أخبـرنى عن قول الله « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله » .

قال ابن عمر : من كنزها فلم يؤد زكاتها فويل له ، انما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة فلما أنزلت جعلها الله طهرا للأموال (١) .

وبذلك بين ابن عمر رضى الله عنهما للسائل أن الوعيد الوارد فى الآية كان قبل أن ينزل فرض الزكاة بمقاديرها المعروفة ، وكان الواجب أول الاسلام انفاق كل ما فضل عن الكفاية امتثالا لقول الله تعالى :

« ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو » (البقرة / ٢١٩) .

فالعفو ما فضل عن الكفاية وانما وجب ذلك أول الاسلام ليتحقق معنى المواساة بين أفراد المسلمين الأولين ، فلا تتحقق المواساة الا بذلك لقلة الأغنياء من المسلمين وقتئذ والاقتصار على الزكاة وحدها لا يوجـد المواساة ، فكان فرضا عليهم أن ينفقوا على اخوانهم كل ما فضـــل عن كفايتهم تيسيرا على الفقراء من المسلمين ، ولما كثر المسلمون وكثر الأغنياء منهم وكان مقدار الزكاة المعين يكفى المحتاجين اكتفى بمقدار الزكاة فلم يفـــرض غيرها حتى لا يشـــق التكليف فيضجر العبـــاد فيهلكوا قال تعالى :

« ولا يسألكم أموالكم أن يســألكموها فيحفكم تبخـلوا ويخـرج أضغانكم » (محمد ٣٦ و ٣٧) .

واعتبر ما زاد عن الزكاة تطوعا ونافلة وكرما ومروءة وصار اخراج الزكاة وحدها مطهرا للأموال الباقية ، فلا تكون كنزا ، شرعا يتوعد الله عليه بالعذاب الأليم (٢) ، وابن عمر رضى الله عنهما لا يقول ذلك الكلام

---

(١) الحديث وارد فى كتاب المنتخب من السنة ـ الجزء السادس ـ أصدره المجـــلس الأعلى للشئون الاسلامية ، ص ٧٣ ، ٧٤ . وقد أخرجه البخارى فى الزكاة وفى التفسير والنسائى فى الزكاة واللفظ للبخارى .

(٢) يرى البعض أن الآيتين متفقان فى أن الله جل وعلا لا يسأل كل الأموال بل يأمر بجزء منها .

ولا يفتى به من جهة نفسه فليس رأيا له يراه بل هو مستمد من تشريع النبى صلى الله عليه وسلم(١) .

ــ ويؤيد ذلك أيضا حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، فعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« كل مال ــ وان كان تحت سبع أرضين ــ تؤدى زكاته فليس بكنز وكل مال لا تؤدى زكاته وان كان ظاهرا فهو كنز »(٢) .

والمعنى أن اخراج الزكاة من المال يبعد عنه اسم الكنز الذى ورد فيه الوعيد الشديد وان كان ذلك المال الذى أخرجت زكاته مدفونا تحت سبع أرضين وسمية الناس له كنز لأن صاحبه قد أدى حق الله الواجب فيه ، والمال الظاهر على وجه الأرض يعتبر كنزا شرعا لأن صاحبه اكتنزه لنفسه وضن بزكاته فلم يخرجها ، ويدخل صاحبه تحت الوعيد الوارد فى حق الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله (٣) .

ــ ويؤيد ذلك كذلك الحديثين التاليين للرسول صلى الله عليه وسلم :

فعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« اذا أديت زكاة مالك فقد قضيت ما عليك » .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال :

قال رجل : يا رسول الله أرأيت ان أدى الرجل زكاة ماله :

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أدى زكاة ماله فقد ذهب عنه شره » .

والمراد بشر المال ما يشمل العذاب الذى دل عليه الوعيد الشديد الوارد فى قوله تعالى :

« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » (التوبة / ٣٤) .

---

(١) الشرح وارد فى هامش المرجع السابق ، ص ٧٤ ، ٧٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٧ ، اخرجه الطبرانى فى الأوسط مرفوعا ورواه غيره على ابن عمر .

(٣) الشرح وارد في هامش المرجع السابق ، ص ٧٧ ، ٧٨ .

ويشمل أيضا الشر الذى يلحق صاحب المال فى الدنيا كالحسد والبغض والكراهية والحقد الدفين الذى يكون فى قلوب الفقراء نحو صاحب المال ويشمل الشر أيضا ما يأتى صاحب المال غير المزكى من هم الاشتغال به والحرص عليه والخوف من ضياعه (١) •

فمن وجهة نظر عثمان بن عفان رضى الله عنه أن الاقتناء مباح لا يذم صاحبه وان كان الاعراض عن اقتناء المال درجة من درجات الزهد والورع استنادا لما سبق •

الرأى فى دعوة أبى ذر فى الأحوال العادية :

استنادا لأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم السابقة فان الفريضة فى الأحوال العادية هى أداء الزكاة بحيث تكفى حصيلتها لاطعام فقراء مجتمع المسلمين ولكسائهم ولايوائهم ، فاذا كانت نسبة الزكاة المنقولة عن الرسول صلى الله عليه وسلم تكفى لذلك فلا تفرض زيادة عنها ، والا فتزاد لأن فى المال حق فوق الزكاة وقد صح ذلك عن الشعبى ومجاهد وطاوس وغيرهم ، على أن ذلك لا يمنع من التطوع فوق الفريضة ومن تطوع خيرا فهو خير له •

وفى نفس الوقت لا تحبس باقى الأموال بعد استئداء الزكاة منها عن الاستثمار لأن فيه منافع البلاد والعباد ولأنه يحقق رسالة الانسان والمال على الأرض وهى المساهمة فى معايش العباد لأنه بالاستثمار تقام المصانع وتصلح الأراضى وتمول التجارات فيكون استثمار المال سببا فى انسياب الأرزاق التى قدرها الله للعباد وفى زيادة انتاج ونماء المجتمعات •

الرأى فى دعوة أبى ذر اذا نزلت بالمسلمين حاجة :

أما اذا نزلت بالمسلمين حاجة فان لذلك حكما آخر •

فيقول القرطبى « واتفق العلماء أنه اذا نزلت بالمسلمين حاجة بعد أداء الزكاة يجب صرف المال اليها » •

وقد أبرز الغزالى هذا الرأى وأصله ودعمه بما يشهد لصحته بما ملخصه أنه اذا خيف دخول العدو بلاد اسلام أو خيف قيام فتنة داخلية تهدد الأوضاع وتعصف بالأمن ، ولم يكن فى خزينة الدولة ما يكفى نفقات الجيش لينهض بمهمته فى دفع أى من هذين الخطرين ، اذا أحدق بالبلاد ، فان للامام أن يقرر فى أموال الأغنياء ضريبة بما يكفى تلك

---

(١) المرجع السابق ، ص ٨٣ ، ٨٤ •

النفقات تأمينا للبلاد خارجيا وداخليا ، وقد استند الغزالى فى رأيه هذا الى قاعدة أصولية مؤداها أنه اذا تعارض شران دفع أعلاهما بأدناهما او اشدهما بأخفهما ، فأى مقدار من المال يأخذه الامام من أموال الأغنياء لهذا الغرض انما هو قليل بالنسبة لما يحتمل أن يحصل لهم لو أنه قدر لاى من هذين الخطرين أن يأخذ مجراه ويصل الى مداه ، اذ ربما ترتب على ذلك حينئذ أن يتم استيلاء على جميع أموالهم ان لم تزهق من قبل ذلك أرواحهم(١) ٠

ويؤيد ذلك الشاطبى فيقول « انا اذا أقررنا اماما مطاعا مفتقرا الى تكثير الجنود لسد حالة الجند (أى نفقات الجيش) الى ما لا يكفيهم فللامـــام اذا كان عادلا ، أن يوظف على الأغنياء ما يراه كافيـــا لهم (أى للجنود) الى أن يظهر (يوجد) مال لبيت المال تم اليه النظر فى توظيف ذلك على الغلات والثمار وغير ذلك ٠

وانما لم ينقل مثل هذا عن الأولين (فى العصور الاسلامية الأولى) لاتساع بيت المال فى زمانهم خلاف زماننا ، فان القضية فيه أخرى ووجه المصلحة هذه ظاهرة فانه لو لم يفعل الامام ذلك بطلت شوكة الامـــام وصارت دياره عرضة لاستيلاء الكفار(٢) » ٠

اهتزاز التوازن الاجتماعى فى أواخر عهد عثمان يعتبر أنه نزلت بالمسلمين حاجة تبرر الاستجابة لدعوة أبى ذر :

كان من الواجب تعديل السياسة المالية فى عهد عثمان فقد كان المجتمع فى أواخر عهد عثمان بن عفان قد مال عن التوازن الآمن بسبب وجود طبقة غنية مفرطة الغنى وطبقة متطلعة الى هذا الغنى وبسبب هبوب رياح عدم الاستقرار ، وكان من الملائم أن تتحور السياسة المالية لتساهم فى تحقيق التوازن الآمن للمجتمع أو على الأقل للتخفيف من حدة عدم الاستقرار ، خصوصـــا وقد أشـــار بذلك الخليفة الســـابق عمر بن الخطاب حينما أعلن أنه ينوى أن يأخذ فضـــول الأغنياء وأنه ينوى أن يجعل الناس بيانا واحدا فى العطاء ، فتلاقت بذلك وجهة نظره بصفة عامة مع دعوة أبى ذر ومن أيده من صـــحابة رســـول الله صلى الله عليه وسلم ٠

---

(١) الاقتصاد الاسلامى مذهبا ونظاما ــ الجزء الاول ــ ابراهيم الطحاوى ، ص ٤٠٤ ٠

(٢) انظر كتابنا « النظم المالية فى الاسلام » طبعة ثانية ، ص ١١٦ نقلا من مقال عن الملكية الخاصة وحدودها فى الاسلام للدكتور محمد عبد الله العربى تقدم به الى المؤتمر الاول لمجمع البحوث الاسلامية ٠

كيف كان يمكن تعديل السياسة المالية فى عهد عثمان بن عفان تنفيذا لنوايا عمر ودعوة أبى ذر :

يثور بعد ذلك سؤال عن الكيفية التى كان من الممكن أن يتم بها تعديل السياسة المالية فى عهد عثمان بن عفان وأثر هذا التعديل :

كان من الممكن أن يتم التعديل فى السياسة المالية باتباع نفس المسار الذى خططه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وطالب به بصفة عامة أبو ذر الغفارى وبعض صحابة رســـول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا المسار يتحدد بوسيلتين :

الأولى : جعل الناس بيانا واحدا فيما يحصلون عليه من عطاء من بيت مال المسلمين وذلك بالمساواة بينهم فى العطاء ، وبذلك يحد من التزايد فى الغنى لمن كانوا يحصلون على عطاء أكبر ويزيد فى أنصبة الفقـــراء وهم من كانوا يحصلون على عطاء أقل ، فتزداد ثرواتهم وتهبط درجـة فقرهم وبذلك تضـيق نسبيا الفروق الواسعة بين طبقتى الأغنيا والفقراء ويساهم هذا الاجراء فى اتجاه المجتمع تدريجيا نحو التوازن •

مثل هذا الاجراء كان سيجد ترحيبا من طبقة الفقراء والطبقة الوسطى فى العطاء لأن هذه الطبقة قد لا تمس اطلاقا فى ظل مبدأ المساواة أو ينخفض عطاؤها انخفاضا يسيرا ، أما أصحاب العطاء المرتفع فربما كانوا سيعترضون أو لا يرضون عن هذا الاجراء ولكن فى نهاية الأمر وهم من ذوى قربى الرسول صلى الله عليه وسلم ومن السابقين الأولين فى الاسلام كانوا سيرضون بما قسمه الله لهم فى ظل أنصبتهم الجديدة من بيت المال • فضلا عن أن مثل هذا الاجراء كان سيتم بعد مشورة أصحاب الرأى فى الأمة ومنهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمشورة فى القرارات العليا للسياسة المالية تجعل القـــرار وكأنه صادر من الأمة جمعاء فيحظى بالقبول العام •

الثانية : أخذ جزء من فضول الأغنياء وتوزيعها على الفقراء استنادا الى أنه فى حالة عدم توازن المجتمع يكون فى المال حق لبيت المال فوق الزكاة ، واستنادا كذلك الى أحاديث عدة عن الرسول صلى الله عليه وسلم منها الحديث التالى :

« من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له » وذكر الرسول صلى الله عليه وسلم من أصناف الأموال ما ذكر حتى رأى الصحابة أنه لا حق لأحد منهم فى فضل •

ولو تم هذا التعديل فى السياسة المالية لكان له فعالية أقوى فى تقريب الفوارق بين الطبقات ، لان الزكاة شـــاملة وزيادتها ستكون شاملة أيضا فتسرى على جميع الأموال التى يملكها أصحاب الأموال كما أن تطبيق الزيادة لو فرضت كان سيكون ســـهلا لأن الزيادة ما هى الا اضـــافة على فئات الزكاة الأصلية فيسرى عليها من ناحية شروط الاخضاع والأداء والتحصيل ما يسرى على الزكاة الأصلية ، فضلا عن أن الأغنياء ما كانوا ليعترضوا على مثل هذا القرار لأنهم مازالوا قريبى العهد بالرسول صلى الله عليه وسلم والخليفتين من بعده ، ولأن المالية الاسلامية تتسم بالمعنويات التى يبغى المولون لها رضاء الله سبحانه وتعالى بجانب وفائهم لحقوق بيت المال ٠

وكان من الممكن أن يلازم هذين الاجراءين اجراء له نفس الأثر على باقى مواطنى الدولة الاســـلامية حتى يساهم الجميع بقدر متوازن فى الأعباء العامة طبقا لدرجة يسارهم ، فكان من الممكن أن يعاد النظر فى الجزية والخراج التى يدفعها الأغنياء من أهل الكتاب برفع فئاتها دون ظلم لهم وبشرط أن لا تكون الجزية والخراج قد فرضتا بمقتضى عهود ومواثيق أبرمها من يدفعون الجزية والخراج مع الدولة الاسلامية فتكون ملزمه للطرفين غير قابلة للتعديل الا برضاء الطرفين ٠

لم يتم تعـــديل الســياسة المالية فتحركت رياح المجتمع بمـــا لا تشتهى الدولة الاسلامية على النحو الذى سنوضحه فيما بعد ٠

لماذا لم ينفذ عثمان بن عفان وصايا عمر المالية ودعوة أبى ذر :

يرجع عدم تنفيذ عثمان بن عفـان وصايا عمر بشأن أخـــذ فضول الأغنيـــاء وتوزيعها على الفقـــراء والمســـاواة فى العطـــاء وعدم استجابته لدعوة أبى ذر الى عدة عوامل بعضها ينبع من شخصيته وبعضها يرجع الى الظروف التى أحاطت بالمجتمع فى عصره ٠

فمما يرجع الى شـــخصه ما ذكرناه من أن عثمان كان فى ســـن الشـــيخوخة وقد أوضحنا أن مرحلة الشـــيخوخة تضعف فيها ملكات الانسان ولا يتحمس كثيرا للتغيير ويميل الى الرتابة والهـــدوء والدعه والسكون ، كما أوضـــحنا أن عثمان رضى الله عنه كان يتسم بالحياء والسماحة واللين وهى كلها صـــفات لا تشجع فى حالة الشيخوخة على اتخاذ قرارات حاسمة من شانها أن تقلل عطاء البعض وأن تأخذ فضول أموال الأغنياء وتعطيها للفقراء لا سيما وأنه كان يعتقد أنه اذا أدى الغنى زكاة أمواله المفروضة فليس للأمير أن يجبره على الزهد والتطوع وانما

يترك ذلك لارادة ذى المال خصوصا وكما ذكرنا أن بعض أغنياء الصحابة كانوا يتطوعون بأضعاف أضعاف نسب الزكاة المفروضة ·

ومما يرجع الى المجتمع أن المجتمع فى أول العهد كان مرحبا بعثمان الذى اتسم باللين بعد الشدة التى كان يتسم بها عمر فلم يكن الخليفة يفكر فى هذا التعديل خصوصا وأن هذا التعديل فى السياسة المالية كان سينفر البعض من حكمه أما فى السنوات الأخيرة من عهد عثمان فكانت تمر بالمجتمع رياح عدم الاستقرار مما قد يدعو الى الظن بعدم ملاءمة اجراء تعديلات فى السياسة المالية ·

على أنه من الانصاف أن نوضح أن السياسة المالية التدخلية بالشكل الذى يطبق حاليا والتى باستخدامها تتدخل الدولة لاعادة توازن المجتمع لم تكن معروفة ولا مألوفة وقتئذ بين الدول ولكنها ظهرت بعد عهد عثمان بمئات السنين فتدخلت المالية العامة لتعالج حالات عدم التوازن الاقتصادى والاجتماعى ، ومع ذلك كان عمر قد نوى أن يجعل السياسة المالية تقوم بهذا الدور اذا قدر له الحياة ولكنه قتل ·

وفاة ابى ذر فى عهد عثمان :

يروى الطبرى وفاة أبى ذر فيقول :

لما حضرت أبا ذر الوفاة وذلك فى سنة ثمان فى ذى الحجة من امارة عثمان ·

قال لابنته : استشرفى يا بنية فانظرى هل ترين أحدا ·

قالت : لا ·

قال : فما جاءت ساعتى بعد ·

ثم أمرها فذبحت شاة ثم طبختها ·

ثم قال : اذا جاءك الذين يدفنوننى فقولى لهم : ان أبا ذر يقسم عليكم ألا تركبوا حتى تأكلوا فلما نضجت قدرها ·

قال لها : أنظرى هل ترين أحدا ·

قالت : نعم هؤلاء ركب مقبلون ·

قال : استقبلى بى القبلة ·

ففعلت ·

وقال : بسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خرجت ابنته فتلقتهم ·

وقالت : رحمكم الله ! اشهدوا أبا ذر .

قالوا : وأين هو ؟

فاشارت اليه وقد مات ـ فادفنوه .

قالوا : نعم ونعمة عين ! لقد أكرمنا الله بذلك .

واذا ركب من أهل الكوفة فيهم ابن مسعود ، فمالوا اليه وابن مسعود يبكى .

ويقول : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم : يموت وحده ويبعث وحده .

فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه ، فلما أرادوا أن يرتحلوا .

قالت لهم : ان أبا ذر يقرأ عليكم السلام واقسم عليكم الا تركبوا حتى تأكلوا ففعلوا وحملوا أهله معهم حتى أقدموهم مكة ونعوه الى عثمان فضم ابنته الى عياله .

وقال : يرحم الله أبا ذر ويغفر لرافع بن خديج سكوته(١) .

---

(١) الطبرى ـ الجزء الرابع ـ ص ٣٠٨ .

الباب الخامس

الفتنة الكبرى وآثارها المالية:
وتقييم عام لسياسة عثمان المالية

الفصل الأول

وقوع الفتنة الكبرى في عهد
عثمـــان بـــن عفـــان

اسباب اخرى غير مالية ساهمت عى عـدم توازن المجتمـع فى عهد عثمان بن عفان :

لم تكن الثغرات المالية هى وحدها التى أدت الى تخلخل المجتمع وعدم توازنه بل ساهمت أسباب أخرى فى ذلك مما أدى الى قيـــام معارضة واجهت الخليفة نفسه وهذه الأسباب هى :

ـ كان بعض الناس يعتقد أن على بن أبى طالب رضى الله عنـــه أحق بالخلافة من عثمان بن عفان ، وأنه لو ولى الخلافة بعد عمر بن الخطاب لكفل زهده وتقواه فى أن يسير سيرة عمر بن الخطاب فى حزمه وزهده وتقشـفه ، وكان ذلك قمينـا أن يقى الأمة الاســلامية عثرات عامة فى عهد عثمان .

ومما قوى هذا الاعتقاد لدى البعض الخلاف الذى توهنا عنه بين هاشم وبنى أمية وشعور البعض أن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه آثر عثمان بالخلافة لما بينهما من قرابة .

وفى هذا يسوق الطبرى روايتين تدلان على أن اختيار عثمان ترك فى نفس على أثرا عميقا .

أما الأولى وقد ســبق أن أوردناها فتذهب الى أنه لما أقبل الناس يبايعون عثمان بعد أن بايعه عبد الرحمن تلكأ على بن أبى طالب .

فقال عبد الرحمن : ومن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما . فرجع على يشق الناس حتى بايع وهو يقول : « خدعة أيما خدعة » .

أما الرواية الثانية فتجرى بأنه لما بايع عبد الرحمن عثمان .

قال على : حبوته حبو دهر ، ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا ، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ، والله ما وليت عثمان الا ليرد الأمر اليك ، والله كل يوم فى شأن .

وأجاب عبد الرحمن : يا على لا تجعل على نفسك سبيلا فانى قد ناظرت وشاورت الناس فاذا هم لا يعدلون بعثمان .

وخرج على وهو يقول : سيبلغ الكتاب أجله .

وان كانت الروايات تتضارب فى هذا الشأن واختلف بشأنها المؤرخون ، الا أنه يمكن القول أن عليا وبنى هاشم كانوا يعتقدون أنهم أحق بالخلافة من عثمان وبنى أمية لأنهم أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم .

ـ تتابع عهد عثمان بعد عهد عمر جعل البعض يقارنون بين ما كان يجرى فى عهد عمر بن الخطاب وما كان يجرى فى عهد عثمان بن عفان ، ففى عهد عمر بن الخطاب كان عمر أصغر سنا ، أقدر على الزهد والتقشف ومشاركة الناس فى الأوقات العجاف التى تمر بهم ، حدد علاقته ببيت المال تحديدا واضحا يقوم على تحديد مخصص له لا يتعداه وألزم ذوى قرباه بأن لا يأملوا فى ميزة مالية من بيت المال ، يمتازون بها على سائر الرعية وكان حاسما مع الولاة ، وأبقى الصحابة فى جانبه لا يبرحون المدينة الا بأمر منه كما سبق أن أوضحنا .

بينما أن عثمان كما سبق أن ذكرنا قد تولى الخلافة وهو فى السبعين تقريبا أو أكثر واستمر عهده حتى الثمانين تقريبا أو أكثر ، ويأنس الناس فى مثل هذا السن الى الهدوء والدعة واللين لا يتحملون شظف التقشف وتبعات الزهد ، وبجانب ذلك أشاع البعض عن تصرفات لعثمان من بيت المال كانت محل نقد بعض أفراد الرعية ، كما منح عثمان بعض الصحابة حرية الانتقال فى الأمصار ومنهم من بهرته حضارات هذه الأمصار ففقدوا بعض سماتهم التى تركهم عليها الرسول صلى الله عليه وسلم وخليفتاه الصديق وابن الخطاب رضى الله عنهما .

ب ـ تأثر الناس بالدعوات العامة التى ظهرت فى عهد عثمان بن عفان وقد أوضحنا دعوة أبى ذر رضى الله عنه فقد تركت هذه الدعوة تلاميذ من فقراء المسلمين اعتقدوا أن حقهم على الأغنياء لا يقتصر على الزكاة المفروضة ، بل لهم حقوق أخرى أوضحها أبو ذر ، وأن هذه الحقوق منعها عنهم الأغنياء مخالفين بذلك أحكام الدين التى أصل بها أبو ذر دعوته ، واختلجت نفوسهم مشاعر غير ودية نحو الأغنياء فكان فى ذلك اضعاف للروابط بين شرائح المجتمع من فقراء وأغنياء .

دعوة أخرى غير بريئة هى حركة السبئية وهم أتباع عبد الله ابن سبأ ، وكان يهوديا من أهل صنعاء ثم أسلم فى الظاهر نفاقا فى زمن عثمان للكيد للاسلام ، وتذهب هذه الدعوة الى القول بمذهب الرجعة

أى رجوع الرسول مرة أخرى مستندا فى ذلك الى قوله تعالى « ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد » كما نادى بمبدأ الوصـــاية الذى بمقتضاه أن عليا كان وصى محمد ، ولما كان محمد خاتم الأنبياء فعلى خاتم الأوصياء واتهم عثمان بأنه انتزع من على حقه لأنه لم يجز وصية الرسول صلى الله عليه وسلم وتظاهر فى ذلك بأنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وأخذ يبث دعوته فى البـــلاد التى زارها وهى مصر والكـــوفة والبصرة ويؤلب النـــاس على الخليفـــة وتبعه الكثيرون من أصـــحاب النفوس الضعيفة(١) ٠

ـ ومن أسباب المعارضة أيضا أن البعض كان ينتقد عثمان لأنه لم يقم الحد على عبيد الله بن عمر بن الخطاب وكان بعد مقتل والده قد استل سيفه وقتل شريكين آخرين لأبى لؤلؤة قاتل عمر وهما الهرمزان الفارسى وجفينه النصرانى ثم زاد فقتل ابنة أبى لؤلؤة وكان أبو لؤلؤة قد طعن نفسه بعد أن طعن عمر بن الخطاب وثلاثة عشر رجلا ممن كانوا يصلون معه مات منهم سبعة ٠ فلما علم صهيب الرومى ـ القائم مؤقتا مقام الخليفة بما فعله عبيد الله بن عمر أمسك به وسجنه انتظارا لأمر الخليفة الجديد ٠

فلما تولى عثمـــان استشار الصـــحابة ، فكان من رأى على بن أبى طالب أن يقتل عبيد الله قصاصا لمن قتلهم ولكن البعض عجب كيف يقتل عمر بالأمس ثم يقتل ابنه بعد ذلك ٠

فقال عثمان أنا وليهم قد جعلتها دية واحتملها فى ماله فلم يكن للقتلى أولياء غير ولى أمر المسلمين عثمان ٠ وعبيد الله بن عمر كان غير ملىء لأنه كان مثقلا بديون كانت على عمر بن الخطاب وطلب عمر بن الخطاب من أولاده سدادها بعد طعنه وقبل موته ٠

ـ ومما أخذوه على عثمان كذلك أنه حين الحـــج أتم الصلاة بمكة والرســـول قد قصرها وكان له بمكة أهلا وزوجة فرأى أن يتم ولا يقصر ، وكان ذلك بمنى والرســـول صلى الله عليه وسلم صلى ركعتين فقـــط وتبعه فى ذلك أبو بكر وعمر وعثمان نفسه قد صلى معهم جميعا ركعتين ، فاعتبر البعض فيما اتبعه عثمان مخالفة لسنة الرســـول صلى الله عليه وسلم ، وقد دافع عثمان عن وجهة نظره بأنه كان له بمكة أهلا وزوجة فيعتبر مقيما فلا يقصر الصلاة ٠

ـ أوضحنا أن البعض اعترض على عثمان أنه قد حمل الناس على

---

(١) تاريخ الدولة العربية ، السيد عبد العزيز سالم ، نقلا عن الطبرى ـ ج ٥ ـ ص ٩٨ وابن الأثير ـ ج ٣ ـ ص ١٥٤ ٠

مصحف واحد وأنه حينما حرق ما حرق من المصاحف الأخرى انما حرق صحفا كانت تشتمل على قرآن أخذه المسلمون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد سبق أن أوضحنا أن على بن أبى طالب نفسه أشاد بما فعله عثمان ٠

ـ أنكر بعض النـــاس على عثمان تطويره لبناء المسجد النبـوى بالمدينة وقد سبق أن ناقشنا ذلك مؤيدين لما فعله عثمان ٠

ـ كانت بعض القبائل تشعر أن قريش قد استأثرت بالخلافة كما أن نصيبها من العطاء كان مميزا فحرك ذلك فى نفوسها الغيرة ، وليس أدل على ذلك مما رواه ابن الأثير من أن وجوه أهل الكوفة كانوا يسمرون عند سعيد بن العاص ٠

فقال سعيد « انما هذا السواد بستان قريش » ٠

فقال الاشتر النخعى « أتزعم أن السواد الذى أفاء الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك ؟ » ٠

فمنعهم سعيد من السمر عنده ولذلك كانوا يجلسون فى مجالسهم ينتقدون عثمان وسعيد ٠

ـ ممثـل للمعارضـــة بالكوفة يبلغ عثمـان بن عفـان الانتقادات لحــــكمه :

اجتمع ناس من المسلمين بالكوفة فتذاكروا أعمـــال عثمان فاجتمع رأيهم على أن يبعثوا رجلا يكلمه فاختاروا رجلا يدعى عامر بن عبد قيس فأتاه فدخل عليه ٠

فقال لعثمان : ان أناسا من المسلمين اجتمعوا فنظروا فى أعمالك ، فوجدوك قد ركبت أمـــورا عظاما ، فاتق الله عـــز وجـــل وتب اليه وانزع عنها ٠

قال له عثمان : انظر الى هذا ، فان الناس يزعمون أنه قارىء ، ثم هو يجىء فيكلمنى فى المحقرات ، فوالله ما يدرى أين الله ٠

قال عامـر : أنا لا أدرى أين الله ؟

قال عثمان : نعم ، والله ما تدرى أين الله ٠

قال عامـر : بلى والله أنى لأدرى أن الله بالمرصاد لك(١) ٠

---

(١) الطبرى ـ جزء ٤ ـ ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ ٠

الخليفة يدرس ملاحظات المعارضة مع الولاة :

بلغت الخليفة عثمان رضى الله عنه الآراء التى تبديها المعارضة بشأن قراراته المالية وغير المالية ، فتدارس الأمر مع عماله فاستدعى الولاة فى موسم الحج عام ٣٤ هـ فقدم اليه :

عبد الله بن عامر	عن البصرة
سعيد بن العاص	عن الكوفة
معاوية بن أبى سفيان	عن الشام
عبد الله بن أبى سرح	عن مصر
عمرو بن العاص	وكان بالمدينة

فقال لهم : ان لكل أمام وزراء ونصحاء وانكم وزرائى ونصحائى وأهل ثقتى ، وقد صنع الناس ما قد رأيتم وطلبوا الى أن أعزل عمالى وأن أرجع عن جميع ما يكرهون الى ما يحبون فاجتهدوا رأيكم وأشيروا على ٠

فقال عبد الله بن عامر : يا أمير المؤمنين أرى أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك وان تجمرهم (١) فى المغازى حتى يذلوا لك فلا يكون هم أحد الا نفسه ٠

وقال سعيد بن العاص : احسم عنك الداء ، فاقطع عنك الذى تخاف ، ان لكل قوم قادة متى تهلك يتفرقوا ولا يجتمع لهم أمرا ٠

فقال عثمان : ان هذا هو الرأى لولا ما فيه ٠

وقال معاوية :- أشير عليك أن تأمر أمراء الأجناد فيكفيك كل رجل منهم ما قبله وأكفيك أنا أهل الشام ٠

وقال عبد الله بن سرح : ان الناس أهل طمع فأعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم ٠

وقال عمرو بن العاص : يا أمير المؤمنين انك قد ركبت الناس بمثل بنى أمية فقلت وقالوا وزغت وزاغوا فاعدل أو اعتزل فان أبيت فاعتزم عزما وأقدم قدما ٠

فقال له عثمان : « أهذا الجد منك ؟ »

---

(١) يقالُ جمر الجيش اذا حبسه فى أرض العدو ولم يقفله من الثغر ٠

فسكت عمرو حتى تفرقوا ·

فقال : والله يا أمير المؤمنين لأنت أكرم على من ذلك ، ولكنى علمت أن بالباب من يبلغ الناس قول كل رجل منا ، فأردت أن يبلغهم قولى فيثقوا بى فأقود لك خيرا (١) ·

عثمان يعزم على منع أعطيات بيت المال عن الناس ليطيعوه :

رد عثمان عماله على أعمالهم وأمرهم بالتضييق على من قبلهم ، وأمرهم بتجمير (٢) الناس فى البعوث وعزم على تحريم أعطياتهم ليطيعوه ويحتاجوا اليه كما سبق أن ذكرنا ·

مناقشة بين عثمان وعلى بشأن ما عابه الناس :

كتب بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقدموا فان كنتم تريدون الجهاد فعندنا الجهاد ، وكثر الناس على عثمان وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرون ويسمعون ، ليس فيهم أحد ينهى الا قليل ، فاجتمع الناس وكلموا على بن أبى طالب فدخل على عثمان ·

فقال على خطبة طويلة ، ذكر عثمان فيها بصحبته لرسول الله وصهره وعلمه وان أفضل عباد الله عند الله امام عادل وحذره الله ·

ورد عليه عثمان بخطبة طويلة ذكر فيها انه لم يأت منكرا أن وصل رحمه وسدد خله وأوى ضائعا وولى شبيها لما كان عمر يولى ·

ثم خرج على وخرج عثمان على أثره فجلس على المنبر وأوضح أن آفة هذه الأمة أنهم عيابون طعانون وأنهم عابوا عليه بما أقروا لابن الخطاب لشدته وأنه لان لهم فاجترؤا عليه ، وأمرهم أن يكفوا ألسنتهم وطعنهم على ولاتهم ·

حق ولى الأمر فى التصرف فى احتياطى المال العام :

فى ختام خطبة عثمان على المنبر قال :

« ألا فما تفقدون من حقكم ، والله ما قصرت فى بلوغ ما كان يبلغ من كا نقبلى ومن لم تكونوا تختلفون عليه · فضل فضل من مال ·

---

(١) الطبرى — جزء ٤ — ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ ·

(٢) تجمير : تجميع ·

ومالى لا أصنع فى الفضل ما أريد لما كنت أماما » (١) ٠

أثار عثمان رضى الله عنه بقوله السابق الى أن المالية العامة فى عهـــده حققت فضـــلة أى فائضا ماليا وفى الماليـــة الحديثـة يرحل الفائض للسنوات التالية وقد أعلن الخليفة أن امامته للمسلمين تبرر له أن يصنع بالفضلة ما يريده ونحن نقر الخليفة على رأيه ولكن بشروط منها أن يوجه هذا الفائض لمنفعة عامة تعود على الرعية جمعاء ، ويكون ذلك بعد استطلاع رأى الخبراء واستشارة من كانوا يقومون مقام السلطة التشريعية فى المالية العامة الحديثة فى عهده وهم جماعة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد يكون من الرأى عدم انفاق هذا الفائض وادخاره ادخارا استثماريا لمقابلة نفقات عامة طارئة تنتاب الدول كالأزمات أو الأوبئة أو المجاعات ، والقرآن الكريم يوضح لنا حالة من هذه الحالات فى قصة يوسف عليه السلام فادخر المصريون غلة السنوات السمان لمقابلة قحط السنوات العجاف ٠

اتصالات بين المعارضين فى البلاد :

يشرح الطبرى كيفية تجمع المعارضة نتيجة لدعاية ابن سبا فيقول :

« فبث دعاته وكاتب من كان استفسد فى الأمصار وكاتبوه ودعوا فى السر الى ما عليه رأيهم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وجعلوا يكتبون للأمصار سنة ٣٥ بكتب يضعونها فى عيوب ولاتهم ويكاتبهم اخوانهم بمثل ذلك ويكتب أهل كل مصر منهم الى مصر آخر بما يصنعون ، فيقرؤه أولئك فى أمصارهم وهؤلاء فى أمصارهم ، حتى تناولوا بذلك المدينة وأوسعوا الأرض اذاعة ، وهم يريدون غير ما يظهرون ويسرون غير ما يبدون فيقول أهل كل مصر : انا لفى عافية مما ابتلى به هؤلاء ، الا أهل المدينة فانهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار ٠

فقالوا : انا لفى عافية مما فيه الناس ٠

فأتوا عثمان فقالوا : يا أمير المؤمنين ، أياتيك عن النـاس الذى ياتينا ٠

قال : لا والله ما جاءنى الا السلامة ٠

قالوا : فانا قد أتانا ٠٠٠٠٠ وأخبروه بالذى أسقطوا اليهم ٠

قال : فأنتم شركائى وشهود المؤمنين فأشيروا على ٠

---

(١) الطبرى ــ جزء ٤ ــ نقلا عن الواقدى ، ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ٠

قالوا : نشير عليك أن تبعث رجالا ممن تثق بهم الى الأمصار حتى يرجعوا اليك بأخبارهم ·

فبعث عثمان ممثلين عنه الى الأمصار فعادوا وقالوا :

ما أنكرنا شيئا ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم (١) ·

الخليفة يعرض الأمر على كبار الصحابة (٢) :

خطا الخليفة خطوة ثانية فى الوصول الى علاج للموقف فجمع كبار الصحابة وعرض عليهم الأمر وممن حضر من هؤلاء الصحابة :

على بن أبى طالب

طلحة بن عبيد الله

الزبير بن العوام

سعد بن أبى وقاص

وشهده كذلك معاوية بن أبى سفيان ·

واستهل معاوية الحديث بقوله :

« أنتم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخيرته وولاة أمر هذه الأمة ، لا يطمع فى ذلك أحد غيركم ، اخترتم صاحبكم من غير غلبة ولا طمع ، وقد كبرت سنة وولى عمره ، ولو انتظرتم به الهرم كان قريبا ، مع انى أرجو أن يكون أكرم على الله أن يبلغ به ذلك ، وقد فشت قالة خفتها عليكم فما عتبتم فيه من شىء فهذه يدى لكم به ولا تطمعوا الناس فى أمركم ، فوالله لئن طمعوا فى ذلك لا رأيتم فيه أبدا الا ادبارا »

فرد على بن أبى طالب موجها الكلام لمعاوية :

« ومالك وذاك وما أدراك لا أم لك » ·

فغضب معاوية اذ عرض على ابن أبى طالب بأمه هند ·

وقال « دع أمى مكانها ، ليست بشر أمهاتكم ، قد أسلمت وبايعت النبى صلى الله عليه وسلم وأجبنى فيما أقول لك ·

ثم ناقش عثمان الاعتراضات التى وجهت اليه وقال :

« صدق ابن أخى ان أخبركم عنى وعما وليت ، أن صاحبى اللذين كانا قبلى ظلما أنفسهما ومن كان منهما بسبيل احتسابا وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعطى قرابته وأنا فى رهط أهل عيلة وقلة معاش

---

(١) الطبرى ــ الجزء الرابع ، ص ٣٤٩ ·

(٢) مقتبس من الطبرى ــ الجزء الرابع ــ ص ٣٤٣ ، ٣٤٩

فبسطت يدى فى شىء من ذلك المال ما أقوم به فيه ، ورأيت أن ذلك لى ، فان رأيتم ذلك خطأ فردوه ، فأمرى لأمركم تبع ٠

فقالوا : أصبت وأحسنت ٠

وانفض جمعهم وهم راضون ٠

الخليفة عثمان يضن بالمال العام لحمايته من القتل :

وبعد الاجتماع سأل الخليفة معاوية بن أبى سفيان رأيه ٠

فقال معاوية : الرأى أن تأذن لى بضرب أعناق هؤلاء ٠

فقال عثمان : أقتل أصحاب رسول الله بلا حدث أحدثوه ولا ذنب ركبوه ٠

قال معاوية : فان لم تقتلهم فانهم سيقتلونك ٠

قال عثمان : لا أكون أول من خلف رسول الله فى أمته باهراق الدماء ٠

قال معاوية : فاختر منى احدى ثلاث خصال ٠

قال عثمان : ما هى ؟

قال معاوية : أرتب لك ههنا أربعة آلاف من جند أهل الشام يكونون لك رداء وبين يديك يدا ٠

قال عثمان : أرزقهم من أين ؟

قال معاوية : من بيت المال ٠

قال عثمان : أرزق أربعة آلاف من الجند من بيت مال المسلمين لحرز دمى ؟ لا فعلت هذا ٠

قال معاوية : فثانية ٠

قال عثمان : وما هى ؟

قال معاوية : فرقهم عنك لا يجتمع منهم اثنان فى مصر واحد واضرب عليهم البعوث والندب حتى يكون وبر بعير أحدهم أهم عليه من صلاته ٠

قال عثمان : سبحان الله ، شيوخ المهاجرين وكبار أصحاب رسول الله وبقية الشـــورى أخرجهم من ديارهم وأفرق بينهم وبين أهليهم وأبنائهم ! لا أفعل هذا ٠

قال معاوية : فثالثة ٠

قال عثمان : وما هى ؟

قال معاوية : اجعل لى الطلب بدمك ان قتلت ٠

قال عثمان : نعم هذه لك ٠ ان قتلت فلا يطل دمى ٠

من هذا يبين أن الخليفة لم يوافق على اقتراحات معـــاوية بقتل أصحاب رسول الله بلا ذنب جنوه ولا يريد أن يكون أول من خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم باراقة الدماء ، ولا يريد كذلك أن يفرق بينهم وهم شيوخ المهاجرين وكبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

وفى ذلك من الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والاخلاص لصحابته مما يتفق مع طبيعة اللين فى خلق عثمان وماضيه مع الرسول صلى الله عليه وسلم مشاركا ومساهما فى نشر الدعوة ٠

ومن هذا يبين أيضا أن عثمـــان يضن بالأموال العامة أن تنفق لحراسته حتى ولو كان فى ذلك اعتداء محتمل على حياته كما سبق أن ذكرنا ٠

جماعات من مصر والكوفة والبصرة تصل المدينة طالبة الاصلاح :

فى سنة خمس وثلاثين هجرية خرجت جماعات من الناس من مصر والكوفة والبصرة وذهبت الى المدينة لتطالب الخليفة بالاصلاح ولمواجهة عثمان بما أخذوه عليه من مآخذ وزعم هؤلاء الوافدون أنهم يريدون أداء العمرة حتى لا يردهم الخليفة ٠

توسط على بن أبى طالب بين عثمان ووفد مصر وأخبرهم أن عثمان قد تاب ، فسأله أهل مصر أن يعزل عبد الله بن سعد ويقيم مكانه محمد بن أبى بكر ، فأبلغ على عثمان بذلك ، وأقنعه فكتب عهده وولاه فعاد وفد مصر ٠

ثم أعلن عثمان أمام وفدى العراق (الكوفة والبصرة) كذلك بانه تاب وقال :

« أنا أول من اتعظ ، استغفر الله مما فعلت وأتوب اليه ، فمثلى نزع وتاب ، فاذا نزلت فليأتنى أشرافكم فليروا فى رأيهم ، فوالله لئن ردنى الحق عبدا لاستنن بسنة العبـد ولأذلن ذل العبـد ، وما عن الله

مذهب الا اليه ، فوالله لأعطينكم الرضا ، ولأنحين مروان ولا أحتجب عنكم ثم بكى ، فرق الناس وبكوا حتى اخضبلت لحاهم » .

ولكن هذا الأثر الطيب ما لبث أن تلاشى بسبب خطبة لمروان بن الحكم ، هاجم فيها وفد العراق وفى نفس الوقت ارتد وفد مصر ثانية عائدا الى المدينة وحاصر مع وفد العراق دار عثمان اثر عثورهم على كتاب يحمله غلام أسود ، كان فى الطريق على بعير .

فلما ارتابوا فى الغلام وفتشوه وجدوا معه كتاب وهو من عثمان ابن عفان الى عبد الله بن سعد يدعوه الى قتل جماعة زعماء المصريين ومنهم محمد بن أبى بكر .

الوفود تطالب بعزل عثمان وتهدده :

وقد أنكر عثمان صدور هذا الكتاب منه (١) .

طالب وفد مصر بخلع الخليفة فعارضهم عثمـــان وأبى أن يخلع نفسه وقال :

« لا أنزع قميصا ألبسنيه الله ، ولكنى أتوب وأنزع » .

فأجابوه بأنها لو كانت التوبة الاولى لكان فى امكانهم قبولها ، ولكنهم رأوه يتوب ثم يعـود وأعلنوا عن تصـميمهم على موقفهم وعدم استعدادهم للعودة الا بخلعه أو قتله أو الاستشهاد .

وكتب عثمان الى معاوية بن أبى سفيان وابن عامر وأمراء الاجناد يستنجدهم ويأمرهم بالمبادرة بارسال الجنود اليه .

لم يبادر معاوية بارسال الجنود اليه وأبطأ الباقون فى الوصول ولما استبطأ عثمان وصول النجدات استدعى على بن أبى طالب وسأله أن يحميه من جمهور الأمصار على أن يحقق لهم ما يريدون .

خرج على الى الناس وطلب منهم أن يمهلوا عثمان ثلاثة أيام حتى يحقق لهم مطالبهم فكف الناس عنه ولكن انتهى الأجل ولم يحقق عثمان الاصلاح المطلوب فاشتد غضب الناس عليه وانضم اليهم جماعة من أهل المدينة وطالبوا عثمان من جديد بأن يعزل عماله ويرد مظالمهم أو يخلع نفسه أو يقتلوه .

رفض عثمان أن يرغموه على عزل عماله لان فى ذلك اضعاف لهيبة الخليفة وانتقاص من مكانته ورفض أن يخلع نفسه قائلا :

« لا أنزع سربالا سربلنيه الله » .

---

(١) تاريخ الدولة العربية ، ص ٢٨٥ . عن ابن الأثير — ج ٣ — ص ١٦٤ .

وعزم القوم على قتله اذ خافوا أن تأتيه نجدات من الأمصار ويأتيه الحجاج فيهلكوا فشددوا عليه الحصار وتولى الدفاع عن باب داره نحو مائة نفر على رأسهم الحسن بن على وابن عباس ومحمد بن طلحة وعبد الله ابن الزبير وعبد الله بن سلام ومروان بن الحكم وأبو هريرة ٠

قتــل عثمــان :

منع الثوار الماء عن عثمان وأهل بيته وعز على عثمان أن يمنع الناس الماء عنه فأشرف عليهم وذكرهم بأنه هو الذى كان قد اشترى بئر رومة من ماله ليستعذب بها !

كما رجاهم ألا يمنعوه من الصلاة فى جامع الرسول ، وهو الذى اشترى موضع خمس سوار زادها فى المسجد فى حياة الرسول ٠

أتى المحاصرون لدار عثمان أنباء عن قرب وصول المدد من الأمصار كما أن الحجاج الذين وردوا لاداء مناسك الحج يريدون الدفاع عن عثمان فقرروا حسم الأمر وقتل عثمان ٠

فقوبلوا عند باب دار عثمــان بمقـاومة عنيفة من أبناء الصحابة والمدافعين عن عثمان وجرح بعض المدافعين ٠

أشعل الثوار النار بالباب وعلى السقيفة المتصلة به ، ولما علم عثمان بذلك طلب من المدافعين عنه أن يكفوا اشفاقا عليهم من القتل ولكنهم أبوا واقتحم الثوار دار عثمان من دار عمرو بن حزم الملاصقة لداره دون أن يشعر بهم المدافعون عن عثمان ٠

ودخل عليه محمد بن أبى بكر وأخذ بلحيته وهزها بيده وقال :

« يا نعثل (١) ما أغنى عنك بمعاوية وما أغنى عنك بن عامر وابن أبى سرح » ٠

فقال له عثمان :

« لو رآنى أبوك رضى الله عنه لبكانى ولساءه مكانك منى » ٠

فتراخت يد ابن أبى بكر عنه ٠

وأيقن عثمان أنه هالك لا محالة فأخذ مصحفا فوضعه على حجره ليتحرم به ٠

---

(١) نعثل : رجل من اهل مصر كان طويل اللحية قيل انه كان يشبه عثمان رضى الله عنه ، انظر هامش ، ص ٣٦٥ ، الطبرى ــ الجزء الرابع ٠

واستعمل الثوار أقسى صنوف القتل والمهانة مع عثمان فوخزه أحدهم بمشقص فى يده فأدماه ، وجاء آخر وضربه برجله وجاء ثالث فوجأه بقائم سيفه فغشى عليه فلما أفاق أقبل أحدهم فأخذ بلحينه وانتزع منها خصلة ، وعلاه بالسيف وضربه آخر بعمود على جبهنه ثم دخل آخر وسل سيفه وهوى به على عثمان فاتقت زوجته نائلة السيف بيدها فقطع أصابعها ، وكان بعتمان رمق فطعنه آخر تسع طعنات وأجهز عليه ومال عليه أحدهم وخضخض السيف فى أحشائه ٠

وبكاه الصحابة وبقى عثمان ثلاثة أيام لا يدفن ثم تولى دفنه على وطلحة وجماعة من الصحابة فوضعوا جثته على لوحة باب ودفنوه بجسر كوكب أو حوش كوكب ٠

وأرسلت نائلة قميص عثمان ملطخا بالدم ممزقا والخصلة التى انتزعت من لحيته الى معاوية وبذلك قتل عثمان شهيدا وتحققت نبوءة الرسول صلى الله عليه وسلم وانفتح باب الفتنة الكبرى الذى كان موصدا فى عهد عمر بن الخطاب ، تلك الفتنة التى ماجت موج البحر ٠

الفصل الثانى

الآثار المالية للفتنة وتقييم السياسة المالية لعثمان بن عفان

من آثار الفتنة فى عهد عثمان نهب جزء من الأموال العامة من بيت المال : ـ

ـ ورد عن بيت مال المسلمين فى رواية عبد الملك بن عمير بشأن تفاصيل حادث مقتل عثمان بن عفان مايلى :

« وتنادى الناس فى دار عثمان « أدركوا بيت المال لا يسبقوا اليه » .

وسمع أصحاب بيت المال أصواتهم وليس فيه الا غرارتان ، فقالوا « النجا فان القوم انما يحاولون الدنيا » فهربوا .

وأتوا بيت المال (أى الثائرين) فانتهبوه (١) .

ـ وورد فى رواية أخرى :

أنه قبل مقتل عثمان أمر ابن عباس بالحج بالناس .

« فخرج ابن عباس فمر بعائشة فى الصلصل .

فقالت : يا ابن عباس ، أنشدك الله ـ فانك قد أعطيت لسانا أزعيلا (ذلقا) ـ أن تخذل عن هذا الرجل » (أى عثمان) ، وأن تشكك فيه الناس ، فقد بانت له بصائرهم وأنهجت (وضحت) ، ورفعت لهم المنار ، وتحلبوا من البلدان لامر قد حم ، وقد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح ، فان يل يسر بسيرة ابن عمه أبى بكر .

قال : قلت يا أمة ، لو حدث بالرجل حدث ما فزع الناس الا الى صاحبنا (يقصد على بن أبى طالب) .

فقالت : أيها عنك ! انى لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك (٢) .

---

(١) عثمان ذو النورين ، مرجع سابق ، ص ١٩٥ .

(٢) الطبرى ـ جزء ٤ ـ ص ٤٠٧ .

ـ وورد فى رواية ثالثة حينما استحت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها الناس لموقعة الجمل فيما بعد قالت عن مقتل عثمان رضى الله عنه ٠

« ان الغوغاء من أهل الأمصار وعبيد أهل المدينة ، قد سفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام وأخذوا المال الحرام ٠٠٠ » (١) ٠

فأطلقت المال الحرام ولم تخصصه مما يقصد به المال العام والمال الخاص ٠

وللتوفيق بين هذه الروايات الثلاث بشأن نهب الغوغاء لبيت المال نقرر أن بعض خزائن بيت المال قد نهبت بدليل ما ورد فى الرواية الأولى من أنه لم يكن به الا غرارتين وهو مال قليل بالنسبة لبيت مال المسلمين فى عهد عثمان الذى زادت فيه الايرادات العامة زيادة كبيرة ، والبعض الآخر كانت مفاتيحه كما قررت عائشة مع طلحة بن عبيد الله وهذا يدعونا لبحث سبب استيلاء طلحة بن عبيد الله على مفاتيح باقى خزائن بيت المال ٠

لماذا أخذ طلحة بن عبيد الله مفاتيح بيت المال وقت حصار عثمان :

يذكر الطبرى أنه لما حصر عثمان دعا على بن أبى طالب فحضر وبعد أن حمد الله وأثنى عليه قال : أما بعد فان لى عليك حقوقا حق الاسلام وحق الأخاء وقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين آخى بين الصحابة آخى بينى وبينك ، وحق القرابة والصهر ، وما جعلت لى فى عنقك من العهد والميثاق ، فوالله لو لم يكن من هذا شىء ثم كنا انما نحن فى جاهلية ، لكان مبطاء على بنى عبد مناف أن يبتزهم أخو بنى تيم ملكهم ـ يقصد طلحة بن عبيد الله ـ ٠

فتكلم على فحمد الله وأثنى عليه ٠

ثم قال : أما بعد فكل ما ذكرت من حقك على على ما ذكرت ، أما قولك لو كنا فى جاهلية لكان مبطأ على بنى عبد مناف أن يبتزهم أخو بنى تيم ملكهم فصدقت وسيأتيك الخبر ٠

وخرج على يمشى الى دار طلحة بن عبيد الله وهى دحاس من الناس (أى ممتلئة بهم) فقام طلحة اليه ٠

فقال على : يا طلحة ما هذا الأمر الذى وقعت فيه ؟

---

(١) بطلة كربلاء ، بنت الشاطىء ـ طبعة دار الهلال ـ ص ٥٩ ٠

فقال طلحة : يا أبا الحسن بعد ما مس الحزام الطبيين ٠

فانصرف على حتى أتى بيت المال ٠

فقال على : افتحوا هذا الباب ٠

فلم يقدر على المفاتيح ٠

فقال على : اكسروه ٠

فكسر باب بيت المال ٠

فقال على : أخرجوا المال ٠

فجعل يعطى الناس ، فبلغ الذين فى دار طلحة الذى صنع على ٠ فجعلوا يتسللون اليه حتى ترك طلحة وحده ٠

وبلغ الخبر عثمان بن عفان فسر بذلك ٠

ثم أقبل طلحة يمشى عائدا الى دار عثمان ، فاستأذن فلما دخل عليه ٠

قال : يا أمير المؤمنين ، استغفر الله وأتوب اليه ، أردت أمرا فحال الله بينى وبينه ٠

فقال عثمان : انك والله ما جئت تائبا ، ولكنك جئت مغلوبا ٠ الله حسيبك يا طلحة (١) ٠

فمما سبق يتضح أن طلحة لما حصر عثمان وفى أثناء الفتنة استولى على مفاتيح بيت المال كمقدمة لأيلولة الخلافة اليه ويؤيد ذلك رواية بعض المؤرخين أن طلحة بايع على بن أبى طالب كرها (٢) ٠

ومما سبق كذلك يتضح أهمية بيت المال فى شـــئون الخلافة واتجاهات الناس ، فلما كانت مفاتيح بيت المال مع طلحة كان بعض الناس حوله ، ولما فتح على رضى الله عنه بيت المال ووزع منه على الناس تسلل من كان فى دار طلحة الى على رضى الله عنهما ٠

من آثار الفتنة فى عهد عثمان اهتزاز ثقة الممولين بولاتهم :

عكست الفتنة أثارها على الممولين أنفسهم ، فبعد أن كانوا يؤدون صدقات أموالهم لبيت مال المسلمين طواعية قريرة بادائها أعينهم وطيبة بدفعها أنفسهم ، اختلفوا فى الفتنة وبعدها هل يؤدونها الى بيت المال

---

(١) الطبرى ــ الجزء الرابع ــ ص ٤٣٠ ، ٤٣١ ٠

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٣٠ ٠

أو يقومون بتوزيعها بأنفسهم على مصارفها مستندين فى ذلك الى أن بعض الأمراء والولاة لا يضعونها فى مواضعها .

ـ فعن ابن سيرين قال :

« كانت الصدقة ترفع أو قال : تدفع الى النبى صلى الله عليه وسلم أو من أمر به والى أبى بكر أو من أمر به والى عمر أو من أمر به والى عثمان أو من أمر به فلما قتل عثمان اختلفوا ، فكان منهم من يدفعها اليهم ومنهم من يقسمها وكان ممن يدفعها اليهم ابن عمر »(١)

ومن الأحاديث التالية تتضح المشاعر التى انتابت نفوس بعض المولين أثنـــاء الفتنة وبعـدها وأسباب عدم طواعيتهم فى الأداء لبيت المال .

ـ ففى أثناء الفتنة نفسها ونتيجة لانعكاساتها على المولين تردد بعض الناس فى الاداء لبيت مال المسلمين .

فقد سأل الربيع بن معبد ابن عمر فى الفتنة عن صدقة مال أيتام أيدفعها الى بنى عم لهم محتاجين ؟

فقال ابن عمر : لا أدفعها الى الولاة (٢) .

ـ وبسبب ما أشيع من أن السلطان يسرف ولا يرشد الانفاق العام تولد الشك فى نفوس بعض المولين وترددوا بين أدائها لبيت المال أو قيامهم بتوزيعها بأنفسهم على مصارفها ضمانا لسلامة أداء الزكاة وهى احدى فرائض المسلمين وهم مطالبون شرعا بحسن الأداء .

فعن سهل بن أبى صالح عن أبيه قال :

« سألت سعد بن أبى وقاص وأبا هريرة وأبا سعيد الخدرى وابن عمر فقلت : ان هذا السلـــطان يصنع ما ترون أفأدفع زكاتى اليهم (٣) .

قال فقالوا كلهم : ادفعها اليهم .

هبوط قدسية المال العام بعد الفتنة التى وقعت فى عهد عثمان :

ومما انعكس أثره على المالية العامة كنتيجة للفتنة ، الخلاف الذى وقع بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان بشأن مطالبة الاخير بدم

---

(١) الأموال لأبى عبيد ، ص ٦٧٩ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٦٨٠ .
(٣) الأموال لأبى عبيد ص ٦٧٩ .

عثمان واتخاذ معاوية هذا الطلب تكأة لتحقيق طموحه فى نزع الخلافة من رابع الخلفاء الراشدين على بن أبى طالب ، فقد أدى هذا الخلاف الى اتخاذ معاوية المال العام وكان واليا على الشام وسيلة من الوسائل لتحقيق طموحاته ، فكان ينفق منه على من يستجيب للانضمام اليه ، وبذلك مال المال العام عن تحقيق رسالته الاساسية وهى أن يوجه انفاقه نحو المصلحة العامة للرعية وتحول بعضه الى وسيلة لانتزاع السلطة . فشاع بين الناس الاستخفاف بقدسية المال العام وامكان استخدامه كوسيلة لزيادة الأتباع وجذب الأنصار ، وقد أدى هـذا الخلاف الذى أسفرت عنه الفتنـة الى مناوشات وحروب بين الفريقين ، فبعد أن كان المال العام يوجه الى فتوحات لنشر دعوة الاسلام وتحقيق النصر على الأعداء وحصول جند الاسلام على غنائم ينال بيت المال خمسها ، ويؤول اليه ايرادات عامة من جزية وخراج البلاد المفتوحة ويدفع الزكاة من أسـلم من أهلها ، أصبح المال العـام يوجه الى حروب يقتل المسلمون فيها بعضهم بعضا . وهكذا يستخدم المال العام فى المالية العامة الاسلامية ، لانه بذلك ينأى عن رسالته التى خصصه الله لها وهى أن ينفق على الاصلاح والتعمير فى الحياة الدنيا وحسن الجزاء وطيب المثوبة فى الحياة الأخرى .

نتيجة للفتنة وفى عهد معاوية فقدت المالية العامة بعض سماتها الاسلامية :

وكان من آثار الفتنة كذلك ونشوء الخلاف بين على ومعاوية ومقتل على بن أبى طـالب وتولى معاوية الحكم ان حـاد معاوية بعض الشىء عن منهاج الخلفاء الراشدين فى ادارة المالية العامة فى عهده ، فمعاوية « أول من أقام الحرس والشـرطة والقوانين فى الاسـلام ، وأرض الستور ، واستكتب النصارى ، ومشى بين يديه بالحراب وأخذ الزكاة من الأعطية ، وجلس على السرير والناس تحته ، وجعل ديوان الخاتم ، وبنى وشيد البناء وسخر الناس فى البناء ولم يسخر أحد قبله ، واستصفى أموال الناس فأخذها لنفسه . وكان سعيد بن المسيب يقول : فعل الله بمعاوية وفعل فانه أول من أعاد هذا الامر ملكا . وكان معاوية يقول : « أنا أول الملوك » (١)

ومما سبق يبين أن الانفاق العام فى عهد معاوية لم يوجه كله التوجيه الرشيد الذى كان يلتزم به الخلفاء الراشدون رضى الله عنهم ، وانما نزع بعضه الى اشباع مظاهر خيلاء الحكم وأبهة السلطان واقامة الحجب بين الحاكم والرعية والتعالى عليها . وفقدت المالية العامة الاسلامية سمات طيب الأموال وترشيد الانفاق واستعفاف الحكام .

(١) تاريخ الدولة العربية ، السيد عبدالعزيز سالم ، ص ٣٣٠ ، نقلا عن اليعقوبى - ج ٢ - ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

تقييم عام للسياسة المالية
فى عهـد عثمان بن عفان

اذا قيمنا سياسة المالية العامة فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فى ضوء ما سبق فاننا نصل الى النتائج التالية :

ـ كانت المالية العامة فى عهد عثمان بن عفان مالية عامة اسلامية تحصل الزكاة المستحقة على المسلمين والجزية والخراج من أهل الكتاب ويؤول اليها خمس غنائم فتوحات الاسلام وعشور التجارة على التجار غير المسلمين ، وتنفق على ادارة الدولة ومصـالح الرعية وعلى الفقراء والمساكين واليتامى وغيرهم من الضعفاء تنفيذا لنصوص القرآن وتطبيقا لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم ٠

ـ ساندت المالية العامة فى عهد عثمان بن عفان نشر دعوة الاسلام فرزقت الجنـد واشترت السـلاح والكراع وموّلت لأول مرة فى تاريخ الاسلام انشاء أسطول بحرى مما كان له الآثر الهام فى اتساع الفتوح وتحقيق نصر الله والفتح ٠

ـ ساهمت المالية العامة فى عهد الخليفة الثالث فى توسعة وصيانة وتعمير بيوت الله فى الأرض وهى المساجد خصوصا بيت الله الحرام بمكة ومسجد الرسول بالمدينة فحققت رسالة الاسلام فى اقامة الصلاة وأداء الحج ودراسة القرآن والتفقه فى أحكام الدين ٠

ـ لولا تطوع الصحابة لتجميع القرآن لقامت المالية العامة بالتمويل، فتحقق بذلك قول الله جل وعلا :

« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (الحجر / ٩) ٠

اذ لولا توحيد رسـم المصحف فى ظل اختـلاف اللهجات لتطرق التحريف والتبديل بحسن نية اليه نتيجة تمسك أصحاب كل لهجة بنطقها مما كان سيثير النقاش الذى قد يؤدى للاختلاف ٠

ـ حققت المالية العامة فى عهد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه التوازن المالى ففاضت الايرادات العامة عن النفقات العامة مما مكن من الاستمرار فى نظام الأعطيات الذى بدأه أبو بكر الصديق وطوره عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، ولكن لم يتطور نظام العطاء بما يحقق نوايا

عمر بن الخطاب بأنه لو عاش لجعل الناس بيانا واحدا ، فوهن نتيجة لذلك أثر العطاء في تحقيق التوازن الاجتماعي في عهد عثمان ·

ـ ممولو المالية العامة في عهد عثمان رضي الله عنه كانوا يؤدون ما عليهم لبيت المال ، المسلمون منهم يؤدون الزكاة تنفيذا لكتاب الله والذميون يؤدون الجزية والخراج تنفيذا لمعاهدات الصلح وما اتفق عليه بين رؤسائهم وقادة الفتوح في الاسلام ، وقد تخلف بعض ممولي الأمصار من أهل الكتاب عن الأداء في أول عهد عثمان الا أنهم عادوا وأدوا لبيت المال ما عليهم بعد أن أجبرتهم جيوش الاسلام على الأداء ·

ـ اتسمت المالية العامة في السنوات الأولى من عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه بالاستقرار نتيجة تنفيذه وصية عمر بعدم تغيير ولاته لمدة سنة ونتيجة لزيادة العطاء أول عهد عثمان فاستبشر الناس ولما اتسم به الخليفة من لين محبب الى الرعية ، بعد حزم عمر وشدته في الحق ·

ـ لم تتعدل السياسة المالية العامة في عهد عثمان لتحقيق ما نواه عمر بن الخطاب من أخذ فضول الأغنياء وتوزيعها على الفقراء ، الأمر الذي كان سيساهم في تقليل الفروق بين الأغنياء والفقراء تلك الفروق التي بدأت تتسع في أواخر عهد عمر بن الخطاب وزاد اتساعها في عهد عثمان فأخل ذلك بالتوازن الاجتماعي ·

ـ لم تستجب المالية العامة في عهد عثمان لدعوة أبي ذر الغفاري ومن أيده من الصحابة رضي الله عنهم التي تتضمن أن للفقراء حقا فوق الزكاة في أموال الأغنياء وبذلك تركت المالية العامة طائفة من الفقراء المسلمين يشعرون بأنهم لا ينالون كل حقوقهم من الأغنياء ، ولو استجابت المالية العامة لدعوة أبي ذر باستقطاع جزء من أموال الأغنياء فوق الزكاة لسكنت نفوس الفقراء ولساهم ذلك في التقارب الاجتماعي بين طبقتي الأغنياء والفقراء ، ولكن عثمان رضي الله عنه كان يرى أن لا يحمل الناس على الزهد ما داموا يؤدون الفرائض ·

ـ عكس عدم الاستقرار السياسي في أواخر عهد عثمان بن عفان أثره على المالية العامة ، وساهمت عوامل مختلفة في نشوء فتنة كبرى كان الخليفة السابق عمر بن الخطاب قد خشي احتمال وقوعها ، فلما وقعت كان سببا في انفاق جزء من الأموال العامة على حروب بين المسلمين بسبب نزاع على الخلافة بعد عثمان ، فبدأ العامل السياسي يتدخل في حركة المالية العامة فأبعدها فيما بعد رويدا رويدا عن سمة الترشيد المطلق التي تتسم بها المالية العامة الاسلامية ·

ـ لا تنسى المالية العامة مآثر عثمان بن عفان عليها ، فقد قام في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم بما يقوم به عادة بيت المال وكان بيت مال المسلمين وقتئذ قليل الموارد فقد مول عثمان غزوات الاسلام من ماله الخاص وسقى المسلمين ماء عذبا من بئر اشتراه متطوعا بأمواله وساهم في توسيع مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم وقدم للمسلمين الغذاء حينما أحاقت بهم المجاعة أيام أبي بكر الصديق رضى الله عنه •

ـ تأثرت المالية العامة في عهد عثمان بعناصر شخصيته التي نوهنا عنها في مطلع البحث (١) فتقواه وصحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وخبراته السابقة جعلته يطبق بصفة عامة المالية العامة الاسلامية ويمول جيوش الاسلام لنشر دعوة الاسلام ويعمر المساجد وينفق على الحج سنويا ويرفض اقتراحا لمعاوية بارسال أربعة آلاف من الجنود لحراسته خشية القاء عبء نفقاتهم على بيت مال المسلمين وتأثرت المالية العامة بحياء عثمان ولينه وشيخوخته فطبقها تطبيقـا تقليديا فلم يصدر قرارات مالية من شأنها أن تطبق نوايا عمر المالية وتأخذ بآراء أبي ذر الاشتراكية وتحد من تطلعات بعض الصحابة والولاة الدنيوية وتصد رياح الفتنة الغوغائية ، وتأثرت المالية العامة بنشأة عثمان نشأة ثراء وتعوده على السخاء ، فكان يرى أنه اذا فضلت من بيت مال المسلمين فضلة فان ولايته تعطيه الحق في أن يفعل بها ما يشاء في حدود أحكام الدين •

ـ وتأثرت المالية العامة في عهـد عثمان بالمقـدمات التي سبقت عهده (٢) أيضا وكان أثر بعض هذه المقدمات ايجابيا والبعض الآخر سلبيا فمن الأثر الايجابي ارجاع الأمصار التي نقضت عهد المسلمين الى طاعة الدولة وزيادة الفتوح الاسـلامية مما عكس أثره على زيادة موارد بيت المال ، ونتج أثر سلبي حدث كنتيجة لعدم معالجة عثمان رضى الله عنه لتفاعل بعض المقدمات في عهده منها عدم الحد من تطلعات بعض الصحابة والولاة وعدم قدرته على متابعة عمر في تقشفه وزهده والاستعانة ببعض أقاربه في بعض المناصب الكبرى مما أظهر التنافس الكامن بين آل هاشم وآل أمية وصبر عثمان على دعاة الفتنة في الولايات فوقعت الفتنة كما تنبأ بها عمر وانفتح بابها الموصد وعكست تلك الفتنة آثارها السلبية على المالية العامة بعد ان أدت الى قتل عثمان نفسه كما تنبأ بذلك الرسول صلى الله عليه وسلم •

---

(١) انظر الفصل الأول من الباب الأول •

(٢) انظر الفصل الثاني من الباب الأول •

- ولا تنسى المالية العامة فى عهد عثمان بن عفان المبادىء الخالدة التى أرساها بعض الصحابة رضى الله عنهم بشأن المال العام ·

فقد دعم أبو ذر الغفارى ومن والاه من الصحابة مبدأ التكافل الاجتماعى وهو من مبادىء الاسلام الهامة عن طريق الدعوة لاستقطاع بيت مال المسلمين جزء من أموال أغنيائهم تكفى للانفاق على ضرورات فقرائهم ·

ودعم عبد الله بن مسعود ومن سار على نهجه مبدأ التعفف عن المال العام حتى ولو كان ذلك لكفالة بناته بعد موته مؤثرا أن يورثهم التقوى بدلا من المال العام ، فلم يقبل عطاء من بيت المال عرضه عليه الخليفة عثمان ، لأن أبا البنات عبد الله بن مسعود علمهن سورة الواقعة لتقيهن من الفقر بعد موته ·

ودعم عبد الرحمن بن عوف ومن أيده من الصحابة رضى الله عنهم مبدأ رقابة الأمة الاسلامية على المال العام ، حينما أعاد توزيع ابل الصدقة بحيث تصل الى مستحقيها الذين نوه عنهم قرآن الله الكريم ·

رحم الله عثمان بن عفان ورضى الله عنه وعن الصحابة جميعا وصلى الله على رسـوله الكريم سيدنا محمـد بن عبد الله خاتم الأنبيـاء والمرسلين (١) ·

تم بعـون الله
قطب ابراهيم محمد

---

(١) نأمل أن يوفقنا الله جلا وعلا لمعالجة موضوع « السياسة المالية للرسول صلى الله عليه وسلم » فى مؤلف مستقل ان شاء الله ·

بعض المراجع

- القرآن الكريم
- معجم ألفاظ القرآن الكريم : المجلد الأول والثانى ـ صادر عن مجمع اللغة العربية ٠
- الدليل الكامل لآيات القرآن الكريم : د٠ حسين محمد فهمى الشافعى ـ صادر عن المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ٠
- مختصر تفسير ابن كثير : محمد على الصابونى ـ دار القرآن الكريم ببيروت ٠
- المنتخب فى تفسير القرآن الكريم : صادر عن المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ٠
- صحيح البخارى : تأليف أبى عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى ـ المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ٠
- المنتخب من السنة : المجلد السادس ـ صادر عن المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ٠
- تاريخ الطبرى : لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ـ طبعة رابعة ـ دار المعارف ٠
- تاريخ الدولة العربية : د٠ السيد عبد العزيز سالم ـ مؤسسة الثقافة الجامعية بالاسكندرية ٠
- فتوح مصر وأخبارها : لأبى القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ابن أعين القرشى المصرى ٠
- الخلفاء الراشدون : عبد المقصود نصار وآخرون ـ مطبعة دار الطباعة المحمدية ٠
- مع الخلفاء الراشدين فى الاسلام : عبد الخالق أبو رابية ـ طبعة المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ٠
- مدرسة الرسول صلى الله عليه وسلم : عبد المنعم حماده ـ أصدره المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ٠
- رجال حول الرسول : خالد محمد خالد ـ دار الكتب الحديثة ٠

- **بطلة كربلاء زينب بنت الزهراء** : بنت الشاطئ ـ طبعة دار الهلال.
- **عثمان ذو النورين** : محمد رضا ـ الطبعة الثانية ـ مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه .
- **عثمان بن عفان** : د. محمد حسين هيكل ـ طبعة ثانية ـ دار المعارف .
- **عثمان بن عفان ذو النورين** : عباس العقاد ـ المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت .
- **وداعا عثمان** : خالد محمد خالد ـ دار المعارف .
- **الخراج** : للقاضى أبى يوسف يعقوب بن ابراهيم ـ المطبعة السلفية.
- **الأموال** : لأبى عبيد القاسم بن سلام ـ المطبعة السلفية .
- **السياسة المالية لعمر بن الخطاب** : قطب ابراهيم محمد ـ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- **النظم المالية فى الاسلام** ـ طبعة ثانية : قطب ابراهيم محمد ـ صدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- **النظام المال الاسلامى** : د. بدوى عبد اللطيف عوض ـ مطابع الاهرام التجارية .
- **الموازنة العامة للدولة ـ طبعة ثالثة** : قطب ابراهيم محمد ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- **الاقتصاد الاسلامى مذهبا ونظاما** : جزء أول وثان تأليف د. ابراهيم الطحاوى ـ من مطبوعات مجمع البحوث الاسلامية .
- **الاسلام وأهل الذمة** : د. حسن الخربوطلى ـ المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .
- **من أخلاق النبى** : د. محمد الحوفى ـ المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .
- **النظم الاسلامية** : د. محمد عبد الله العربى ـ من مطبوعات معهد الدراسات الاسلامية .
- **نحن المعمرون** : حسن عبد السلام .
- **شخصيات خالدة فى الاسلام** : عبد المقصود حبيب ـ المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .
- **الاطار الأخلاقى لمالية المسلم** : قطب ابراهيم محمد ـ ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

فهـــرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٥٧٨٩ / ١٩٨٥

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ٠٧٧٦ ـ ×

فى ظلال القرآن المجيد وهدى سنن الرسول الكريم واستناداً لوقائع التاريخ الإسلامى وفى إطار من الفن الحالى الحديث يبرز مؤلف كتاب « السياسة المالية لعثمان بن عفان » أسس المالية العامة للدولة الإسلامية فى عهده ، ويحلل مدى تأثرها بشخصية الخليفة وصحابة الرسول وتنبؤاتٍ وأوضاع عامة سبقت الخلافة الثالثه وأطلت عليها .

يحلل المؤلف الأوضاع المالية والاقتصادية والاجتماعية والدينية ويشيد بالإيجابيات وينقد السلبيات ويتخذ من ذلك معبرة لمناقشة خلل الماليات العامة الحديثة وينتهى بوضع تقييم عام للسياسة المالية فى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٨٥ قرشــاً

1